فتح البيان في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

الجزء الثامن



صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



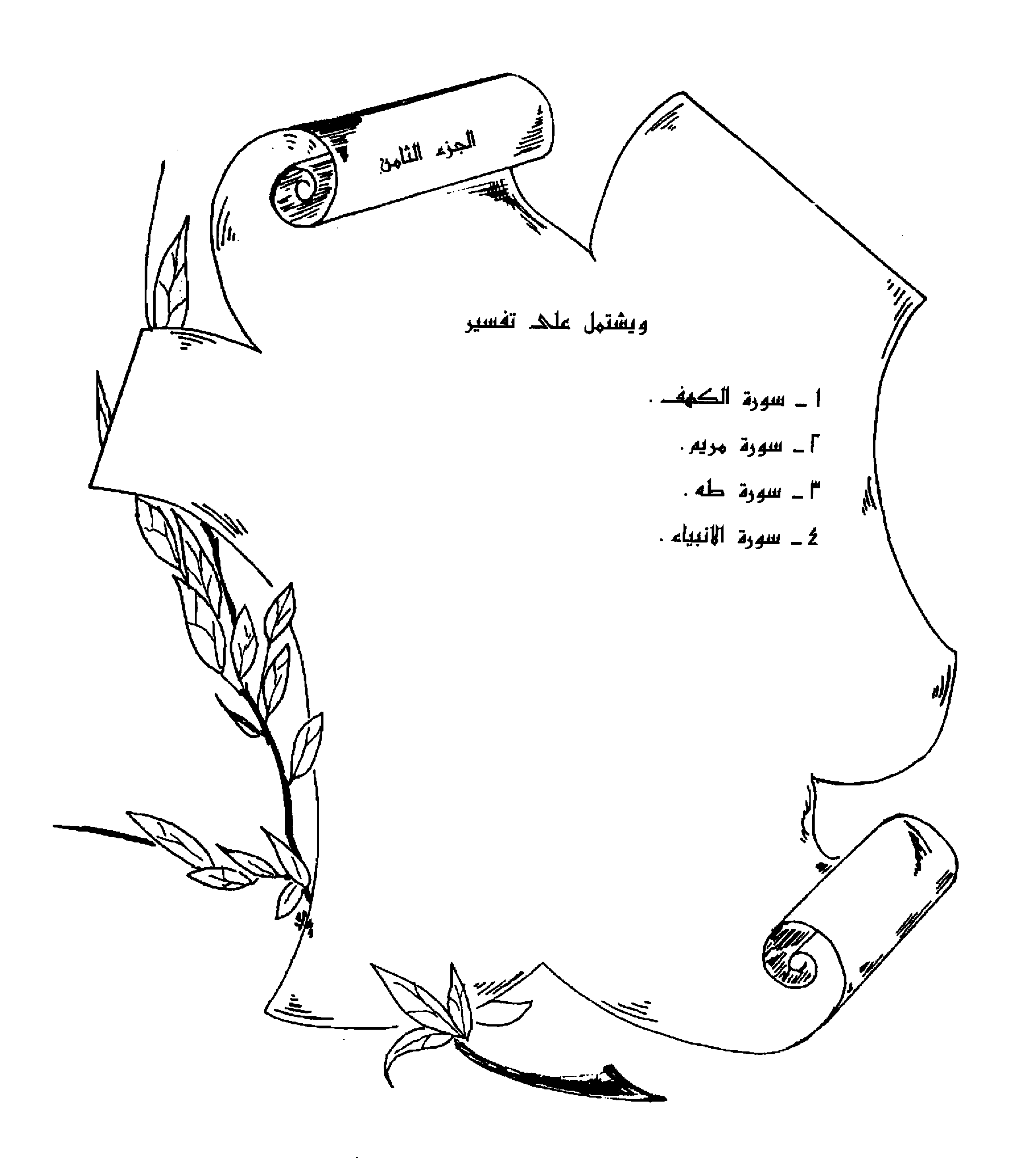
شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE


الجزء الثامن
ويشتمل على تفسير
١ ـ سورة الكهف .
٢ ـ سورة مريم .
٣ ـ سورة طه .
٤ ـ سورة الأنبياء .



سورة الكهف
مائة وإحدى عشرة آية

قال القرطبي : وهي مكية في قول جميع المفسرين ، وبه قال ابن عباس وابن الزبير وروي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة الى قوله جرزا والاول أصح وقد ورد في فضلها أحاديث منها ما أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال »[1] .

وأخرج مسلم والبخاري وغيرهما عن البراء قال : قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فاذا ضبابة أو سحابة قد غشيته فذكر ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « اقرأ فلان فإن السكينة نزلت للقرآن »[2] وهذا الذي كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بينه الطبراني . وفي قراءة العشر الآيات من أولها أو من آخرها أحاديث .

وأخرج الطبراني في الاوسط والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه الى مكة ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره »[3] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه الى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين » .

---

(١) مسلم ٨٠٩ - الإمام أحمد ٦/٤٤٩ - ابو داوود ٤٣٢٣ .

(٢) مسلم ٧٩٥ - البخاري ١٦٩٨ .

(٣) المستدرك كتاب فضائل القرآن ١/٥٦٥ .

وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والأرض ولكاتبها من الأجر مثل ذلك ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله من أي الليل شاء قالوا: بلى يا رسول الله قال: سورة أصحاب الكهف» أخرجه ابن مردويه[4].

وأخرج أيضا عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة» وفي الباب أحاديث وآثار وفيما أوردناه كفاية مغنية.

(٤) ضعيف الجامع ٢١٥٩ ـ الأحاديث الضعيفة ٢٤٨٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤)﴾

﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ هل المراد الإعلام بذلك للإيمان به وتكون الجملة خبرية لفظاً ومعنى أو الثناء به ، أي إنشاء الثناء بثبوت الحمد لله وتكون الجملة انشائيـة لفظاً ومعنى ، بمعنى أنها نقلت في العرف للإنشاء أو الإعلام والثناء كلاهما ، والجملة مستعملة في الخبر والإنشاء على طريق الجمع بين الحقيقة والمجاز ، احتمالات أفيدها الثالث .

وقال الشوكاني رحمه الله : علم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم ،ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما هو في حيز الصلة لما قبله ، ووجه كون إنزال الكتاب وهو القرآن نعمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد وأحوال الملائكة والأنبياء وعلى كيفية الأحكام الشرعية التي تعبده الله وتعبد أمته بها ؛ وكذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه في النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ولم يجعل له﴾ أي فيه ﴿عوجاً﴾ أي شيئاً من العوج بنوع من أنواع الاختلال في اللفظ والمعنى ، والعوج بالكسر في المعاني ، أي فيما لا يدرك بالبصر بل بالبصيرة ، وبالفتح في الأعيان أي فيما يدرك به ، كذا قيل ، ويرد عليه قوله سبحانه ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمْتاً﴾ يعني الجبال وهي من الأعيان .

قال الزجاج : المعنى لم يجعل فيه اختلافاً كما قال: ﴿ولو كان من عند غير

الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه ؛ وقيل لم يجعله مخلوقاً ، والجملة معطوفة على الصلة قبلها أو اعتـراضية او حالية .

﴿قيماً﴾ القيم المستقيم الذي لا ميل ولا إفراط فيه ولا تفريط ، او القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية ، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمناً عليها يشهد بصحتها ، وعلى الأول يكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج ، فرُب مستقيم في الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج في الحقيقة ، أي جعله قيماً عدلاً ، قيل في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً .

ثم فصل سبحانه ما أجمل في قوله [قَيِّماً] فقال ﴿لينذر﴾ وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم ، والمعنى لينذر الكـافرين ﴿بأساً﴾ أي عـذاباً ﴿شديداً من لدنه﴾ أي صادراً من عنده نازلاً من لدنه ﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ قرىء يبشر مشدداً ومخففاً وأجري الموصول على موصوفه المذكور لأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان.

﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ هو الجنة قاله السدي حال كونهم ﴿ماكثين فيه﴾ أي في ذلك الأجر ﴿أبداً﴾ أي مكثاً دائماً لا انقطاع له ، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار .

ثم كرر الإنذار وذكر المنذر بخصوصه وحذف المنذر به وهو البـأس الشديد لتقدم ذكره فقال ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ وهم اليهود والنصارى . قال السدي وبعض كفار قريش القائلين بأن الملائكة بنات الله ، فذكر سبحانه أولا قضية كلية وهي إنذار عموم الكفار ، ثم عطف عليها قضية خاصة هي بعض جزئيات تلك الكلية تنبيهاً على كونها أعظم جزئياتها ، فأفاد ذلك أن نسبة الولد الى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر .

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

﴿ما لهم به﴾ أي بالولد واتخاذ الله إياه ﴿من علم﴾ ومن مزيدة لتأكيد النفي والجملة مستأنفة ، والمعنى ما لهم بذلك علم أصلاً ، وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل اليه أو لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به ﴿ولا لآبائهم﴾ أي ولا لأحد من أسلافهم علم بذلك ، بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعاً ، وهذا مبالغة في كون تلك المقالة فاسدة باطلة .

﴿كبرت كلمة﴾ قال الفراء : كبرت تلك الكلمة كلمة . وقال الزجاج : كبرت مقالتهم كلمة ، والمراد بهذه الكلمة هي قولهم اتخذ الله ولداً ، ومعنى الكلام على التعجب أي ما أكبرها كلمة ، ثم وصف الكلمة بقوله ﴿تخرج من أفواههم﴾ وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوه بها ، وكثيراً ما يوسوس الشيطان في قلوب الناس من المنكرات ما لا يتمالكون أن يتفوهوا به ، بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر .

والخارج من الفم وان كان مجرد الهواء لكن لما كانت الحروف والأصوات كيفيات قائمة بالهواء أسند الى الحال ما هو من شأن المحل او المعنى هذا الذي

يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان ، فكأنه يجري على لسانهم على سبيل التقليد .

ثم زاد في تقبيح ما وقع منهم فقال ﴿إن﴾ أي ما ﴿يقولون إلا﴾ قولاً ﴿كذباً﴾ لا مجال للصدق فيه بحال . ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ قال الأخفش والفراء : البَخْع الجهد ، وقال الكسائي : بخعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة ، وبخع الرجل نفسه إذا انهكها وقال أبو عبيدة : معناه مهلك نفسك أو مضعفها أو مهلكها ، والمقصود من هذا الترجي النهي ، أي لا تبخع نفسك من أجل غمك على عدم إيمانهم ، أي لا تغتم لئلا تهلك نفسك .

وفي السمين ولعل قيل للإشفاق على بابها وقيل للاستفهام وهو رأي الكوفيين ،وقيل للنهي ﴿على آثارهم﴾ أي على فراقهم من بعد توليهم عنك وإعراضهم أو هلاكهم ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾ أي القرآن ﴿أسفاً﴾ أي غيظا وحزناً . قاله قتادة . وقال مجاهد : جزعاً ونصبه على المفعول له وجواب إن محذوف دل عليه الترجي تقديره فلا تحزن ، وهذا عند الجمهور وعند غيرهم هو جواب متقدم .

عن ابن عباس قال : اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن عبدالمطلب وأبو البختري في نفر من قريش وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه وإنكارهم ما جاء من النصيحة فأحزنه حزناً شديداً فأنزل الله سبحانه ﴿فلعلك باخع نفسك﴾. الآية.

﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ هذه الجملة تعليل للنهي المقصود من الترجي والقصد منه تسلية له صلى الله عليه وسلم وتسكين أسفه وغيظه

على عدم إيمانهم لأنه مختبر لأعمال العباد مجازيهم ، فكأنه يقول له صلى الله عليه وسلم لا تحزن فإني منتقم منهم لك،وقيل استئناف .

والمعنى إنا جعلنا ما عليها مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من الحيوانات والنبات والشجر والأنهار والجماد وغير ذلك من النعم كالذهب والفضة والمعادن كقوله سبحانه ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ قال ابن عباس : يعني الرجال والعلماء زينة الأرض،وعن سعيد بن جبير مثله ، وقال الحسن : هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة .

﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ اللام للغرض او العاقبة،والمراد بالابتلاء أنه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان ، قال الزجاج : أيهم رفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام والمعنى لنمتحنن أهذا أحسن عملاً أم ذلك ، قال الحسن : أيهم أزهد وأشد للدنيا تركاً ، ومثله عن الثوري وقال مقاتل : أيهم أصلح فيما أوتي من المال،وقال قتادة : أيهم أتم عقلاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلت : ما معنى ذلك يارسول الله قال : « ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرعكم في طاعة الله»

ثم أعلم سبحانه أنه مبيد لذلك كله ومفنيه فقال ﴿وإنا لجاعلون﴾ أي مصيرون ﴿ما عليها﴾ من هذه الزينة عند تناهي عمر الدنيا ﴿صعيداً﴾ تراباً قال أبو عبيدة : الصعيد المستوي من الأرض ، وقال الزجاج : هو الطريق الذي لانبات فيه بعد ان كانت خضراء معشبة أي أرضاً ملساء ، وقيل فُتَاتاً

وهو الذي يضمحل بالريح لا اليابس الذي يرسب،ونظيره ﴿كل من عليها فان﴾ وقوله ﴿فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾.

والمعنى انه لا بد من المجازاة بعد إفناء ما على الأرض ، وتخصيص الأهلاك بما على الأرض يوهم بقاء الأرض إلا أن سائر الآيات دلت ايضاً على أن الأرض لا تبقى وهو قوله ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال قتادة : الصعيد الجبال التي ليس فيها زرع .

﴿جرزاً﴾ يابسا قال الفراء : الجرز الأرض التي لا نبات فيها من قولهم امرأة جَرُوز إذا كانت أكولاً،وسيف جُراز إذا كان مستأصلاً وجرز الجراد والشاة والإبل الأرض اذا أكلت ما عليها،ويقال سنة جُرُز وسنونٌ أَجْرَاز لا مطر فيها وأرض جُـرُز وأرضون أَجْـرَاز لا نبات بها،وجرزاً نعت«لصعيداً»فكأنه مجاز علاقته المجاورة .

وعن الحسن الجرز الخراب،أي نعيدها بعد عمارتها خراباً بإماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار وغير ذلك. ومعنى النظم القرآني لا تحزن يامحمد بما وقع من هؤلاء من التكذيب فإنا قد جعلنا ما على الأرض زينة لاختبار أعمالهم وإنا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا فمجازونهم إن خيراً فخير وان شراً فشر .

﴿أم حسبت﴾ أي بل أحسبت أو بل حسبت ومعناها الانتقـال من حديث الى حديث آخر لا لإبطال الأول والإضراب عنه كما هو معني بل في الأصل ﴿إن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ المعنى أن القوم لما تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على سبيل الامتحان .

قال سبحانه بل أظننت يامحمد أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط لا تحسب

ذلك فإن آياتنا كلها عجب؛ فإن من كان قادراً على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء ثم جعل ما عليها صعيداً جرزاً كأن لم تغن بالأمس لا تستبعد قدرته ولا حفظه ورحمته بالنسبة الى طائفة مخصوصة وإن كانت قصتهم خارقة للعادة فإن آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك .

ومعنى عجباً ذات عجب ، والكهف هو الغار الواسع في الجبل ، فإن كان صغيراً سمي غاراً والجمع كُهُوف في الكثرة وأَكْهُف في القلة ؛ والرقيم قال كعب والسدي : إنه اسم القرية التي خرج منها أصحاب الكهف ، وقال سعيد بن جبير ومجاهد : إنه لوح من حجارة أو رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف ففيه فلان بن فلان من مدينة كذا خرج في وقت كذا من سنة كذا .

قال الفراء : ويروى أنه انما سمي رقيماً لأن أسماءهم كانت مرقومة والرقم الكتابة. وعن قتادة أن الرقيم دراهمهم التي كانت معهم .

وقال ابن عباس : الرقيم كتاب مرقوم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام ، وقيل إن الرقيم اسم كلبهم قاله أنس ، وقيل:هو اسم الوادي الذي كانوا فيه ، وقيل اسم الجبل الذي فيه الغار .

قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم ، وقال ابن عباس : يقول الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف﴾ أي صاروا اليه ونزلوه وسكنوه والتجأوا اليه وجعلوه مأواهم. يقال أوى إلى منزله من باب ضَرَب[1] إذا نزله بنفسه وسكنه

---

(١) أي مفتوح العين في الماضي مكسورها في المضارع فيقال أوى يأوي مثل ما يقال ضَرَب يضرِب.

والمأوى لكل حيوان مسكنه. والفتية هم أصحاب الكهف جمع فتى وهو الطرىء من الشباب، إظهار في مقام الإضمار للتنصيص على وصفهم وسنهم فكانوا في سن الشباب مُرْداً وكانوا سبعة خرجوا من مدينتهم خائفين على ايمانهم من قومهم الكفار حيث أمروهم بعبادة غير الله وكذلك ملك المدينة أمرهم بما ذكر، واسمه دقيانوس ومدينتهم اسمها أفسوس عند أهل الروم لأنها من مدائنهم واسمها عند العرب طرسوس .

فلما أمروهم بعبادة غير الله ذهب كل واحد منهم الى بيت أبيه وأخذ منه زاداً ونفقة وخرجوا فارين هاربين حتى أووا الى كهف في جبل قريب من المدينة فاختفوا فيه وصاروا يعبدون الله ويأكلون ويشربون ويبعثون أحداً منهم خفية ليشتري لهم الطعام من المدينة وهم خائفون من اطلاع أهل المدينة عليهم فيقتلوهم لعدم دخولهم في دينهم ، فجلسوا يوماً بعد الغروب يتحدثون فألقى الله عليهم النوم وذلك قوله تعالى ﴿فضربنا على آذانهم﴾ الخ كما سيأتي تفصيله .

﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك﴾ أي من عندك ﴿رحمة﴾ التنوين إما للتعظيم أو للتنويع وتقديم من لدنك للاختصاص أي رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وهي المغفرة في الآخرة والأمن من الأعداء والرزق في الدنيا ﴿وهيىء لنا من أمرنا رشداً﴾ أي أصلح لنا من قولك هيأت الأمر فتهيأ والمراد بِأَمْرِهِم الأمرُ الذي هم عليه وهو مفارقتهم للكفار ، والرشد نقيض الضلال ، ومن للابتداء ويجوز أن تكون للتجريد كما في قولك رأيت منك أسداً وتقديم المجرورَيْن للاهتمام بهما أي اجعل أمرنا رشداً أو يسر لنا طريق رضاك .

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

﴿فضربنا على آذانهم﴾ قال المفسرون : أنمناهم والمعنى سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات أي ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ففي الكلام تجوز بطريق الاستعارة التبعية، وهذا النوم من جملة الرحمة التي طلبوها فكأنه قال فاستجبنا دعاءهم ومن جملة استجابته أن أنمناهم وقلبناهم في نومهم ذات اليمين وذات الشمال .

﴿في الكهف سنين عدداً﴾ أي ذوات عدد على أنه مصدراً وبمعنى معدودة على أنه بمعنى المفعول. ويستفاد من وصف السنين بالعدد الكثرة ، قال الزجاج : إن الشيء إذا قل مقدار عدده لم يحتج إلى العدد وإن كثر احتاج الى أن يعدّ وقيل يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند الله وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون .

﴿ثم بعثناهم﴾ أي أيقظناهم من تلك النومة ﴿لنعلم﴾ أي ليظهر معلومنا واللام للعاقبة ، وقيل للتعليل وقرىء بالتحتية والفاعل هو الله تعالى ففيه التفات عن التكلم الى الغيبة ، قيل والمراد بالعلم الذي جعل علة للبعث هو الاختبار مجازاً فيكون المعنى بعثناهم لنعامل معاملة من يختبرهم.والأَوْلَى ما ذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده .

﴿أيّ الحزبين﴾ من قوم الفتية أهل الهدى وأهل الضلالة فالمراد بالحزبين

الفريقان من المؤمنين والكافرين المختلفين في مدة لبثهم، وقيل المراد نفس أصحاب الكهف لا أهل المدينة اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا ، وقيل المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكاً بعد ملك وأصحاب الكهف ، وقيل أن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب ، وقال الفراء : ان طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم .

﴿أحصى﴾ أي أضبط ﴿لما لبثوا أمداً﴾ وكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه ، قال ابن جريج : إنهم كتبوا اليوم الذي خرجوا فيه والشهر والسنة وما مصدرية أي أحصى لِلُبْثِهِم أو بمعنى الذي واللام زائدة ، وقيل على بابها من العلة أي لأجل قاله أَبُو الْبَقَاء،وما بمعنى الذي والأمد الغاية .

وقيل إن أحصى أفعل تفضيل واختاره الزجاج والتبريزي ورد بأنه خلاف ما تقرر في علم الإعراب وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم أفلس من ابن الْمُذَلَّق[1]وأعدى من الْجَرَب، وقال أبو علي والزمخشري وابن عطية : أن أحصى فعل ماض .

﴿نحن نقص عليك نبأهم﴾ هذا شروع في تفضيل ما أجمل في قوله إذ أوى الفتية،والنبأ الخبر الذي له شأن وخطر أي نحن نخبرك بخبرهم ﴿بالحق﴾ أي نقص قصصاً متلبساً بالحق أو نقصه متلبسين به أو نقص نبأهم متلبساً به أو نبأهم المتلبس به ﴿إنهم فتية﴾ أي أحداث وشبان وكان أحدهم وزير الملك دقيانوس وكانوا من أشراف تلك المدينة ومن عظماء أهلها والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال اقتضاه ما قبلها فكأنه قيل وما نبؤهم؟والفتية جمع قلة .

﴿آمنوا بربهم﴾ فيه التفات من التكلم الى الغيبة إذ لو جاء على نسق الكلام لقيل آمنوا بنا ﴿وزدناهم هدى﴾ بالتثبيت والتوفيق وفيه التفات من

---

(١) ويروى بالدال وهو رجل من بني عبد شمس لم يكن يجد بيتة ليلة وعرف أبوه وأجداده بالإفلاس. قال الشاعر في أبيه: إنك إذ ترجو تميماً ونفعها .. كراجي الندى والعرف عند المذلّق

الغيبة الى التكلم ، قال الربيع بن أنس : هدى إخلاصاً، وقيل إيماناً وبصيرة ، وقيل يقيناً .

﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي قويناها بالصبر على هجر الأهل والأوطان وفراق الخلان والأخدان؛ والفرار الى بعض الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالاسلام حيث قالوا للملك ربنا رب السموات إلخ ولم يحصل لهم منه رعب في الله ، قال قتادة : ربطنا قلوبهم بالإيمان وشددنا عليها بالصبر والتثبيت وفيه استعارة تصريحية تبعية لأن الربط هو الشد بالحبل .

﴿إذ قاموا﴾ اختلف أهل التفسير في هذا القيام على أقوال فقيل إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم هو أكبر القوم : إني لأجد في نفسي شيئاً أن ربي رب السموات والأرض فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا فقاموا جميعاً .

﴿فقالوا ربنا رب السموات والأرض﴾ قاله مجاهد : وقال أكثر المفسرين إنه كان لهم ملك جبار يقال له(دقيانوس)وكان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ، وقد أمرهم بالسجود للأصنام فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، أي قالوا جملاً ستاً ، ثلاثة بين يدي ملكهم آخرها قوله شططاً ، وثلاثة بعد انصرافهم عن مجلسه ذماً لقومهم آخرها قوله كذباً ، وقال عطاء ومقاتل : إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم .

﴿لن ندعو من دونه إلهاً﴾ أي لن نعبد معبوداً آخر غير الله لا اشتراكاً ولا استقلالاً ﴿لقد قلنا إذاً شططاً﴾ أي قولاً ذا شطط ، أي إفراط في الكفر أن دعونا إلهاً غير الله فرضاً أو قولاً هو نفس الشطط لقصد المبالغة ، والشطط الغلو ومجاوزة الحد المقدر في كل شيء ، يقال شَطَّت الدار بعدت ، وشَطَّ فلان في حكمه شطوطاً وشططاً جار وظلم ، وَشَطَّ في القول أغلظ ، وشط في السوم أفرط ، والجميع من بابي ضرب وقتل ، وقال قتادة : شططاً كذباً . وقال السدي جوراً .

هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

﴿هؤلاء﴾ أي أهل بلدهم ﴿قومنا﴾ عطف بيان أو بدل ﴿اتخذوا من دونه﴾ أي من دون الله ﴿آلهة﴾ أصناماً يعبدونها . وفي هذا الإخبار معنى الإنكار وفي الإشارة اليهم تحقير لهم .

﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ أي هَلَّا يأتون على عبادتهم لها بحجة نيرة ظاهرة تصلح للتمسك بها ، وفيه تبكيت لأن الإتيان بحجة على عبادة الأصنام محال ، وهذه جملة طلبية وليست صفة لآلهة لفساده معنى وصناعة . قال الزمخشري : وفي الآية دليل على فساد التقليد وإنه لا بدّ في الدين من الحجة حتى يتضح ويثبت .

﴿فمن﴾ أي لا أحد ﴿أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ بنسبة الشريك اليه فزعم أن له شريكاً في العبادة ، ثم قال بعضهم لبعض وقت اعتزالهم ﴿وإذ اعتزلتموهم﴾ أي فارقتموهم في الاعتقاد أو اردتم الاعتزال الجسماني وَتَنَحَّيْتُمْ عنهم جانباً أي عن العابدين للأصنام .

﴿وما يعبدون إلا الله﴾ عطف على الضمير المنصوب وما موصولة أو مصدرية أي اذا اعتزلتموهم ومعبوديهم إلا الله أو وعبادتهم إلا عبادة الله، وعلى

التقديرين فالاستثناء استثناء منقطع على تقدير أنهم لم يعبدوا إلا الأصنام أو متصل على تقدير انهم شركوهم في العبادة مع الله سبحانه .

وقيل هو كلام معترض إخبار من الله سبحانه عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله فيكون ما على هذا نافية ﴿فأووا﴾ أي الجئوا وصيروا ﴿إلى الكهف﴾ واجعلوه مأواكم . قال الفراء : هو جواب إذ ومعناه اذهبوا اليه واجعلوه مأواكم ، وقيل هو دليل على جوابه ، أي اذا اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقادياً فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانياً أو اذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف .

﴿ينشر﴾ أي يبسط ويوسع ﴿لكم ربكم﴾ مالك أمركم ﴿من رحمته﴾ في الدارين ﴿ويهيىء﴾ أي يسهل وييسر ﴿لكم من أمركم﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين ﴿مرفقاً﴾ بكسر الميم وفتحها لغتان قرىء بهما مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع وقيل فتح الميم أقيس وكسرها أغلب، وأكثر العرب على كسر الميم من الأمر ومن مرفق الانسان ، وقد تفتح العرب الميم فيهما فهُما لغتان .

وكأن الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر والمرفق من الإنسان. وقال الكسائي : الكسر في مرفق اليد ، وقيل المرفق بالكسر ما ارتفقت به والمرفق بفتح الميم الأمر الرافق ، والمراد هنا ما يرتفقون به وينتفعون بحصوله والتقديم[1] في الموضعين يفيد الاختصاص ، وانما قالوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه أو أخبرهم به نبي عصرهم .

﴿وترى الشمس إذا طلعت﴾ شرع سبحانه في بيان حالهم بعد أن أووا الى الكهف ﴿تزاور﴾ مأخوذ من الزور بفتح الواو وهو الميل ، ومنه زاره اذا مال اليه ، وقيل تَزْوَرّ بمعنى تنقبض من ازْوَرّ أي انقبض والأول أولى . ومعنى

---

(١) أي تقديم الجار والمجرور في ينشر لكم، ويهيء لكم.

الآية أن الشمس اذا طلعت تميل وتعدل وتتنحى ﴿عن كهفهم ذات اليمين﴾ أي ناحية اليمين وهي الجهة المسماة باليمين .

﴿واذا غربت تقرضهم﴾ القرض القطع ، قال الكسائي والأخفش والزجاج وأبو عبيدة : تعدل عنهم وتتركهم ، قَرَضْتُ المكانَ عَدَلْتُ عنه ، تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا ؟ فيقول انما قَرَضْتُه إذا مر به وتجاوز عنه .

وقال الفارسي : معنى تقرضهم تعطيهم من ضوئها شيئاً ثم يزول بسرعة كالقرض يسترد ، وقد ضُعِّف بأنه كان ينبغي أن يقرأ تقرضهم بضم التاء لأنه من أقرض ؛ والمعنى أن الشمس اذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أي يمين الداخل للكهف واذا غربت تمر .

﴿ذات الشمال﴾ أي جهة شمال الكهف لا تصيبه لا في ابتداء النهار ولا في آخر الليل ، بل تعدل عن سمته الى الجهتين ﴿وهم في فجوة منه﴾ الفجوة المكان المتسع ، ومما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر :

أَلْبَسْتَ قومَكَ مِخزاةً ومنقصةً حتى أُبيحُوا وَخَلَّوا فجـوَةَ الدار

وقال سعيد بن جبير : الفجوة الخلوة من الأرض ، ويعني بالخلوة الناحية منها وللمفسرين في تفسير هذه الجملة قولان :

الأول : انهم مع كونهم في مكان منفتح انفتاحاً واسعاً في ظل جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها لأن الله سبحانه حجبها عنهم كرامة .

والثاني : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحاً الى جانب الشمال مستقبلاً

لبنات النعش في أرض الروم ، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف واذا غربت كانت عن يساره ولا تقع عليهم عند الطلوع ولا عند الغروب ولا عند الاستواء فتؤذيهم بِحَرِّها وتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم ، ولكن اختار الله لهم مضجعاً في متسع ينالهم فيه برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه .

ويؤيد القول الأول قوله ﴿ذلك من آيات الله﴾ فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة الى مكان تصل اليه عادة أنسب بمعنى كونها آية . ويؤيده أيضاً إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا ؛ وعلى الثاني يكون المعنى إن شأنهم وحديثهم من آيات الله والأول أولى . وقد قيل إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب وحاجب من جهة الدبور وهم في زاويته .

وذهب الزجاج الى أن فعل الشمس كان آية من الله تعالى من دون أن يكون باب الكهف الى جهة توجب ذلك . وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى أواهم الى كهف هذه صفته لا الى كهف آخر يتأذون فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار ، وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر .

والمقصود بيان حفظهم من تطرق البلاء وتغير الأبدان والألوان اليهم والتأذي بحرّ أو برد .

ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله :﴿من يهد الله﴾ الى الحق مثل أصحاب الكهف ﴿فهو المهتد﴾ الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح ﴿ومن يضلل﴾ أي يضلله الله ولم يرشده كدقيانوس وأصحابه ﴿فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ أي ناصراً يهديه الى الحق .

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

ثم حكى سبحانه طرفاً آخر من غرائب أحوالهم فقال ﴿وتحسبهم﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ﴿أيقاظاً﴾ جمع يَقِظ بكسر القاف وفتحها ﴿وهم رقود﴾ أي نيام وهو جمع راقد كقعود في قاعد، قيل وسبب هذا الحسبان أن عيونهم كانت مفتحة وهم نيام. وقال الزجاج: لكثرة تقلبهم.

﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ أي نقلبهم في رقدتهم الى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم ولحومهم، قاله سعيد بن جبير، وتعجب منه الإمام الرازي وقال: إن الله قادر على حفظهم من غير تقليب.

ولقائل أن يقول لا ريب في قدرة الله تعالى ولكن جعل لكل شيء سبباً في أغلب الأحوال، قاله الكرخي، قيل تقلبة واحدة في كل سنة مرة في يوم عاشوراء. وقال ابن عباس: ستة أشهر على ذلك الجنب اليمين وستة أشهر على ذي الجنب الشمال وعلى هذا كان لهم تقلبتان في السنة، وقيل كل تسع سنين. وقالت فرقة إنما قلبوا في التسع الأواخر، وأما في الثلاثمائة فلا، وظاهر كلام المفسرين أن التقليب من فعل الله، ويجوز أن يكون من ملَك بأمر الله فيضاف الى الله تعالى. قاله القرطبي والأول أولى.

﴿وكلبهم باسط ذراعيه﴾ حكاية حال ماضية لأن اسم الفاعل لا يعمل اذا كان بمعنى المضي كما تقرر في علم النحو، اي ماد يديه. قال أكثر المفسرين: هربوا من ملكهم ليلاً فمروا براع معه كلب فتبعهم، وقيل كان لواحد منهم: قال مجاهد: اسم كلبهم قطمورا. وعن الحسن اسمه قطمير؛ وقيل اسمه ريان، وقيل صهبان قيل كان كلباً أغر. وقيل فوق القلطي ودون الكرزي، والقلطي كلب صيني. وقيل كان أصفر، وقيل كان أسمر اللون، وقيل كان يضرب الى حمرة، وقيل كلون السماء.

قيل ليس في الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم، ولا أدري أي تعلق لهذا التدقيق والتحقيق بتفسير الكتاب العزيز وما الذي حملهم على هذا الفضول الذي لا مستند له في السمع ولا في العقل.

﴿بالوصيد﴾ قال أبو عبيد وأبو عبيدة: هو فناء الباب وكذا قال المفسرون، وقيل العتبة، ورد بأن الكهف لا يكون له عتبة ولا باب، وانما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت.

وقال ابن عباس: بالوصيد بالفناء وبالباب، وقيل بفناء الكهف، وقيل الصعيد والتراب، قال بعضهم كلب أحب قوماً فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام وحب النبي وآله وصحبه، وقول الله ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ الآية. وفي هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال المحبين للصالحين والأنبياء والعلماء المخالطين للأولياء والأصفياء.

﴿لو اطلعت عليهم﴾ أي لو نظرت اليهم وهم على تلك الحالة ﴿لوليت منهم فراراً﴾ أي لفررت منهم هارباً ﴿ولملئت منهم رعباً﴾ أي خوفاً وفزعاً يملأ الصدر قرىء رعْباً بسكون العين وضمها وسبب الرعب الهيبة التي ألبسهم الله إياها.

وقيل طول أظفارهم وشعورهم وعظم اجرامهم ووحشة مكانهم ، ذكره المهدوي والنحاس والزجاج والقشيري ، ويدفعه قوله تعالى : ﴿لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئاً ولا وجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة ؛ وقيل لأن أعينهم كانت منفتحة كالمتيقظ . وقيل إن الله منعهم بالرعب حتى لا يراهم أحد .

قال ابن عطية : والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ماتوا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية ، فلم يَبْلَ لهم ثوب ولم تتغير لهم صفة ،ولم ينكر الناهض الى المدينة إلا معالم الأرض والبناء ، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليهم أهم . ذكره القرطبي .

﴿وكذلك﴾ أي وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات وأَنَمْناهم في الكهف تلك النومة وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ﴿بعثناهم﴾ من نومهم وجعلنا بعثهم آية قاله الزجاج والزمخشري وفيه تذكير بقدرته على الإماتة والبعث جميعاً ثم ذكر الأمر الذي لأجله بعثهم فقال ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ أي ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة .

وقيل اللام للصيرورة لأن البعث لم يكن للتساؤل قاله ابن عطية والصحيح انها على بابها من السببية والاقتصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها وإنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار ﴿قال قائل﴾ أي واحد ﴿منهم﴾ وهو كبيرهم ورئيسهم(مكسلمينا)﴿كم لبثتم﴾ في النوم قالوا ذلك لأنهم رأوا في أنفسهم غير ما يعهدونه في العادة والجملة مبينة لما قبلها من التساؤل .

﴿قالوا﴾ أي قال بعضهم وقيل قال الستة الباقون جواباً على سؤال من سأل منهم قال المفسرون : إنهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله سبحانه آخر

النهار فلذلك قالوا ﴿لبثنا يوماً﴾ أي لظنهم أن الشمس قد غربت فلما رأوا الشمس لم تغرب قالوا ﴿أو بعض يوم﴾ وكان قد بقيت بقية من النهار وقد مر مثل هذا الجواب في قصة عزير في البقرة او للشك ، وقيل للتفصيل أي قال بعضهم كذا وبعضهم كذا وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب .

﴿قالوا﴾ متوقفين في قدر مدة لبثهم ﴿ربكم أعلم بما لبثتم﴾ إما على طريق الاستدلال أو كان ذلك إلهاماً لهم من الله سبحانه أي أنكم لا تعلمون مدة لبثكم وإنما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من مراعاة حسن الأدب وبه يتحقق التحزب الى الحزبين المعهودين في قوله سابقاً لنعلم أي الحزبين .

وقد استدل ابن عباس على أن عددهم سبعة بهذه الآية لأنه قد قال في الآية قال قائل منهم وهذا واحد ، وقالوا في جوابه لبثنا وهو جمع وأقله ثلاثة ثم قالوا وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة .

﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ كأنه قال القائل منهم يعني يمليخا اتركوا ما أنتم عليه من المحاورة وخذوا في شيء آخر مما يهمكم وفيها تنتفعون به والفاء للسببية أي فأرسلوا واحداً منكم الى البلد ، والورق الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ويقال لها الرقة وفي الحديث (وفي الرقة ربع العشر) وجمعت شذوذاً جمع المذكر السالم يقال عندي رِقون والباء للمصاحبة والملابسة .

وفي حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافي التوكل على الله ، والمدينة أُفسوس بضم الهمزة كما قاله النيسابوري وهي مدينتهم التي كانوا فيها من مدائن الروم ويقال لها اليوم

في الإسلام طرطوس كذا قال الواحدي، وفي الكشف: أن المدينة التي خرجوا منها غير المدينة التي بعثوا إليها لشراء الطعام، إذ أفسوس من أعمال طرطوس وهي ناحية.

﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً﴾ أي لينظر أي أهلها أطيب طعاماً وأحل مكسباً أو أرخص سعراً وأي استفهامية أو موصولة .

قال ابن عباس : أحل وأطهر ذبيحة لأنهم كانوا يذبحون للطواغيت أو أكثر بركة ، وقيل يجوز أن يكون الضمير الى الأطعمة المدلول عليها في المقام كما يقال زيد طيب أبا علي أن الأب هو زيد وفيه بعد :

﴿فليأتكم برزق منه﴾ أي من الَورِق أي بَدَلَه أو من قوت وطعام تأكلونه واستدل بالآية على حل ذبائح أهل الكتاب لأن عامة أهل المدينة كانوا كفاراً وفيه قوم يخفون إيمانهم؛ ووجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام ﴿وليتلطف﴾ أي يدقق النظر حتى لا يُعْرَف أو لا يُغْبَن والأول أولى ويؤيده ﴿ولا يشعرن بكم أحداً﴾ من الناس أي لا يفعلن ما يؤدي الى الشعور ويتسبب له فهذا النهي يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف .

ثم علَّل ما سبق من الأمر والنهي فقال ﴿إنهم﴾ أي أهل المدينة ﴿إن يظهروا عليكم﴾ أي يطلعوا ويعلموا بمكانكم ﴿يرجموكم﴾ يقتلوكم بالرجم وهذه القِتْلة هي أخبث قِتْلة وكأن ذلك كان عادة لهم ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل ، وقيل يشتموكم ويؤذوكم بالقول والأول أولى ﴿أو يعيدوكم في ملتهم﴾ أي يردوكم الى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهديكم الله أو يصيِّروكم إليها كرهاً والمراد بالعود هنا الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم وإيثار كلمة «في» على كلمة الى للدلالة على الاستقرار .

﴿ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾ في إذاً معنى الشرط والجزاء كأنه قال إن رجعتم الى دينهم فلن تفلحوا إذاً أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة .

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

﴿وكذلك﴾ أي وكما أنمناهم وبعثناهم. ﴿أعثرنا﴾ أي أطلعنا الناس ﴿عليهم﴾ وأظهرناهم وسمي الإعلام إعثاراً لأن من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه وعرفه فكان الإعثار سبباً لحصول العلم ﴿ليعلموا﴾ أي ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم ﴿أن وعد الله﴾ بالبعث ﴿حق﴾ قيل وكان ملك زمانهم ممن ينكر البعث فأراه الله هذه الآية.

قيل وسبب الإعثار عليهم أن ذلك الرجل الذي بعثوه بالورق وكانت من ضربة دقيانوس الى السوق فلما اطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به الى الملك فقال له من أين وجدت هذه الدراهم؟ قال: بعت بها أمس شيئاً من التمر وخرجنا فراراً من الملك دقيانوس فعرف الملك صدقه ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا الى الكهف.

﴿و﴾ ليعلموا ﴿أن الساعة﴾ أي القيامة ﴿لا ريب فيها﴾ أي لا شك في حصولها فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من بعث الأرواح والأجساد جميعاً وحشرها ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾ أي أعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم الله في أمر البعث، وقيل في أمر أصحاب الكهف في قدر مكثهم وفي عددهم وفيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم، وقيل قال المسلمون: نبني عليهم مسجداً يصلي فيه الناس لأنهم على

ديننا ، وقال المشركون : نبني عليهم بيعة لأنهم من أهل ملتنا .

﴿فقالوا ابنوا عليهم بنياناً﴾ لئلا يتطرق الناس اليهم كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة ، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية فقال بعضهم ابنوا عليهم بنياناً يسترهم عن أعين الناس ، وقيل يتنازعون متعلق بمحذوف هو اذكر .

ويؤيده أن الإعثار ليس في زمن التنازع بل قبله ويمكن أن يقال إن أولئك القوم مازالوا متنازعين فيما بينهم قرناً بعد قرن منذ أوَوا الى الكهف الى وقت الإعثار ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوباً على باب الغار كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون ايمانهم كما قاله المفسرون .

ثم قال سبحانه حاكياً لقول المتنازعين فيهم وفي عددهم وفي مدة لبثهم وفي نحو ذلك مما يتعلق بهم ﴿ربهم أعلم بهم﴾ من هؤلاء المتنازعين فيهم قالوا ذلك تفويضاً للعلم الى الله سبحانه ، وقيل هو من كلام الله سبحانه رداً لقول المتنازعين فيهم أي دعوا ما أنتم فيه من التنازع فإني أعلم بهم منكم والأول هو الظاهر قاله الكرخي .

﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾ يعني يندوسيس وأصحابه قاله الخازن أي كانت الكلمة لهم وكان كلامهم هو النافذ لأن ملك الوقت كان من جملتهم وكان مؤمناً وأما الملك الذي خرجوا هاربين منه فقد مات في مدة نومهم ﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾ يصلي فيه المسلمون ويعتبرون بحالهم. وذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون ، وقيل هم أهل السلطان والملك من القوم المذكورين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم والأول أولى .

قال الزجاج : هذا يدل على انه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور لأن المساجد للمؤمنين .

﴿سيقولون﴾ هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة وهم المتنازعون في عددهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمسلمين ، وقيل هم أهل الكتاب خاصة ، قال السدي : هم اليهود ، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعاً قالوا جميع ذلك بل قال بعضهم بكذا وبعضهم بكذا .

قيل إنما أتى بالسين في هذا لأن في الكلام طياً وادماجاً تقديره فاذا أجبتهم عن سؤالهم عن قصة أهل الكهف فسلهم عن عددهم فانهم سيقولون ، ولم يأت بها في باقي الأفعال لأنها معطوفة على ما فيه السين فأعطيت حكمه من الاستقبال ، والمعنى يقولون لك يامحمد ويخبرونك على ثلاثة اقوال : **الأولان** : للنصارى . **والثالث** : للمؤمنين .

﴿ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ أي هم ثلاثة أشخاص حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه اليهم ﴿ويقولون خمسة سادسهم كلبهم﴾ الكلام فيه كالكلام فيما قبله قاله السدي : هم النصارى ،وقيل اليهود كما في البيضاوي .

قال أبو علي الفارسي : قوله رابعهم كلبهم وسادسهم كلبهم جملتان استغني عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى وهي قوله ثلاثة والتقدير هم ثلاثة . هكذا حكاه الواحدي .

﴿رجماً بالغيب﴾ أي راجمين او يرجمون رجماً والرجم بالغيب هو القول بالظن والحدس من غير يقين ودليل ولا برهان كما قاله الطيبي وغيره والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلون بأنهم ثلاثة والقائلون بأنهم خمسة ، قال قتادة : رجماً قذفاً بالظن ، ولم يقل هذا في السبعة وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أن الحال في الباقي بخلافه ، والرجم بمعنى الرمي وهو استعارة للتكلم بما لم يطلع عليه لخفائه عنه تشبيهاً له بالرمي بالحجارة التي لا تصيب غرضاً والباء فيه للتعدية على تشبيه الظن بالحجر المرمي على طريق الكناية .

﴿ويقولون﴾ أي المؤمنون يعني قالوه بإخبار الرسول لهم عن جبريل عليه السلام ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾ وكان قول هذه الفرقة أقرب الى الصواب بدليل عدم إدخالهم في سلك الراجمين بالغيب ، قيل وإظهار الواو في هذه الجملة يدل على أنها مرادة في الجملتين الأوليين ، وعلى رأي الأخفش والكوفيين الواو زائدة لأن وجودها في الكلام كالعدم في عدم إفادة أصل معناها . قاله الكرخي .

وقيل زائدة لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت ، وهذا ما جنح اليه الزمخشري وصرح به البيضاوي واختاره ابن هشام ، وقيل إنها واو العطف كأنه قيل هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وقيل واو الحال فيؤول المعنى إلى أنهم يقولون ذلك مع هذا الحال وهو كون ثامنهم كلبهم واقعاً لا محالة ويلزم منه أن يكونوا سبعة .

قال ابن هشام : وقول جماعة الأدباء كالحريري ومن النحويين كابن خالويه ومن المفسرين كالثعلبي أنها واو الثمانية لا يرضاه نحوي لأنه لا يتعلق به حكم إعرابي ولا سر معنوي . قال الكرخي : هي في التحقيق واو العطف ، لكن لما اختص استعمالها بمحل مخصوص تضمنت أمراً غريباً واعتباراً لطيفاً ناسب أن تسمى باسم غير جنسها فسميت بواو الثمانية لمناسبة بينها وبين سبعة ، وذلك لأن السبعة عندهم عقد تام كعقود العشرات لاشتمالها على أكثر مراتب أصول الأعداد ، والثمانية عقد مستأنف فكان بينهما اتصال من وجه وانفصال من وجه ، وهذا هو المقتضي للعطف . وهذا المعنى ليس موجوداً بين السبعة والستة . انتهى ملخصاً من الكرخي .

ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبر المختلفين في عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال ﴿قل ربي أعلم﴾ أي أقوى علماً وأزيد في الكيفية ﴿بعدَّتهم﴾ منكم أيها المختلفون ؛ فإن مراتب اليقين متفاوتة في القوة ، وهذا هو الحق لأن العلم بتفاصيل العالم والكائنات فيه في الماضي والمستقبل لا يكون

إلا لله تعالى أو من أخبرهم الله سبحانه .

ثم أثبت العلم على ذلك لقليل من الناس فقال ﴿ما يعلمهم﴾ أي ما يعلم ذواتهم فضلاً عن عددهم ، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف ﴿إلا قليل﴾ من الناس عن ابن مسعود قال : أنا من القليل كانوا سبعة . وعن ابن عباس قال السيوطي بسند صحيح أنا من أولئك القليل كانوا سبعة، ثم ذكر اسماءهم .

وذكر بعض المفسرين لأسمائهم خواص ومنافع ليست من التفسير في شيء ثم نهى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عن الجدال مع أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف فقال :

﴿فلا تمار فيهم﴾ أي لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم ؛ والمراء في اللغة الجدال ، يقال مارى يماري مماراة ومراء أي جادل . قال ابن عباس : يقول حسبك ما قصصت عليك ؛ ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهراً واضحاً فقال ﴿إلا مراء ظاهراً﴾ أي غير متعمق فيه ، وهو أن يقص عليهم ما أوحى الله اليه فحسب من غير تجهيل لهم ومن غير رد عليهم .

وقال الرازي : هو أن لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد ، بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه فوجب التوقف .

ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء في شأنهم فقال ﴿ولا تستفت فيهم﴾ أي في شأنهم ﴿منهم﴾ أي من الخائضين فيهم ﴿أحداً﴾ منهم لأن المفتي يجب ان يكون أعلم من المستفتي . وههنا الأمر بالعكس ولا سيما في واقعة أهل الكهف ، وفيما قص الله عليك في ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له .

قال ابن عباس : يعني اليهود ، وقال القرطبي : النصارى وهو الأولى ، قال البيضاوي : لا تسأل سؤال مسترشد ولا سؤال متعنت ، يريد فضيحة المسؤول وتزييف ما عنده فإنه يخل بمكارم الأخلاق ، وفي الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

﴿ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ أي لا تقولن لأجل شيء أو في شأن شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان ، فعبر عنه بالغد ، ولم يرد الغد بعينه ، فيدخل فيه الغد دخولاً أولياً ، قال الواحدي : قال المفسرون لما سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن خبر الفتية فقال : أخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله فاحتبس الوحي عنه حتى شق عليه ، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله ، يقول اذا قلت لشيء اني فاعل ذلك غداً فقل إن شاء الله .

قيل:وهذا الاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي لا تقولن ذلك في حال من الأحوال إلا في حال ملابسته لمشيئة الله ، وهو أن تقول إن شاء الله ، أو في وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله لا مطلقاً بل بإذن الله ، فحذف الوقت وهو مراد ، أو لا تقولن أفعل غداً إلا قائلاً إن شاء الله ، فحذف القول ونقل شاء الى لفظ الاستقبال حملاً على المعنى . قاله الأخفش والمبرد والكسائي .

وقيل:التقدير إلا بأن يشاء الله ، أي متلبساً بقول إن شاء الله ، والمعنى إلا أن تذكر مشيئة الله فليس إلا أن يشاء الله من القول الذي نهى عنه،وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد، كأنه قيل لا تقولنه أبداً ، كقوله ﴿وما يكون لنا

أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾ لأن عودهم في ملتهم مما لا يشاؤه الله .

﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ الاستثناء بمشيئة الله ، أي فقل إن شاء الله سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة ؛ وقد اختلف أهل العلم في المدة التي يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة في مواضعها ،وقيل: المعنى واذكر ربك بالاستغفار اذا نسيت مبالغة في الحث عليه ، أو اذكر ربك عقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك على التدارك ، أو اذكره إذا اعتراك النسيان لتذكر المنسيّ . وعن ابن عباس أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ثم قرأ هذه الآية . وعنه قال : هي خاصة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس لأحد أن يستثني إلا في صلة يمين .

وعن ابن عمر قال : كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه واذا كان غير موصول فهو حانث .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . وفي رواية تسعين تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، فقال له الملك قل إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف انسان ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته »[1] .

وعن عكرمة قال : معنى إذا نسيت إذا غضبت . وعن الحسن قال : إذا نسيت إذا لم تقل إن شاء الله . وقيل الآية في الصلاة ويدل له حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَن نسي صلاةً فليُصلِّها اذا ذَكَرَها»[2] أقم الصلاة لذكري متفق عليه . والأول أولى .

---

(١) مسلم ١٦٥٤ ـ البخاري ١٣٤٧ .
(٢) مسلم ٦٨٤ ـ البخاري ٣٨٤ .

﴿وقل﴾ يامحمد ﴿عسى أن يهدين﴾ أي يوفقني ويدلني ﴿ربي لأقرب﴾ أي لشيء أقرب ﴿من هذا﴾ أي من خبر أهل الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي ﴿رشداً﴾ هداية أو إرشاداً للناس ودلالة على ذلك ، وعلى الأول هو مفعول مطلق ، وعلى الثاني تمييز لأقرب . قال الزجاج : عسى أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدل من قصة أصحاب الكهف .

وقد فعل الله به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم والحوادث النازلة في الأعصار المستقبلة الى قيام الساعة ما كان أوضح في الحجة وأقرب الى الرشد من خبر أصحاب الكهف . وقيل عسى أن يهديني ربي عند هذا النسيان لشيء آخر بدل هذا المنسي ، وأقرب من ذلك رشداً وأدنى منه خيراً ومنفعة ، والأول أولى .

﴿ولبثوا﴾ أي أقاموا ﴿في كهفهم ثلثمائة سنين﴾ عطف بيان لثلثمائة وهذه السنون عند أهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها عند العرب تسع سنين وقد ذكرت في قوله ﴿وازدادوا تسعاً﴾ أي تسع سنين ، فالثلثمائة الشمسية ثلثمائة وتسع قمرية ، وقرىء في السبعة بالإضافة، وعليه فسنين تمييز غير انه قليل ، لأن تمييز المائة الكثير فيه الإفراد.

قال الفراء : ومن العرب من يضع سنين موضع سنة . قال أبو علي الفارسي : هذه الأعداد التي تضاف في المشهور الى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف الى المجموع ، وفي مصحف عبد الله ثلثمائة سنة ، وقال الأخفش : لاتكاد العرب تقول مائة سنين .

قال ابن جرير : إن بني اسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم ، فقال بعضهم إنهم لبثوا ثلثمائة سنة ، وقال بعضهم لبثوا ثلثمائة وتسع سنين ، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن هذه المدة في كونهم نياماً وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر ، فأمر الله أن يرد علم ذلك اليه فقال :

﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي بالزمن الذي لبثوا فيه ،وقيـل: بعد موتهم الى نزول القرآن فيهم على قول مجاهد أو الى أن ماتوا على قول الضحاك أو الى وقت تغيرهم بالبلى على قول بعضهم ، قال ابن عطية : فقوله على هذا لبثوا الأول يريد في نوم الكهف ، ولبثوا الثاني يريد بعد الإعثار عليهم الى مدة محمد صلى الله عليه وسلم أو إلى أن ماتوا .

وقال القرطبي : إنه لما قال وازدادوا تسعاً لم يدر الناس أهي ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام ؛ فاختلف بنو اسرائيل بحسب ذلك فأمر الله برد العلم إليه في التسع فهي على هذا مبهمة والأول أولى ، لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم منه بحسب لغتهم أن التسع أعوام بدليل أن العدد في هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للأيام ولا للساعات .

قال القشيري : لا يفهم من التسع تسع ليال ولا تسع ساعات لوجود لفظ السنين . وعن الزجاج إن المراد بثلثمائة سنة شمسية وثلثمائة وتسع سنين قمرية . وهذا إنما يكون من الزجاج على جهة التقريب ، وقال الشهاب : وأما احتمال كون السنين شمسية أو قمرية وكون التسع سنين أو شهوراً أو أياماً فليس بشيء ، قال الضحاك عن ابن عباس : لما نزلت ولبثوا في كهفهم ثلثمائة قيل يارسول الله أياماً أم أشهراً أم سنين ، فأنزل الله سنين وازدادوا تسعاً .

وحكى النقاش ما معناه إنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأمم ، فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي صلى الله عليه وسلم ذكر التسع إذ المفهوم عنده من السنين القمرية ، فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين ، ونحوه ذكر القونوي أي باختلاف سني الشمس والقمر لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث ، سنة فيكون في ثلثمائة تسع سنين . انتهى .

أقول : هذا يبتنى على حساب الكبس ، والكبس عندهم مختلف وقد حققناه في كتابنا لقطة العجلان فراجعه . وعن ابن عباس قال : إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوى أبعد ما بين السماء والأرض ، ثم تلا

﴿ولبثوا في كهفهم﴾ الآية ، ثم قال : كم لبث القوم ؟ قالوا ثلثمائة وتسع سنين . قال لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله : قل الله أعلم بما لبثوا ، ولكنه حكى مقالة القوم فقال سيقولون ثلاثة الى قوله رجماً بالغيب ، فأخبر أنهم لا يعلمون ، ثم قال سيقولون ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً .

قال القرطبي : اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفنوا أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ، فروي عن ابن عباس أنه قال : أولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدة طويلة ، ومشى الناس معه في بعض غزوات الشام الى موضع الكهف فوجدوا عظاماً .

وروت فرقة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « ليحجن عيسى ابن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجوا بعد ، ذكره ابن عيينة ونحوه في التوراة والإنجيل وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله في التذكرة ؛ فعلى هذا هم نيام لم يموتوا ولا يموتون الى يوم القيامة بل يموتون قبل الساعة ، انتهى والله أعلم .

ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله ﴿له غيب السموات والأرض﴾ أي ما خفي فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شيء ، ثم زاد في المبالغة والتأكيد فجاء بما يدل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال ﴿أبصر به وأسمع﴾ فأفاد هذا التعجب على أن شأنه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين وأنه يستوي في علمه الغائب والحاضر والخفي والظاهر والصغير والكبير واللطيف والكثيف .

وكان أصله ما أبصره وما أسمعه ، ثم نقل الى صيغة الأمر للإنشاء على سبيل المجاز والباء زائدة عند سيبويه وخالفه الأخفش ، والبحث مقرر في علم النحو ، والهاء لله تعالى ، وقيل هو أمر حقيقة لا تعجب وان الهاء تعود على الهدى المفهوم من الكلام أي أبصر بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحق من الأمور وأسمع به العالم والأول أولى ، وقرىء أبصر وأسمع فعلاً ماضياً

والفاعل الله تعالى أي أبصر عباده وأسمعهم.

﴿مالهم﴾ أي لأهل السموات والأرض ، وقيل لأهل الكهف ؛ وقيل لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار ﴿من دونه من ولي﴾ أي من موال يواليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم وفي هذا بيان لغاية قدرته وأن الكل تحت قهره ﴿ولا يشرك فى حكمه أحداً﴾ قرأ الجمهور برفع الكاف على الخبر عن الله سبحانه وقرىء بالفوقية واسكان الكاف على انه نهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لله شريكاً في حكمه والمراد بحكم الله ما يقتضيه أو علم الغيب والأول أولى ويدخل علم الغيب في ذلك دخولاً أولياً فإن علمه سبحانه من جملة قضائه .

﴿واتل ما أوحي إليك﴾ أمره الله سبحانه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى اليه قيل: يحتمل أن يكون معنى قوله ﴿واتل﴾ واتبع أمراً من التلو لا من التلاوة أي اتبع ما فيه وآعمل به ولا تلتفت لقوله ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴿من كتاب ربك﴾ بيان للذي أوحي اليه .

﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا قادر على تبديلها وتغييرها وإنما يقدر على ذلك هو وحده ؛ قال الزجاج : أي ما أخبر الله به وما أمر به فلا مبدل له وعلى هذا يكون التقدير لا مبدل لحكم كلماته .

﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ أي ملتجأ ، وأصل اللحد الميل ، وقال أبو عبيدة : ألحد إلحاداً جادل ومارى ولحد جار وظلم وألحد في الحرم استحل حرمته وانتهكها والملتحد اسم الموضع وهو الملجأ ، قال الزجاج : لن تجد معدلاً عن أمره ونهيه ، والمعنى انك إن لم تتبع القرآن وتتلوه وتعمل بأحكامه لن تجد معدلاً تعدل إليه ومكاناً تميل إليه .وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف .

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)﴾

ثم شرع سبحانه في نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز فقال ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾ أي يعبدونه قد تقدم في (الأَنْعَام)[1] نهيه صلى الله عليه وسلم عن طرد فقراء المؤمنين بقوله ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ وأمره سبحانه ههنا بأن يحبس نفسه معهم فصبر النفس هو حبسها عن الجوع وبابه ضرب، وصبره حبسه. وهذه الآية[2] أبلغ من التي في الأنعام لأن في تلك نهى الرسول عن طردهم وفي هذه أمره بمجالستهم والمصابرة معهم.

﴿بالغداة والعشي﴾ ذكرهما كناية عن الاستمرار على الدعاء في جميع الأوقات، وقيل في طرفي النهار، وقيل المراد صلاة العصر والفجر. وقرىء غدوة وأنكره النحاس وقال ولا تكاد العرب تقول الغدوة، ومعنى ﴿يريدون وجهه﴾ انهم يرتقبون بدعائهم رضا الله سبحانه لا عرض الدنيا.

وعن سلمان قال: جاءت المؤلفة قلوبهم: عيينة بن بدر والأقرع بن حابس فقالوا: يارسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب

---

(١) اسم السورة.

(٢) الأولى أن يقال: هذه الآية أفادت معنى جديداً هو أمره بمجالستهم والمصابرة معهم. لأن قوله: «وهذه الآية أبلغ» تدل على الموازنة بين الآيات في البلاغة والقرآن الكريم كله في غاية البلاغة.

الصوف جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك فأنزل الله ﴿واتل ما أوحي إليك﴾ الى قوله ﴿إنا اعتدنا للظالمين ناراً﴾ أخرجه البيهقي وغيره .

وزاد أبو الشيخ عن سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال « الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا والممات » .

وعن عبدالرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بعض أبياته واصبر نفسك الآية فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله منهم ثائر الرأس وحاف الجلد وذو الثوب الخلق فلما رآهم جلس معهم وقال : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم» .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم » . وفي الباب روايات . وعن ابن عمر قال : إنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس وعن ابن عباس مثله وقيل نزلت في صلاة الصبح وصلاة العصر .

ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم فقال ﴿ولا تعدُ عيناك عنهم﴾ أي لا تتجاوز الى غيرهم ، قال الفراء : معناه لا تصرف عينيك عنهم ؛ وقال الزجاج : لا تصرف بصرك الى غيرهم من ذوي الهيئآت والزينة واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو ، من عدوته عن الأمر أي صرفته عنه ، وقال : معناه لا تحتقرهم عيناك عَبَّرَ بهما عن صاحبها .

﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ أي مجالسة أهل الترف والشرف والغنى وصحبة أهل الدنيا والمعنى حال كونك مريداً لذلك ، هذا إذا كان فاعل تريد

هو النبي صلى الله عليه وسلم وان كان الفاعل ضميراً يعود إلى العينين فالتقدير مريدة زينة الحياة الدنيا وإسناد الإرادة الى العينين مجاز وتوحيد الضمير للتلازم والأول أولى ، وهو نهي له صلى الله عليه وسلم وإن لم يُرِدْه وليس هو أكبر من قوله ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ وإن كان أعاذه من الشرك وإنما هو على فرض المحال .

﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه﴾ أي جعلناه غافلاً ﴿عن ذكرنا﴾ بالختم عليه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طاعة من جعل الله قلبه غافلاً عن ذكره كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحي الفقراء عن مجلسه فإنهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله .

﴿و﴾ مع هذا فهم ممن ﴿اتبع هواه﴾ وآثره على الحق فاختار الشرك على التوحيد ﴿وكان أمره فرطاً﴾ أي متجاوزاً عن حد الاعتدال من قولهم فرس فرط إذا كان متقدماً على الخيل فهو على هذا من الإفراط ، وقيل هو من التفريط وهو التقصير والتضييع والأول أظهر .

قال الزجاج : ومن قدم العجز في أمره أضاعه وأهلكه . وعن ابن عباس قال : نزلت في أمية بن خلف وذلك أنه دعا النبي صلى الله عليه وسلم الى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة فأنزل الله هذه الآية يعني من ختمنا على قلبه يعني التوحيد واتبع هواه يعني الشرك وكان أمره فرطاً يعني فرطاً في أمر الله وجهالة به .

وعن ابن بريدة قال : دخل عيينة بن حصن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في يوم حار وعنده سلمان عليه جبة صوف فثار منه ريح العرق في الصوف فقال عيينة : يامحمد إذا نحن أتيناك فَأَخْرِج هذا وضرباءه من عندك لا يؤذينا فإذا خرجنا فأنت وهم أعلم فأنزل الله ﴿ولا تطع﴾ الآية .

وقد ثبت في صحيح مسلم في سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية وهي قوله ﴿ولا تطرد الذين﴾ الآية عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع

النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله ﴿ولا تطرد الذين﴾ الآية[1] .

ثم بيّن سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ما يقوله لأولئك الغافلين فقال ﴿وقل الحق من ربكم﴾ أي قل لهم: إن ما أوحي اليَّ وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير ، وقيل المراد بالحق الصبر مع الفقراء ، قال الزجاج : أي الذي أتيتكم به هو الحق من ربكم يعني لم آتكم به من قبل نفسي إنما أتيتكم به من الله ، وعن قتادة قال : الحق هو القرآن .

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ قيل هو من تمام القول الذي أمر رسوله أن يقوله ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه لا من القول الذي أمر به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه تهديد شديد وتخويف وردع لا تخيير وإباحة ، ويكون المعنى قل يامحمد الحق من ربكم ، وبعد أن تقول لهم هذا القول من شاء أن يؤمن بالله ويصدقك فليؤمن ، ومن شاء أن يكفر به ويكذبك فليكفر .

وقال ابن عباس : يقول من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وهو قوله ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ .

ثم أكد الوعيد وشدده فقال ﴿إنا أعتدنا﴾ أي أعددنا وهيأنا ﴿للظالمين﴾ الذين اختاروا الكفر بالله والجحد له والإنكار لأنبيائه ﴿ناراً﴾ عظيمة ﴿أحاط بهم﴾ أي اشتمل عليهم ﴿سرادقها﴾ واحد السرادقات ، قال الجوهري وهي

---

(١) مسلم ٢٤١٣ .

التي تمد فوق صحن الدار وكل بيت من كرسف أي قطن فهو سرادق ، وقيل للحائط المشتمل على شيء سرادق قاله الهروي .

وقال الراغب : السرادق فارسي معرب وليس في كلامهم اسم مفرد ثالث حروفه ألف بعدها حرفان إلا هذا يقال بيت مسردق ، وقال ابن الأعرابي : سرادقها سورها ؛ وقال القتيبي : السرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاط والمعنى أنه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق المحيط بمن فيه ، وعن ابن عباس قال : حائط من نار .

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « سرادق النار أربعة جدر كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة »[1] وأخرج أحمد والبخاري والحاكم وصححه عن يعلى ابن أمية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن البحر هو من جهنم ثم تلا ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾[2] .

﴿وإن يستغيثوا﴾ من حر النار أي يطلبوا الإنقاذ من شدة العطش ﴿يغاثوا﴾ فيه مشاكلة إذ لا إغاثة لهم بالماء الآتي ذكره بل إتيانهم به وإلجاؤهم بشربه غاية الإضرار، والإغاثة هي الانقاذ من الشدة فكأنه قال يضروا ويعذبوا ﴿بماء كالمهل﴾ وهو الحديد المُذاب .

قال الزجاج : إنهم يغاثون بماء كالرصاص المُذاب أو الصفر ، وقيل هو دردي الزيت أي ما بقي في أسفل الإناء ووجه المشابهة الثخن والرداءة في كل .

وقال أبو عبيدة والأخفش : العكر وهو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس ، وقيل هو ضرب من القطران ، أخرج أحمد

---

(١) المستدرك كتاب الأهوال ٦٠١/٤ ـ الإمام أحمد ٢٩/٣ .

(٢) المستدرك كتاب الأهوال ٥٩٦/٤ .

والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن حبان والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه »[1] عن ابن عباس قال : أسود كعكر الزيت وعنه قال : ماء غليظ كدردي الزيت .

وعن ابن مسعود أنه سئل عن المهل فدعا بذهب أو فضة فأذابه فلما ذاب قال : هذا أشبه شيء بالمهل الذي هو شراب أهل النار ولونه لون السماء غير أن شراب أهل النار أشد حراً من هذا . وعن ابن عمر : هل تدرون ما المهل ؟ المهل مهل الزيت ، يعني آخره .

ثم وصف هذا الماء الذي يغاثون به بأنه ﴿يشوي الوجوه﴾ إذا قدم عليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته ، والشيّ الإنضاج بالنار من غير إحراق ﴿بئس الشراب﴾ شرابهم هذا الذي يغاثون به ﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفقاً﴾ متكأً ، يقال ارتفقت أي اتكأت ، وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد ؛ ويقال ارتفق الرجل إذا نام على مرفقه .

وقال القتيبي : هو المجلس والمنزل ، وقيل المجتمع ، وبه قال مجاهد ، وإنما جاء كذلك لمشاكلة قوله ﴿وحسنت مرتفقاً﴾ وإلا فأي ارتفاق لأهل النار وأي متكأ .

---

(١) الترمذي كتاب جهنم باب ٤ ـ الإمام أحمد ٣/٧١.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

﴿إن الذين آمنوا﴾ هذا شروع في وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين والمعنى أن الذين آمنوا بالحق الذي أوحي اليك ﴿وعملوا الصالحات﴾ من الأعمال ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن﴾ منهم ﴿عملاً﴾ وفيها إقامة الظاهر مقام المضمر ، والمعنى أجرهم أي نثيبهم بما تضمنه قوله ﴿أولئك لهم جنات عدن﴾ أي إقامة مستأنفة لبيان الأجر ، والإشارة الى من تقدم ذكره ، وقيل أولئك خبر إن الذين آمنوا ، وجملة انا لا نضيع اعتراض وقيل غير ذلك .

﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ لأن أفضل المساكن ما كان يجري فيه الماء ، وقد تقدم الكلام في كيفية جري الأنهار من تحتها ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾ .

قال الزجاج : أساور جمع أَسْوِرَة وهي جمع سِوَار وهي زينة تلبس في الزند من اليد وهي من زينة الملوك ، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب ، وجاء في آية أخرى من فضة ، وفي أخرى من ذهب ولؤلؤ ، فيلبسون الأساور الثلاثة ، فيكون في يد الواحد منهم سوار من ذهب وآخر من فضة وآخر من لؤلؤ . فعلم من هذا أن كُلاًّ من هذه الآية ومن آية هل أتى على الانسان ، ومن

آية الحج ومن آية فاطر فيه الاخبار ببعض ما يحلون به ، و ﴿من﴾ في من أساور للابتداء وقيل زائدة بدليل سقوطها في سورة هل أتى ،﴿وحلوا أساور من فضة﴾ و ﴿من﴾ في من ذهب للبيان ، وحكى الفراء يَحْلَوْن بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام يقال : حليت المرأة تحلى فهي حالية إذا لبست الحلي .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء »[1] .

﴿ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق﴾ عطف على يحلون وبني الفعل في التحلية للمفعول إيذاناً بكرامتهم وأن غيرهم يفعل بهم ذلك ويزيّنهم به بخلاف اللبس فإن الإنسان يتعاطاه بنفسه. وقدم التحلي على اللباس لأنه أشهى للنفس ، وخص الأخضر لأنه الموافق للبصر ، ولكونه أحسن الألوان .

قال الكسائي : السندس الرقيق واحده سندسة، والإستبرق ما ثخن واحده استبرقة ، وكذا قال المفسرون، وقيل ليسا جمعين ، وقيل الاستبرق هو الديباج ، وقيل هو المنسوج بالذهب ، قال القتيبي : وهو فارسي معرب ، قال الجوهري : وتصغيره أبيرق قال السمين : وهل استبرق عربي الأصل مشتق من البريق أو معرب أصله استبره ، خلاف بين اللغويين .

قال مرثد بن عبدالله : في الجنة شجرة تنبت السندس منه تكون ثياب أهل الجنة ، وعن عكرمة قال : الاستبرق الديباج الغليظ ، وعن مجاهد مثله ، وفي آية الرحمن ﴿بطائنها من استبرق﴾ أي الفرش فيقاس عليها اللباس الذي الكلام فيه فظهارة الكل من سندس وبطانته من استبرق قال المحلى في سورة «هل أتى» فالاستبرق بطانة ثيابهم والسندس ظهارتها .

﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ أصل اتكأ أو تكأ وأصل متكئين موتكئين والاتكاء التحامل على الشيء أي يجلسون متربعين ومضطجعين . أخرج ابن

(١) مسلم ٢٥٠ .

أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليتكيء مقدار أربعين سنة لا يتحول منه ولا يمله يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه» .

قال الزجاج : الأرائك جمع أريكة وهي السرر في الحجال وقيل هي أسرة من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وعن ابن عباس قال : الأرائك السرر في جوف الحجال عليها الفرش منضود في السماء فرسخ ، وعنه قال لا يكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة وعن عكرمة : الأرائك هي الحجال على السرر ، وفي القاموس الأريكة كسفينة سرير في حجلة ،أو كل ما يتكأ عليه من سرير ومنصة وفراش ،أو سرير متخذ مزين في قبة أو بيت فإن لم يكن فيه سرير فهو حجلة والجمع أرائك.

﴿نعم الثواب﴾ ذلك الذي أثابهم الله به وهو الجنة ﴿وحسنت﴾ تلك الأرائك في الجنات ﴿مرتفقاً﴾ أي متكأً ومقراً ومجلساً ومنتفعاً ومسكناً ومنزلاً وقد تقدم قريباً. وقد اشتمل هذا القول على خمسة أنواع من الثواب : **الأول** : لهم جنات عدن ، **الثاني** : تجري من تحتهم الخ ، **الثالث** : يحلون فيها ، **الرابع** : ويلبسون ، **الخامس** : متكئين .

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتغرر بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله ﴿واصبر نفسك﴾ وقد اختلف في الرجلين هل هما مقدران او محققان فقال بالأول بعض المفسرين وقال بالآخر بعض آخر ، واختلفوا في تعيينهما فقيل هما أخوان من بني اسرائيل أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس ، وقيل تمليخا والآخر كافر واسمه قيطوس وهما اللذان وصفهما الله في سورة(والصافات)بقوله ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ .

وقيل هما أخوان مخزوميان من أهل مكة أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ،

وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه وانتصاب مثلاً ورجلين على انهما مفعولا اضرب ، قيل **والأول** هو الثاني **والثاني** هو الأول .

﴿جعلنا لأحدهما﴾ هو الكافر ﴿جنتين﴾ قال السدي : الجنة البستان فكان له بستان واحد وجدار واحد وكان بينهما نهر فلذلك كانا جنتين ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذي عليها ، وعن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال : نهر أبي فرطس نهر الجنتين ، قال ابن أبي حاتم : وهو نهر مشهور بالرملة .

﴿من أعناب﴾ بيان لما في الجنتين أي من كروم متنوعة جمع عنب والعنبة الحبة ﴿وحففناهما بنخل﴾ الحف الإحاطة ومنه ﴿حافين من حول العرش﴾ ويقال حف القوم بفلان يحفون حفاً أي أطافوا به فمعنى الآية وجعل النخل مطيفاً بالجنتين من جميع جوانبهما وهذا مما يوثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مُوزَرَة بالأشجار المثمرة ﴿وجعلنا بينهما﴾ أي بين الجنتين وهو وسطهما ﴿زرعاً﴾ يقتات به ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصل العمارة على الشكل الحسن والتركيب الأنيق .

ثم أخبر الله سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤدي حملها وما فيها فقال ﴿كلتا الجنتين آتت أُكلها﴾ أخبر عن كلتا بآتت لأن لفظه مفرد يدل على التثنية فراعى جانب اللفظ . وقد ذهب البصريون الى أن كلا وكلتا اسم مفرد غير مثنى . وقال الفراء : هو مثنى وهو مأخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية ، وروعيت التثنية المعنوية في قوله الآتي ،﴿وفجرنا خلالهما نهراً﴾، وأُكُلْها بضم الكاف وسكونها سبعيتان .

﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي لم تنقص من أكلها شيئا في بعض السنين بل في كل سنة يأتي ثمرها وافياً ؛ يقال ظلمه حقه أي أنقصه ، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد في سائر البساتين فإنها في الغالب تكثر في عام وتقل في عام ، قال ابن عباس : لم ينقص كل شجر الجنة أطعمة .

﴿وفجرنا﴾ أي أجرينا وشققنا ﴿خلالهما﴾ أي وسط الجنتين ﴿نهراً﴾ يجري بينهما يسقيهما دائماً من غير انقطاع ﴿وكان له﴾ أي لأحدهما أو لصاحب الجنتين ﴿ثمر﴾ بفتح الثاء والميم وكذا قرأوا في قوله أحيط بثمره ، وقرىء ثُمْر بضم الثاء وإسكان الميم في الموضعين ، وبه قرأ ابن عباس وقال : هي أنواع المال .

قال الجوهري : الثمرة واحدة الثمر وجمع الثمر ثمار مثل جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمار ثمر مثل كتاب وكتب ، وجمع الثمر[1] أثمار مثل عنق وأعناق . انتهى . والثمرة مؤنث والجمع ثمرات مثل قصبة وقصبات ، والثمر هو الحمل الذي تخرجه الشجرة سواء أكل أو لا ، فيقال ثمر الأراك وثمر العوسج وثمر الدوم وهو المقل ، كما يقال ثمر النخل وثمر العنب .

قال الأزهري : أثمر الشجر أطلع ثمره أول ما يخرجه فهو مثمر ؛ ومن هنا قيل لما لا نفع فيه ليس له ثمرة ؛ وقيل الثمر جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، سمي ثمراً لأنه يثمر ويزيد مأخوذ من ثمَّر ماله بالتشديد اذا كثَّره، وقيل الثمر هو الذهب والفضة خاصة . قاله مجاهد .

﴿فقال﴾ الكافر ﴿لصاحبه﴾ المؤمن ﴿وهو يحاوره﴾ أي والكافر يحاور المؤمن والمعنى يراجعه الكلام ويجاوبه، والمحاورة المراجعة والتحاور التجاوب وحاصل ما قاله من القول الشنيع ثلاث مقالات الأولى ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ النفر الرهط وهو ما دون العشرة وأراد ههنا الأتباع. والخدم والأولاد والعشيرة .

(١) هناك فرق بين ثُمُر وعُنُق لأن «ثُمُر» جمع ثِمَار، وأما عُنُق فمفرد.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

﴿ودخل جنته﴾ أي دخل الكافر جنة نفسه ، قال المفسرون : أخذ بيد أخيه المسلم فأدخله جنته يطوف به فيها ويريه آثارها وعجائبها وبهجتها وحسنها وأثمارها ، ويفاخر بما ملك من المال دونه، وإفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منها أو لكونها لما اتصلتا كانتا كواحدة أو لأنه أدخله في واحدة ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما أو اكتفاء بالواحدة .

وقال المحلي: لم يقل جنتيه إرادة للروضة. وعبارة الشهاب أفرد الجنة مع أن له جنتين لنكتة وهي أن الإضافة تأتي لما تأتي له اللام فالمراد بها العموم والاستغراق أي كل ما هو جنة له ينتفع بها فيفيد ما افادته التثنية مع زيادة وهي الإشارة إلى أنه لا جنة له غير هذه انتهى ؛ وما أبعد ما قاله صاحب الكشاف انه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون .

﴿وهو﴾ أي ذلك الكافر ﴿ظالم لنفسه﴾ بكفره وعُجْبه قال قتادة: كفور لنعمة ربه مستأنف بياني لسبب الظلم ﴿قال﴾ أي الكافر لفرط غفلته وطول أمله ﴿ما أظن أن تبيد﴾ أي تفنى وتنعدم ﴿هذه﴾ الجنة التي تشاهدها ﴿أبداً﴾

وهذه هي الثانية من مقالاته والثالثة قوله ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته .

قال الزجاج : أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة ﴿ولئن رددت إلى ربي﴾ اللام هي الموطئة للقسم والمعنى أنه والله إن يرد الى ربه فرضاً وتقديراً كما زعم صاحبه واللام في ﴿لأجدن﴾ جواب القسم والشرط أي لأجدن يومئذ ﴿خيراً منها﴾ على الإفراد على ما في مصاحف أهل البصرة والكوفة أي من هذه الجنة ، وفي مصاحف مكة والمدينة والشام منهما ﴿ منقلباً﴾ هو المرجع والعاقبة لأنها فانية وتلك باقية قال هذاقياساً للغائب على الحاضر ، وانه كما كان غنياً في الدنيا سيكون غنياً في الآخرة اغتراراً منه بما صار فيه من الغنى الذي هو الاستدراج له من الله ﴿قال له﴾ أي للكافر﴿صاحبه﴾ المؤمن وقد تعقبه في الثلاثة على سبيل اللف والنشر المشوش ﴿وهو يحاوره﴾ أي حال محاورته له منكراً عليه ما قاله ﴿أكفرت﴾ بقولك﴿ما أظن الساعة قائمة﴾ استفهام توبيخ وتقريع أي لا ينبغي ولا يليق منك الكفر ﴿بالذي خلقك﴾ أي جعل أصل خلقك ﴿من تراب﴾ حيث خلق أباك آدم منه وهو أصلك وأصل مادة البشر ، فلكل فرد حظ من ذلك ، وقيل يحتمل أنه كان كافراً بالله فأنكر عليه ما هو عليه من الكفر ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة .

﴿ثم من نطفة﴾ وهي المادة القريبة ﴿ثم سواك رجلاً ﴾ أي صيَّرك وجعلك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال ، وعدل أعضاءك وَكَلَّمك ، وهو ظاهر كلام الحوفي ، وقيل إنه حال ، ومن الجائز أن يسويه غير رجل ، وهو كقولهم : خلق الله الزرافة يديها أطول من رجليها ، والأول أولى ، وإنما جعل كفره بالبعث كفراً بالله ، لأن منشأه الشك في كمال قدرة الله ، فلذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب ، وفي هذا تلويح بالدليل على البعث ، وأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة .

﴿لكنا﴾ أصله لكن أنا وضمير ﴿هو﴾ للشأن ، والمعنى أنا أقول ﴿الله ربي﴾ قال أهل العربية : اثبات ألف أنا في الوصل ضعيف، وعن الكسائي :

الأصل لكن الله هو ربي أنا ، وقال الزجاج : إثبات الألف في لكنا في الإدراج جيد لأنها قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضاً ، قال : وفي قراءة أُبيّ لكن أنا هو الله ربي ، ولا خلاف في إثباتها في الوقف ، وتكلم في الجمل على هذا الألف بأطول من هذا .

ثم نفى عن نفسه الشرك بالله تعالى فقال ﴿ولا أشرك بربي أحداً﴾ فيه إشارة الى أن أخاه كان مشركاً ثم أقبل عليه يلومه على الثانية فقال :

﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت﴾ لولا للتحضيض أي هَلَّا قلت عندما دخلتها ﴿ما شاء الله﴾ قال الفراء والزجاج : هلا قلت حين دخلتها الأمر بمشيئة الله وما شاء الله كان ، وقيل كائن أي أَيُّ شيء شاء الله كان فترد أمر جنتك من الحسن والنضارة لخالقه ولا تفتخر به لأنه ليس من صنعك .

وقوله ﴿لا قوة إلا بالله﴾ من جملة مقول ، أي هلا قلت هاتين الجملتين تحضيضاً له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ، وعلى الاعتراف بالعجز ، وأن ما تيسر له من عمارتها وحسنها ونضارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته .

وهذا نصح من المؤمن للكافر وتوبيخ له على قوله ﴿ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ قال الزجاج : لا يقوى أحد على ما في يده من ملك ونعمة إلا بالله ولا يكون إلا ما شاء الله .

أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قالت : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن عند الكرب : الله الله ربي لا أشرك به شيئاً ، وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته ، وقرأ هذه الآية[1] وفي اسنادِهِ عيسى بن عون . وروي عن أنس نحوه موقوفاً .

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ٥٠٢٨ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة ٢٠١٢ .

وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قلت نعم، قال أن تقول لا حول ولا قوة إلا بالله[1].

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله[2]، وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف في فضل هذه الكلمة.

ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال ﴿إن ترن﴾ الرؤية علمية أو بصرية ﴿أنا أقل منك مالاً وولداً﴾ أي لأجل ذلك تكبرت وتعظمت عليَّ ويجوز في أنا وجهان **أحدهما**: أن يكون مؤكد الياء المتكلم، **والثاني**: انه ضمير الفصل بين المفعولين، وأقل مفعول ثان أو حال بحسب الوجهين في الرؤية، إلا أنك إذا جعلتها بصرية تعين في أنا أن يكون توكيداً لا فصلاً، لأن شرطه أن يقع بين مبتدأ وخبر، أو ما أصله المبتدأ والخبر.

وقرأ عيسى بن عمر أقلُّ بالرفع ويتعين أنا مبتدأ وأقل خبره، والجملة إما في موضع المفعول الثاني وإما في موضع الحال على ما تقدم في الرؤية، ومالاً وولداً تمييزان وجواب الشرط قوله:

﴿فعسى ربي أن يؤتين﴾ أي إن ترني أفقر منك فأنا أرجو أن يرزقني الله سبحانه جنة ﴿خيراً من جنتك﴾ في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما، وفي الأول يكون الكافر أشد غيظاً وحسرة،، وهذا رجاء من المؤمن وقرع على مقالة الكافر الأولى

﴿ويرسل عليها﴾ أي على جنتك ﴿حُسباناً﴾ هو مصدر بمعنى الحساب كالغفران، أي مقداراً قدره الله عليها ووقع في حسابه سبحانه وهو الْحَكَم بتخريبها قال الزجاج الحسبان من الحساب، أي يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما كسبت يداك وهو حسن.

---

(١) الإمام أحمد ٥/١٧٢ بلفظ: «هل لك بكنز من كنوز الجنة؟».

(٢) مسلم ٢٧٠٤ ـ البخاري ١٤٢٣.

وقال الأخفش ﴿حسباناً﴾ أي مرامي وقيل ناراً ﴿من السماء﴾ واحدها حسبانة ، وكذا قال أبو عبيدة والقتيبي والكرخي .

وقال ابن الأعرابي :الحسبانة السحابة والوسادة والصاعقة وقال قتادة : حسباناً عذاباً ، وقال النضر بن شميل : الحسبان سهام يرمى بها الرجل في جوف قصبة تنزع من قوس ثم يرمى بعشرين منها دفعة ، والمعنى يرسل عليها مرامي من عذابه إما برد وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب .

﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾ مثل الجرز ،قاله ابن عباس ،أي فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسباناً أرضاً جرداء ملساء لا نبات فيها ولا يثبت عليها قدم .

وقال قتادة : أي قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شيء ، وفي اللغة من جملة معاني الصعيد وجه الأرض ، وزلقاً أي تزل فيه الأقدام لملاستها ، يقال مكان زلق بالتحريك أي دحض ، وقيل رملاً هائلاً ، وهو في الأصل مصدر قولك زَلَقَت رجله تَزْلُقُ زلقاً وأزْلَقَها غيره ، والمَزْلَقَة الموضع الذي لا تثبت عليه قدم وكذا الزلاقة ، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة أو أريد به المفعول وصيرورتها كذلك لاستئصال نباتها وأشجارها بالذهاب والإهلاك فلم يبق له أثر .

﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي ذاهباً في الأرض لا تناله الأيدي ولا الدِّلاَء ولا سبيل اليه ، والغور والغائر ، وصف الماء بالمصدر مبالغة والمعنى انها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائماً ، ويجيء الغور بمعنى الغروب ، والعطفُ على يرسل دون تصبح لأن غور الماء لا يتسبب عن الصواعق والمرامي قال أبو حيان إلا إن عنى بالحسبان القضاء الإلهي فحينئذ يتسبب عنه إصباح الجنة صعيداً زلقاً أو إصباح مائها غوراً .

﴿فلن تستطيع له طلباً﴾ أي لن تستطيع لطلب الماء الغائر فضلاً عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل تدركه بها ، وقيل المعنى فلن تستطيع طلب غيره عوضاً عنه .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر فقال ﴿وأحيط بثمره﴾ أي أمواله كالنقد والمواشي وهذا راجع لقوله﴿وكان له ثمر﴾وأصل الإحاطة من إحاطة العدو بالشخص كما تقدم في قوله﴿إلا أن يحاط بكم﴾وهي عبارة عن إهلاكه وإفنائه وهو معطوف على مقدر كأنه قيل فوقع ما توقعه المؤمن فهلكت جنته بالصواعق وغور الماء وأحيط بثمره أي أحاط العذاب والهلاك بثمره .

﴿فأصبح﴾ أي صار صاحبها الكافر ﴿يقلب كفيه﴾ أي يضرب احدى يديه على الأخرى ويصفق بكف على كف وهو كناية عن الندم والتحسر كأنه قيل فأصبح يتندم ﴿على ما أنفق فيها﴾ أي في عمارتها واصلاحها من الأموال ، وقيل المعنى يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم في يده مال ، وهو بعيد جداً ، قال قتادة:يصفق على ما أنفق فيها متلهفاً على ما فاته .

﴿وهي خاوية على عروشها﴾ أي والحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائمها التي تعمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض مأخوذ من خوت النجوم تخوى إذا سقطت ولم تمطر في نوئها ومنه قوله تعالى : ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ قيل وتخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل والزرع لأنه الأصل وأيضاً ذكر إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقي .والعرش شبه بيت من جريد

يجعل فوقه الثمام[١]، الجمع عروش والعريش مثله وجمعه عُرُش بضمتين كبريد وَبُرُد، وعريش الكرم ما يُعْمَل مرتفعاً يمتد عليها الكرم ؛ والجمع عرائش أيضاً ، وقال الشهاب : جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليها الكرم فإذا سقط سقط ما عليه .

﴿ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة يقلب كفيه أو حال من ضميره أي وهو يقول يعني أنه تذكر موعظة أخيه المؤمن فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى عند مشاهدته الهلاك لجنته بأنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك، أو كان هذا القول منه على حقيقته لا لما فاته من الغرض الدنيوي بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه ، والأول هو الأقرب إذ يؤيده قوله :

﴿ولم تكن﴾ بالتاء والياء سبعيتان ﴿له﴾ خبر كان ﴿فئة﴾ اسمها ﴿ينصرونه من دون الله﴾ صفة لفئة أي فئة ناصرة بدفع الهلاك عنها او بردّ الهالك منها، أو بردّ مثله عليه ، وقيل هو الخبر، ورجح الأول سيبويه والثاني المبرد واحتج بقوله ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ والمعنى : انها لم تكن له فرقة وجماعة يلتجىء إليها وينتصر بها ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق .

﴿وما كان﴾ في نفسه ﴿منتصراً﴾ أي ممتنعاً بقوته عن إهلاك الله لجنته وانتقامه منه وقادراً على واحد من هذه الأمور .

﴿هنالك﴾ أي في ذلك المقام ؛ وقيل يوم القيامة ﴿الولاية﴾ بفتح الواو النصرة وبكسرها الملك أي القهر والسلطنة ﴿لله﴾ وحده لا يقدر عليها غيره ﴿الحق﴾ بالجر صفة الجلالة وبالرفع صفة الولاية وكل منهما راجع لفتح الواو وكسرها فالقراآت أربعة وكلها سبعية ، قال الزجاج : ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول هذا لك حقاً ، وقيل هو على التقديم والتأخير أي الولاية لله الحق هنالك .

---

(١) الثُمامَ: عشب من الفصيلة النجيلية يسمو إلى مائة وخمسين سنتيمتراً.

﴿هو﴾ سبحانه ﴿خير ثواباً﴾ أي إثابة لأوليائه أي اعطاء للثواب في الدنيا والآخرة من غيره لو كان يثيب ﴿وخير عقباً﴾ أي عاقبة قرىء عقباً بسكون القاف وضمها وهما سبعيتان بمعنى واحد أي هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به يقال هذا عاقبة أمر فلان ، وعقباه أي أخراه ؛ ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر لجبابرة قريش فقال :

﴿واضرب﴾ أي اذكر وقرر ﴿لهم﴾ أي لقومك ﴿مثل الحياة الدنيا﴾ أي ما يشبه الحياة الدنيا في حسنها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا اليها وقد تقدم هذا المثل في سورة يونس . ثم بيَّن سبحانه هذا المثل فقال ﴿كماء﴾ أي كصفة وحال وهيئة ماء ، فالمشبه هيئة الدنيا بهيئة ماء .

﴿أنزلناه من السماء فاختلط﴾ أي تكاثف وغلظ ﴿به﴾ أي بسبب نزول الماء ﴿نبات الأرض﴾ حتى استوى والتف بعضه على بعض أو امتزج الماء بالنبات فَرَوَى وحسن .

وعلى هذا كان حق التركيب أن يقال فاختلط بنبات الأرض ، لكن لما كان كل من المختلطين موصوفاً بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته .

﴿فأصبح﴾ أي صار النبات عن قريب ﴿هشيماً﴾ يابساً والهشيم الكسير واحده هشيمة وهو اليابس وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وَتَفَتَّت ، ورجل هشيم ضعيف البدن وتهشم عليه فلان اذا تعطف،واهتشم ما في ضرع الناقة إذا احتلبه ، وهشم الثريد كسره وثرده . قال ابن قتيبة : كل ما كان رطباً فيبس فهو هشيم .

﴿تذروه﴾ تفرقه وتنثره ، قال أبو عبيدة وابن قتيبة : تذروه تنسفه ﴿الرياح﴾ قال ابن كيسان : أي تذهب به وتجيء والمعنى متقارب ، وقرىء تذريه ، يقال ذرته الريح تذروه وأذرته تذريه . وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه أي قلبته ﴿وكان الله على كل شيء﴾ من الأشياء ﴿مقتدراً﴾ أي كامل القدرة يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء .

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ يتجمل بهما فيها ، وهذا رد على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال والغنى والأبناء فأخبرهم الله سبحانه أن ذلك مما يتزين به في الدنيا لا مما ينتفع به في الآخرة كما قال في الآية الأخرى ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ وقال ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ وقال ﴿لا ينفع مال ولا بنون﴾ الآية .

وهذا إشارة الى قياس حذفت كبراه ونتيجته. ونظمه هكذا: المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، وكل ما هو زينتها فهو هالك غير باق ينتج المال والبنون هالكان ، ثم يقال وكل ما هو هالك فلا يفتخر به ، فالمال والبنون لا يفتخر بهما ، ولهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله :

﴿والباقيات الصالحات﴾ أي أعمال الخيرات التي تبقى له ثمرتها أبد الأبد ، وهي ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات ﴿خير﴾ أي أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ﴿عند ربك ثواباً﴾ وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها ﴿وخير أملاً﴾ يعني أن الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين لأنهم ينالون بها في الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا .

وليس في زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة ، ولكن هذا التفضيل خرج مخرج قوله تعالى ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً﴾ والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض ، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر ، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وبهذا يعرف أن تفسير الباقيات الصالحات في الأحاديث بما سيأتي لا ينافي إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها .

عن عليّ قال : المال والبنون حَرْثُ الدنيا والعمل الصالح حَرْثُ الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام . عن ابن عباس قال : الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل وما هن يارسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله »[١] .

وأخرج الطبراني وغيره عن أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله هن الباقيات الصالحات . وأخرج النسائي والطبراني في الصغير والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة مرفوعاً : خذوا جُنَّتَكم . قيل يارسول الله من أي عدو قد حضر ؟ قال : بل جُنَّتُكم من النار قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله

---

(١) المستدرك كتاب الدعاء ١/٥١٢ .

أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات ، وهي الباقيات الصالحات[1] . وعن عائشة مرفوعاً وزادت ولا حول ولا قوة إلا بالله . أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر .

وكل هذه الأحاديث مصرحة بأنها الباقيات الصالحات . وأما ما ورد في فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة في الآية فأحاديث كثيرة ولا فائدة في ذكرها ها هنا .

وعن قتادة : كل شيء من طاعة الله فهو من الباقيات الصالحات ، فيندرج فيها ما فسرت به من الصلوات الخمس وأعمال الحج والعمرة وصيام رمضان والكلام الطيب وغير ذلك اندراجاً أولياً .

﴿ويوم نسير الجبال﴾ بالنون على أن فاعله هو الله سبحانه ، وقرىء بالتحتية وبالفوقية على أن الجبال فاعل ، ويناسب الأولى قوله تعالى﴿واذا الجبال سيرت﴾ ويناسب الثانية قوله تعالى ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ ومعنى تسيير الجبال إزالتها من أماكنها ، وتسييرها كما تسير السحاب ، ومنه قوله تعالى ﴿وهي تمر مر السحاب﴾ثم تعود الى الأرض بعد أن جعلها الله كما قال ﴿وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثاً﴾ والمعنى نذهب بها عن وجه الأرض ونجعلها هباء منثوراً كما يسير السحاب .

والخطاب في قوله ﴿وترى الأرض بارزة﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للرؤية ، والرؤية بصرية ، ومعنى بروزها ظهورها وزوال ما يسترها من الجبال والشجر والبنيان .

وقيل المراد ببروزها بروز ما فيها من الكنوز والأموات كما قال سبحانه ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ وقال ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ فيكون المعنى وترى

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٣٢٠٩ ـ الروض النضير ١٠٩٢ .

الأرض بارزاً ما في جوفها . قال قتادة : ليس عليها بناء ولا شجر ولا بحر ولا حيوان وعن مجاهد نحوه .

﴿وحشرناهم﴾ أي الخلائق ، ومعنى الحشر الجمع أي جمعناهم الى الموقف من كل مكان وفيه ثلاثة أوجه : **أحدها**: أنه ماض مراد به المستقبل أي ونحشرهم ، وكذلك وعرضوا ووضع الكتاب الآتيان . **والثاني** : أن الواو للحال أي نفعل التسيير في حال حشرهم ليشاهدوا تلك الأهوال ، **والثالث** : للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال ، قاله الزمخشري . قال الشيخ : والأولى أن تكون الواو للحال .

﴿فلم نغادر﴾ فلم نترك ﴿منهم أحداً﴾ والمفاعلة هنا ليس فيها مشاركة ، يقال غادره وأغدره إذا تركه ، ومنه الغدر ، لأن الغادر يترك الوفاء للمغدور ؛ قالوا : وإنما سمي الغدير غديراً لأن الماء ذهب وتركه والسيل غادره ، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها ، والغديرة الشعر الذي نزل حتى طال .

﴿وعرضوا على ربك صفاً﴾ أي مصفوفين كل أمة وزمرة صف ، وقيل عرضوا صفاً واحداً كما في قوله ﴿ثم ائتوا صفاً﴾ أي جميعاً وهو أبلغ في القدرة ؛ وقيل قياماً وفي الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذي يعرض على السلطان ليقضي بينهم لا ليعرفهم قاله الكرخي .

وخرج الحافظ أبو القاسم عبدالرحمن بن منده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تبارك وتعالى ينادي بصوت رفيع غير فظيع : يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ، ياعبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، أحضروا حجتكم ويسروا جوابكم فإنكم مسؤولون محاسبون ، ياملائكتي أقيموا عبادي على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

قال القرطبي : هذا حديث غاية في البيان في تفسير الآية ولم يذكره كثير من المفسرين ، وقد كتبناه في كتاب التذكرة . أ هـ .

ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ أو قلنا لهم ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم﴾ أي مجيئاً كائناً كمجيئكم عند أن خلقناكم ﴿أول مرة﴾ أو كائنين كما خلقناكم أول مرة ، أي حفاة عراة غرلاً لا مال ولا ولد ، كما ورد ذلك في الحديث . قال الزجاج : أي بعثناكم واعدناكم كما خلقناكم ، لأن قوله ﴿لقد جئتمونا﴾ معناه بعثناكم وبه قال الزمخشري .

﴿بل زعمتم﴾ هذا ضرب وانتقال من كلام الى كلام للتقريع والتوبيخ ، وهو خطاب لمنكري البعث ، أي زعمتم في الدنيا ﴿أن لن نجعل لكم موعداً﴾ نجازيكم بأعمالكم وننجز ما وعدناكم به من البعث والعذاب .

﴿ووضع﴾ العامة على بنائه للمفعول، وزيدُ بنُ عليّ على بنائه للفاعل وهو الله او الملك وقوله ﴿الكتاب﴾ مرفوع على الأول ومنصوب على الثاني، والمراد به صحائف الأعمال، وإفراده لكون التعريف فيه للجنس والوضع إما حسي بأن توضع صحيفة كل واحد في يده، السعيد في يمينه والشقي في شماله أو في الميزان وإما عقلي أي أظهر عمل كل واحد من خير أو شر بالحساب الكائن في ذلك اليوم وقيل: توضع بين يدي الله تعالى .

﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أي خائفين وجلين مما في الكتاب الموضوع من الأعمال السيئة لما يتعقب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع والمجازاة بالعذاب الأليم ﴿ويقولون﴾ إذا رأوها ﴿ياويلتنا﴾ يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم في الهلاك وهو مصدر لا فعل له من لفظه ونداؤها على تشبيهها بشخص يطلب إقباله كأنه قيل يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك ففيه استعارة مكنية وتخييلية، وفيه تقريع لهم وإشارة إلى أنه لا صاحب لهم غير الهلاك وطلبوا

هلاكهم لئلا يروا ما هم فيه وقد تقدم تحقيقه في المائدة .

﴿ما﴾ أي شيء ثبت ﴿لهذا الكتاب﴾ حال كونه ﴿لا يغادر﴾ لا يترك معصية ﴿صغيرة ولا﴾ معصية ﴿كبيرة إلا أحصاها﴾ أي عدّها وحواها وضبطها وأثبتها ، قال ابن عباس : الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك ، وفي لفظ عنه الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين والكبيرة القهقهة بذلك ، وقال سعيد بن جبير الصغيرة الهم والمس والقبلة والكبيرة الزنا .

وأقول صغيرة وكبيرة نكرتان في سياق النفي فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بالصغر وكل ذنب يتصف بالكبر فلا يبقى شيء من الذنوب إلا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبساً بين كونه صغيراً أو كبيراً فذلك إنما هو بالنسبة الى العباد لا بالنسبة الى الله سبحانه ، وهذا لا ينافي قوله تعالى ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ الآية . إذ لا يلزم من العد عدم التكفير إذ يجوز أن تكتب الكبائر ليشاهدها العبد يوم القيامة ثم تكفر عنه فعلم قدر نعمة العفو عليه ، قاله الكرخي والاستفهام للتعجب منه في ذلك .

﴿ووجدوا ما عملوا﴾ في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة أو وجدوا جزاء ما عملوا ﴿حاضراً﴾ مكتوباً مثبتاً في كتابهم ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ أي لا يعاقب أحداً من عباده بغير ذنب وجرم ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذي يستحقه وإنما سمي هذا ظلماً بحسب عقولنا لو خليت ونفسها ولو فعله الله لم يكن ظلماً في حقه لأنه لا يسئل عما يفعل .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله »[1] أخرجه الترمذي وقال : لا يصح من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى .

---

(١) الترمذي كتاب القيامة باب ٤ ـ الإمام أحمد ٤/٤١٤ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

ثم إنه سبحانه عاد الى الرد على أرباب الخيلاء من قريش فذكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه فقال ﴿وإذ قلنا للملائكة﴾ أي واذكر وقت قولنا لهم ﴿اسجدوا لآدم﴾ سجود تحية وتكريم بالخرور كما مر تحقيقه ﴿فسجدوا﴾ طاعة لأمر الله وامتثالاً لطلبه السجود .

﴿إلا إبليس﴾ فانه أبى واستكبر ولم يسجد ﴿كان من الجن﴾ مستأنفة لبيان سبب عصيانه وأنه لم يكن من الملائكة فلهذا عصى ، والاستثناء منقطع وإبليس هو أبو الجن وأصلهم كما أن آدم أصل الإنس وله ذرية ذكرت معه بعد ، والملائكة لا ذرية لهم ، وقيل كان من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم .

وعلى هذا القول فقد نقل عن ابن عباس أن هذا النوع يتوالد وليس معصوماً والاستثناء متصل وكونه،من الملائكة لا ينافي كونه من الجن بدليل قوله سبحانه ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ وذلك أن قريشاً قالت: إن الملائكة بنات الله فهذا يدل على أن الملك يسمى جناً وتعضده اللغة لأن الجن من الاجتنان وهو الستر فتدخل الملائكة فيه ، فكل ملائكة جن لاستتارهم وليس كل جن ملائكة .

ووجه كونه من الملائكة أن الله سبحانه استثناه من الملائكة والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل أو يصح دخوله وذلك يوجب كونه من الملائكة ، ووجه من قال إنه من الجن هذه الآية . والجن جنس مخالف للملائكة. وأجيب عن الاستثناء بأنه منقطع كما تقدم وهو مشهور في كلام العرب قال تعالى ﴿وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ وقال تعالى ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾ .

﴿ففسق عن أمر ربه﴾ أي خرج عن طاعته بترك السجود لآدم عليه السلام قال الفراء : تقول العرب فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه ، قال النحاس : اختلف في معناه على قولين : الأول مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه كما تقول أطعمه من جوع ، والقول الآخر قول قطرب أن المعنى على حذف المضاف أي فسق عن ترك أمره .

وعن ابن عباس قال : إن من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن فكان إبليس منهم وكان يوسوس ما بين السماء والأرض فعصى فسخط الله عليه فمسخه شيطاناً رجيماً وعنه قال : كان خازن الجنان فسمي بالجان ، وعن الحسن قال : قاتل الله أقواماً زعموا أن إبليس كان من الملائكة والله يقول كان من الجن وعنه قال : ما كان من الملائكة طرفة عين إنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس.

ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس في الكفر والمعاصي وخالف أمر الله فقال ﴿أفتتخذونه﴾ كأنه قال أعقيب ما وجد منه من الإباء والفسق تتخذونه ﴿و﴾ تتخذون ﴿ذريته﴾ أي أولاده ، وقيل أتباعه مجازاً ، قال قتادة : يتوالدون كما يتوالد بنو آدم ، وقال مجاهد : من ذرية إبليس لاقس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلاة اللذان يوسوسان فيهما ومن ذريته مرة وبه

يكنى وزلنبور وبتر الأعور ومطروس وداسم .

﴿أولياء من دوني﴾ فتطيعونهم بدل طاعتي وتستبدلونهم بي ﴿و﴾ الحال أن ﴿هم﴾ أي إبليس وذريته ﴿لكم عدو﴾ أي أعداء وأفرده لكونه اسم جنس او لتشبيهه بالمصادر كما في قوله : ﴿فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ وقوله هم العدو أي كيف تصنعون هذا الصنيع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم بمن لم يكن لكم منه منفعة قط بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم في كل وقت .

﴿بئس للظالمين﴾ الواضعين للشيء في غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان فبئس ذلك البدل الذي استبدلوه ﴿بدلاً﴾ عن الله سبحانه والتقدير بئس البدل إبليس وذريته .

﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ قال أكثر المفسرين : الضمير للشركاء ؛ والمعنى أنهم لو كانوا شركاء لي في خلقهما وفي خلق أنفسهم لكانوا مشاهدين خلق ذلك مشاركين لي فيه ولكنهم لم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لي بشركاء وهذا استدلال بانتفاء اللازم المساوي على انتفاء الملزوم .

وقيل الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين والمراد أنهم ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل أني ما أشهدتهم خلق ذلك ، وقيل المعنى أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم في الأزل لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله ، وقيل ما أشهدت الملائكة فكيف يعبدونهم ، وقيل جميع الخلائق والأول من هذه الوجوه أولى لما يلزم في الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور .

وقرىء ما أشهدناهم ، ويؤيد الأولى ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ أي ما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر إذ المراد بالمضلين من انتفى عنهم إشهاد خلق السموات والأرض ، والعضد يستعمل كثيراً في معنى العون ، وذلك أن العضد قوام اليد ومنه قوله سنشد عضدك بأخيك أي سنعينك ونقويك به ، ويقال أعضدت بفلان إذا استعنت به وذكر العضد على جهة المثل وأصله العضو الذي هو من المرفق الى الكتف ففي الكلام استعارة .

وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ والمعنى ما استعنت بهم على خلقهما ولا شاورتهم وما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعواناً، ووحد العضد لموافقة الفواصل. وقرىء ما كنت على أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي ما كنت يامحمد متخذاً لهم عضداً ولا صح لك ذلك، وفي عضد لغات أفصحها فتح العين وضم الضاد وبها قرأ الجمهور .

ثم عاد سبحانه الى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يقول﴾ الله عز وجل للكفار توبيخاً لهم وتقريعاً ﴿نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم، وأضافهم سبحانه إلى نفسه جرياً على ما يعتقده المشركون تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿فدعوهم﴾ أي فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء واستغاثوا بهم والمعنى على الاستقبال كما هو ظاهر ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ ذلك ولم ينصروهم أي لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم فضلاً عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم .

﴿وجعلنا بينهم﴾ أي بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله أو بين المؤمنين والكفار ﴿موبقاً﴾ ذكر جماعة من المفسرين أنه اسم واد عميق في جهنم فرق الله تعالى به بينهم ؛ وبه قال أنس وزاد: من قيح ودم .

وقال ابن عمر : فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة ، وقيل : هو نهر تسيل منه نار وعلى حافتيه حيات مثل البغال الدهم ، وقيل :الموبق البرزخ البعيد لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان ، وعلى هذا فهو اسم مكان .

قال ابن الأعرابي : كل حاجز بين الشيئين فهو موبق ، وقال الفراء : الموبق المهلك ، وبه قال مجاهد وابن عباس، والمعنى جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكاً لهم في الآخرة يقال وَبِق يَوْبَق فهو وَبِقٌ هكذا ذكره الفراء في المصادر ، وحكى الكسائي وَبِق يَبِق وبوقاً فهو وابق ، والمراد بالمهلك على هذا هو عذاب النار يشتركون فيه ، والأول أولى لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء الله الملائكة وعزير والمسيح فالموبق هو المكان الحائل بينهم ، وقال أبو عبيدة : الموبق هنا الموعد للهلاك ، وقد ثبت في اللغة أَوْبَقَهُم بمعنى أهلكهم ولكن المناسب لمعنى الآية هو المعنى الأول .

﴿ورأى المجرمون النار﴾ أي عاينوها من مسيرة أربعين عاماً وهو موضوع موضع الضمير للاشارة إلى زيادة الذم لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به ﴿فظنوا﴾ أي أيقنوا ﴿أنهم مواقعوها﴾ أي داخلوها وواقعون فيها ، والمواقعة المخالطة بالوقوع فيها ، وقيل: إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظناً ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي معدلاً يعدلون اليه أو انصرافاً لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب .

قال الواحدي : اَلْمَصْرِف الموضع الذي ينصرف اليه . وقال القتيبي : أي معدلاً ينصرفون اليه ، وقيل ملجأً يلجأون اليه ، والمعنى متقارب في الجميع .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ
جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن
تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي
وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ
فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

ولما ذكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائرهم وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة ، حكى بعض أهوال الآخرة فقال ﴿ولقد صرفنا﴾ أي كررنا ورددنا وبينا ﴿في هذا القرآن للناس﴾ أي لأجلهم ولرعاية مصلحتهم ومنفعتهم ﴿من كل مثل﴾ من الأمثال التي من جملتها الأمثال المذكورة في هذه السورة ليتذكروا ويتعظوا ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة بني إسرائيل وحين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدل بالباطل ختم الآية بقوله ﴿وكان الانسان أكثر شيء جدلاً﴾ أي خصومة في الباطل .

قال الزجاج : المراد بالإنسان الكافر ، واستدل عليه بقوله تعالى ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل﴾ .

وقيل المراد به في الآية النضر بن الحرث ؛ وقيل أراد أبي بن خلف ، والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر شيء يتأتى منه الجدل جدلاً ، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث عليّ أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلاً فقال ألا تصليان ، فقلت يارسول الله إن أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً ، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾[1] .

(١) مسلم ٧٧٥ ـ البخاري ٦١٦ .

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾ قد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة بني إسرائيل، والناس هنا أهل مكة ، والهدى القرآن أو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ المعنى على حذف مضاف ؛ أي ما منع الناس من الايمان والاستغفار الا طلب أو انتظار إتيان سنة الأولين ،وإنما احتيج الى حذف المضاف إذ لا يمكن جعل إتيان سنة الأولين مانعاً عن إيمانهم، فإن المانع يقارن الممنوع ، وإتيان العذاب متأخر عن عدم إيمانهم بمدة كثيرة .

وزاد الاستغفار في هذه السورة لأنه قد ذكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التي من جملتها جدالهم بالباطل ، وسنة الأولين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال . قال قتادة : عقوبة الأولين ، وقال الزجاج : سنتهم هو قولهم ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية .

﴿أو يأتيهم العذاب﴾ أي عذاب الآخرة ﴿قبلًا﴾ جمع قبيل ، قاله الفراء أي متفرقاً يتلو بعضه بعضاً ، وقيل عِياناً وجهاراً ، قاله الأعمش، وقيل فجاءة . قاله مجاهد .

ويناسب ما قاله الفراء قراءة قُبُلًا بضمتين فإنه جمع قبيل نحو سبيل وسُبُل ، والمراد أصناف العذاب ويناسب التفسير الثاني ، أي عياناً قراءة قِبَلًا بكسر القاف وفتح الباء أي مقابلة ومعاينة ، وقرىء بفتحتين على معنى أو يأتيهم العذاب مستقبلًا، فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته .

﴿وما نرسل المرسلين﴾ من رسلنا إلى الأمم ﴿إلا﴾ حال كونهم ﴿مبشرين﴾ للمؤمنين ﴿ومنذرين﴾ للكافرين ؛ فالاستثناء مفرغ من أعم العام وقد تقدم تفسير هذا .

﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل﴾ مستأنف ﴿ليدحضوا به﴾ أي ليزيلوا

بالجدال الباطل ﴿الحق﴾ ويبطلوه ، وأصل الدحض الـزَّلْقَ، يقال دحضت رجله أي زلقت تدحض دحضاً ، ودحضت الشمس عن كبـد السماء أي زالت ، ودحضت حجته دحوضاً بطلت ، والدحض الطين لأنه يزلق فيه .

ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل :ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وقولهم :أبعث الله بشراً رسولاً ونحو ذلك ﴿واتخذوا آياتي﴾ أي القرآن ﴿و﴾ اتخذوا ﴿ما أنذروا﴾ به من الوعيدوالتهديد، وما بمعنى الذي أو مصدرية ، قاله أبو حيان ﴿هزوا﴾ أي لعباً وباطلاً ، وقد تقدم هذا في البقرة .

﴿ومن﴾ أي لا أحد ﴿أظلم﴾ لنفسه ﴿ممن ذكر﴾ وعظ ، وقد روعي لفظ من في خمسة ضمائر هذا أولها ؛ وروعي معناها في خمسة أولها على قلوبهم ﴿بآيات ربه﴾ التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما .

﴿فأعرض عنها﴾ أي عن قبولها فتهاون بها ولم يتدبرها حق التدبير ولم يتفكر فيها حق التفكر وتركها ولم يؤمن بها ، وأتى بالفاء الدالة على التعقيب لأن ما هنا في الأحياء من الكفار فإنهم ذكروا فأعرضوا عقيب ما ذكروا ، وقاله في السجدة بثم الدالة على التراخي ، لأن ما هناك في الأموات من الكفار فإنهم ذكروا مرة بعد أخرى ثم أعرضوا بالموت فلم يؤمنوا .

﴿ونسي ما قدمت يداه﴾ من الكفر والمعاصي فلم يتب عنها . وقال قتادة : ما سلف من الذنوب الكثيرة . قيل والنسيان هنا بمعنى الترك والتشاغل والتغافل عن كفره المتقدم ، وقيل هو على حقيقته .

﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي أغطية جمع كِنان، وفي القاموس إنه جمع كِنَّ ايضاً ؛ ونصه والْكِنُّ وقاء كل شيء وستره كَالْكِنَّة والْكِنان بكسرهما والجمع أكنان وأكنة والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم . قال الزجاج : أخبر الله سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم ﴿أن يفقهوه﴾ أي لئلا يفقهوه ﴿و﴾ جعلنا ﴿في آذانهم وقراً﴾ أي ثقلاً وصمماً يمنع من استماعه سماع انتفاع ، وقد تقدم تفسير هذا في الأنعام ﴿وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذاً أبداً﴾ لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم .

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

﴿وربك الغفور ذو الرحمة﴾ أي كثير الرحمة بليغها وصاحب الرحمة التي وسعت كل شيء فلم يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال ﴿لو يؤاخذهم﴾ الله ﴿بما كسبوا﴾ أي بسبب ما كسبوه من المعاصي التي من جملتها الكفر والمجادلة والإعراض . وقال ابن عباس بما عملوا ﴿لعجل لهم العذاب﴾ أي عذاب الاستئصال في الدنيا لاستحقاقهم لذلك ﴿بل﴾ جُعِلَ ﴿لهم موعد﴾ مصدر أو مكان أو زمان ، أي أجل مقدر لعذابهم . قيل هو عذاب الآخرة ؛ وقيل يوم بدر . وعن السدي يوم القيامة .

﴿لن يجدوا من دونه﴾ أي من دون الله أو العذاب ، والثاني أولى وأبلغ لدلالته على أنهم لا ملجأ لهم ، فإن من يكون ملجأه العذاب كيف يرى وجه الخلاص ﴿موئلًا﴾ أي ملجأً يلجأون اليه ومرجعاً ، وبه قال ابن عباس : وقال أبو عبيدة : منجاً وبه قال ابن قتيبة وقيل محيصاً ، وعن مجاهد قال محرزاً .

﴿وتلك القرى﴾ أي قرى عاد وثمود ولوط وأمثالها ﴿أهلكناهم﴾ هذا خبر اسم الإشارة ، والمعنى أهل القرى أهلكناهم في الدنيا ﴿لما ظلموا﴾ أي وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصي .

﴿وجعلنا لمهلكهم﴾ في الآخرة ، المهلك هو مصدر هلك . وقال

الزجاج : اسم للزمان والتقدير لوقت مهلكهم ﴿موعداً﴾ أي وقتاً معيناً وهو يوم القيامة فليعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم .

﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال موسى لفتاه﴾ قيل ووجه ذكر هذه القصة في هذه السورة أن اليهود لما سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قصة أصحاب الكهف وقالوا: إن أخبركم فهو نبي وإلا فلا . ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيهاً على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يلزمه أن يكون عالماً بجميع القصص والأخبار ، وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور ههنا هو موسى ابن عمران من سبط لاوى بن يعقوب ، قال الكرخي : هذا هو الأصح كما قاله ابن عباس وعليه الجمهور من العلماء وأهل التاريخ وليس في القرآن موسى غيره .

وقالت فرقة منهم نوف البكالي : إنه ليس موسى بن عمران وإنما موسى ابن ميشى بن يوسف بن يعقوب وكان نبياً قبل موسى بن عمران ، وهذا باطل قد رده السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم ، منهم ابن عباس كما في صحيح البخاري وغيره ، كيف ولو أراد شخصا آخر لوجب تعريفه بصفة تُوجب الامتياز بينهما وتزيل الشبهة ، فلما لم يميزه بصفة علمنا أنه موسى بن عمران ، والمراد بفتاه هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف . وقيل إنه أخو يوشع وقيل إنه عبده ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي[1] والأول أولى وأصح ، وقد نبأه الله بعد موسى .

قال الواحدي : أجمعوا على أنه يوشع بن نون وقد مضى ذكره في المائدة وفي آخر سورة يوسف . ومن قال إنه موسى بن ميشى قال: إن هذا الفتى لم يكن يوشع بن نون . قال الفراء : وإنما سمي فتى موسى لأنه كان ملازماً له

(١) مسلم ٢٢٤٩ ـ البخاري ١٢٥١ .

يأخذ عنه العلم ويخدمه ويتبعه ، وهذا بيان وجه إضافته لموسى وكان ابن أخته .

ومعنى ﴿لا أبرح﴾ لا أزال سائراً ، ومنه قوله﴿لن نبرح عليه عاكفين﴾ ، وبرح إذا كان بمعنى زال يزال فهو من الأفعال الناقصة وخبره محذوف لدلالة ما بعده وهو ﴿حتى أبلغ﴾ أي أنتهي ، قاله ابن زيد ﴿مجمع البحرين﴾ أي ملتقاهما . قال الزجاج : لا أبرح بمعنى لا أزال ، وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه ، ولأن قوله حتى أبلغ غاية مضروبة فلا بد لها من ذي غاية ، فالمعنى لا أزال أسير إلى أن أبلغ ، ويجوز أن يراد لا يبرح مسيري حتى أبلغ ، وقيل معناه : لا أفارقك حتى أبلغ ، وقيل : يجوز أن يكون من برح التام بمعنى زال يزول فلا تستدعي خبراً بمعنى لا أزول عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه .

قيل : المراد بالبحرين بحر فارس والروم وهما نحو المشرق والمغرب ، قاله قتادة وقيل : بحر الاردن وبحر القلزم ، ومجمع البحرين عند طنجة ، قاله محمد ابن كعب ، وقيل بإفريقية ، قاله أبي بن كعب ؛ وقيل : إن ملتقاهما عند البحر المحيط . وقالت طائفة ؛ المراد بالبحرين موسى والخضر ، وهو من الضعف بمكان . وقد حكى عن ابن عباس ولا يصح .

﴿أو أمضي﴾ أي أسير ﴿حقباً﴾ أي زماناً طويلاً ، قال الجوهري : الحقب بالضم ثمانون سنة . وقال مجاهد : سبعون خريفاً ، وقيل سنة واحدة بلغة قريش ، وفي معناه الحقبة بالكسر والضم وتجمع الأولى على حقب بكسر الحاء كَقِرْبَة وقِرَب والثانية على حُقَب بضم الحاء كَغُرْفَة وَغُرَف .

وقال النحاس : الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود ، كما أن رهطاً وقوماً مبهمان غير محدودين وجمعه أحقاب ، وسبب هذه العزمة على السير من موسى عليه السلام ما روي أنه سئل موسى من أعلم الناس ؟ فقال أنا ، فأوحى الله اليه أن عبداً لي بمجمع

البحرين هو أعلم منك ﴿فلما بلغا﴾ أي موسى وفتاه ﴿مجمع بينهما﴾ أي بين البحرين وأضيف مجمع إلى الظرف تـوسعاً .

وقيل:البين بمعنى الافتراق ، أي البحران المفترقان يجتمعان هناك . وقيل الضمير لموسى وخضر ، أي وصلا الموضع الذي يكون فيه اجتماع شملهما ويكون البين على هذا بمعنى الوصل لأنه من الأضداد والأول أولى ﴿نسيا حوتهما﴾ قال المفسرون : إنهما تزوَّدا حوتاً مملحاً مشقوق البطن في زنبيل ، وكانا يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام ، وكان قد جعل الله فُقْدَانـه أمارة لهما على وجدانَ المطلوب ، والمعنى أنهما نسيا تَفَقُّـدَ أمره .

وقيل:الذي نسي إنما هو فتى موسى لأنه وكل أمر الحوت إليه وأمره أن يخبره إذا فقده ، وإنما أضاف النسيان اليهما لأنهما تزوّداه لسفرهما ، والثاني أولى لقوله ﴿فإني نسيت الحوت﴾ وهو كقولهم نسوا زادهم وإنما ينساه متعهد الزاد ، فلما انتهيا الى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذي فيه الحوت فأحياه الله فتحرك واضطرب في المكتل ثم انسرب في البحر ، ولهذا قال :

﴿فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ أي اتخذ الحوت سبيلاً سرباً، وهو النفق الذي يكون في الأرض للضب ونحوه من الحيوانات . قال سعيد بن جبير : أثره يابس في البحر كأنه في جحر ، وذلـك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذي انسرب فيه الحوت فصار كالطاق ، فشبه مسلك الحوت في البحر مع بقائه وانجياب الماء عنه بالسـرب الذي هـو الكوَّة المحفـورة في الأرض .

قال الفراء : لما وقع في الماء جمد مذهبه في البحر فكان كالسرب ، فلما جاوزا ذلك المكان الذي كان عند الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا فأصابهما ما يصيب المسافر من النصب والكلال ولم يجد النصب حتى جاوزا الموضع الذي فيه الخضر ولهذا قال سبحانه :

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾

﴿فلما جاوزا﴾ مجمع البحرين الذي جعل موعداً للملاقاة ﴿قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ هو ما يؤكل بالغداة ، وأراد موسى أن يأتيه بالحوت الذي حملاه معهما ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي تعباً وإعياء وإشارة هذا إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة الموعد فإنهما لم يجدا النصب إلا في ذلك دون ما قبله ، والنُّصُب بفتح النون والصاد وبضمها وهما لغتان من لغات أربع في هذه اللفظة ، قاله أبو الفضل الدارمي في لوامحه .

﴿قال﴾ لموسى فتاه ﴿أرأيت﴾ معنى الاستفهام تعجبية لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك مما لا يكاد ينسى لأنه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة ﴿إذ أوينا الى الصخرة﴾ وكانت عند مجمع البحرين الذي هو الموعد وانما ذكرها دون ان يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان لاحتمال أن يكون المجمع مكاناً متسعاً يتناول مكان الصخرة وغيره .

﴿فإني نسيت الحوت﴾ أي نسيت أن أذكر لك أمره ، وما شاهدت منه من الأمور العجيبة وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذي تقدم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذي جعلاه زاداً لهما وأمارة لوجدان مطلوبهما، ثم ذكر ما يجري مجرى السبب في وقوع ذلك النسيان فقال :

﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ بما يقع منه من الوسوسة ﴿أن أذكره﴾ بدل اشتمال من الضمير في(أنسانيه)وفي مصحف عبد الله (وماأنسانيه أن أذكره إلا الشيطان)﴿واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع ، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجباً للناس ، وموضع التعجب أن يحيا حوت قد مات وأكل شقه ثم يثب الى البحر ويبقى أثر جريته في الماء لا يمحو أثرها جريان الماء .

ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت فيكون ما بين الكلامين اعتراضاً ، وقال أبو الشجاع في كتاب الطبري : أتيت به فرأيته فاذا هو شقة حوت بعين واحدة وشق آخر ليس فيه شيء من اللحم عليه قشرة رقيقة تحتها الشوك .

﴿قال﴾ موسى لفتاه ﴿ذلك﴾ الذي ذكرت من فقد الحوت في ذلك الموضع ﴿ما كنا نبغ﴾ ونطلبه فإن الرجل الذي نريده هوهنالك،وياء نبغ من ياآت الزوائد فلا تثبت رسماً وقفاً لا وصلاً وابن كثير أثبتها في الحالين ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ أي رجعا على الطريق الذي جاءا منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما أي قاصين أو مقتصين والقصص في اللغة اتباع الأثر ؛ قال قتادة : عودهما على بدئهما .

﴿فوجدا عبداً من عبادنا﴾ هو الخضر في قول جمهور المفسرين وعلى ذلك دلت الأحاديث الصحيحة وخالف في ذلك من لا يعتدّ بقوله فقال ليس هو الخضر بل عالم آخر ، وقيل كان ملكاً من الملائكة قيل سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله ، قاله مجاهد قيل: واسمه بليا بن ملكان وهو من نسل نوح .

عن ابن عباس : قال الخضر بن آدم لصلبه ونسىء له في أجله حتى

يكذب الدجال وفيه نظر ، وقيل كان من بني اسرائيل أو من أبناء الملوك تزهد وترك الدنيا ، وأخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء »[1] والخضر بكسر الخاء مع سكون الضاد وبفتح الخاء مع سكون الضاد وكسرها ففيه لغات ثلاثة ، وهذا لقبه وكنيته ابو العباس .

ثم وصفه الله سبحانه فقال ﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾ قيل الرحمة هي النبوة والهداية قاله ابن عباس ، وقيل: النعمة التي أنعم الله بها عليه وهي الولاية وعليه الأكثر والجمهور من العلماء على أنه حي الى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة، والأصح ما ذهب اليه أهل الحديث من عدم حياته والله أعلم .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب الرد على المنطقيين :

ومن ملاحدة المتصوفة من يزعم أن أرسطو كان هو الخضر خضر موسى وقولهم هذا من أظهر الكذب البارد ، والخضر على الصواب مات قبل ذلك بزمان طويل ، والذين يقولون إنه حي كبعض العباد وبعض العامة وكثير من اليهود والنصارى غالطون في ذلك غلطاً لا ريب فيه ، وسبب غلطهم أنهم يرون في الأماكن المنقطعة وغيرها من يظن أنه من الزهاد ويقول إنه الخضر ، ويكون ذلك شيطاناً قد تمثل بصورة آدمي .

وهذا مما علمناه في وقائع كثيرة حتى في المكان الذي كتبت فيه هذا عند الربوة بدمشق رأى شخص بين الجبلين صورة رجل قد سد ما بين الجبلين وبلغ رأسه رأس الجبل وقال أنا الخضر وأنا نقيب الأولياء وقال للرجل الرائي أنت رجل صالح وأنت وليّ الله ومدَّ يده الى فأس كان الرجل نسيه في مكان وهو ذاهب اليه فناوله إياه وكان بينه وبين ذلك المكان نحو ميل ؛ ومثل هذه الحكاية كثيرة .

---

(١) البخاري كتاب الأنبياء باب ٢٧ ـ الترمذي تفسير سورة ٣/١٨ .

وكل من قال انه رأى الخضر وهو صادق فإما أن يتخيل له في نفسه أنه رآه ويظن ما في نفسه كان في الخارج كما يقع لكثير من أرباب الرياضات ، وإما ان يكون جنياً يتصور له بصورة إنسان ليضله وهذا كثير جداً قد علمنا منه ما يطول وصفه ، وإما أن يكون رأى إنسياً ظن أنه الخضر وهو غالط في ظنه فإن قال له ذلك الجني أو الإنسي أنه الخضر فيكون قد كذب عليه ، لا يخرج الصدق في هذا الباب عن هذه الأقسام الثلاثة .

وأما الأحاديث فكثيرة ولهذا لم ينقل عن أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ولا اجتمع به لأنهم كانوا أكمل علماً وإيماناً من غيرهم فلم يكن يمكن شيطان التلبيس عليهم كما لبس على كثير من العباد ، ولهذا كثير من الكفار اليهود والنصارى يأتيهم من يظنون أنه الخضر ويحضر في كنائسهم وربما حدثهم بأشياء وإنما هو شيطان جاء اليهم يضلهم ، ولو كان الخضر حياً لوجب عليه أن يأتي الى النبي صلى الله عليه وسلم فيؤمن به ويجاهد معه كما أخذ الله الميثاق على الأنبياء واتباعهم بقوله : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ .

والخضر قد أصلح السفينة لقوم من عرض الناس فكيف لا يكون بين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهو إن كان نبياً فنبينا أفضل منه ، وان لم يكن نبياً فأبو بكر وعمر أفضل منه ، وهذا مبسوط في موضعه انتهى وسيأتي الكلام على ذلك في آخر هذه القصة إن شاء الله تعالى .

﴿وعلمناه﴾ من علم الغيب الذي استأثرنا به ، وفي قوله ﴿من لدنا علماً﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم وتعظيم له ، قال الزجاج : وفيما فعل موسى وهو من أجله الأنبياء من طلب العلم والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته وأن يتواضع لمن هو أعلم منه .

ثم قص سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال ﴿قال موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ في هذا السؤال ملاطفة ومبالغة في الأدب والتواضع لأنه استجهل نفسه واستأذنه أن يكون تابعاً له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم، والرُّشْدُ بضم الراء وسكون الشين هو الوقوف على الخير وإصابة الصواب أي علماً ذا رشد أرشد به ، وقرىء رَشَداً بفتحتين وهما لغتان كالبخل والبَخَل.

وفي الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب ، وليس في ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل ، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول اذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن ، وقد زل أقدام أقوام من الضلال في هذا المقام في تفضيل الولي على النبي حيث قالوا ؛ أمر موسى بالتعلم من الخضر وهو ولي وهو كفر جلي والجواب ما ذكرناه .

﴿قال﴾ الخضر لموسى ﴿إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي لأن الظواهر التي هي علمك لا توافق ذلك ثم أكد ذلك مشيراً الى علة عدم الاستطاعة فقال ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾ أي كيف تصبر على علم ظاهره منكر وأنت لا تعلم، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والاقرار عليه، والخبر العلم بالشيء والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها وما يحتاج الى الاختبار منها .

قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

﴿قال﴾ موسى للخضر ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ معك ملتزماً طاعتك،وإنما استثنى لأنه لم يثق من نفسه بالصبر ولم يستثن الخضر لأنه في مقام التعليم ﴿ولا أعصي لك أمراً﴾ أي لا أخالفك فيما تأمرني به،والتقييد بقوله إن شاء الله شامل للصبر ونفي المعصية،وقيل إن التقييد بالمشيئة مختص بالصبر لأنه أمر مستقبل لا يدري كيف يكون حاله فيه ونفي المعصية معزوم عليه في الحال ويجاب عنه بأن الصبر ونفي المعصية متفقان في كون كل واحد منهما معزوماً عليه في الحال وفي كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه في المستقبل .

﴿قال﴾ الخضر لموسى ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء﴾ مما تشاهد من أفعالي المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذي بعثك الله به أي لا تفاتحني بالسؤال عن حكمته فضلاً عن المناقشة والاعتراض ﴿حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ أي حتى أكون أنا المبتدىء لك بذكره وبيان وجهه ومايؤول اليه وفيه إيذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وهذه الجمل المعنونة بقال وقال مستأنفات لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كل واحدة ينشأ السؤال عنها مما قبلها .

واعلم أنه قد رويت في قصة موسى مع الخضر المذكورة في كتاب العزيز أحاديث كثيرة وأتمها وأكملها ما روي عن ابن عباس ولكنها اختلفت في بعض

الألفاظ وكلها مروية عن سعيد بن جبير عنه وبعضها في الصحيحين وغيرهما وبعضها في أحدهما وبعضها خارج عنهما ، وقد رويت من طريق العوفي عنه كما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم ومن طرق أخرى فلنقتصر على الرواية التي هي أتم الروايات الثابتة في الصحيحين ففي ذلك ما يغني عن غيره وهي[1] :

قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم اليه فأوحى الله اليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يا رب فكيف لي به قال تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم[2] .

فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق .

فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله به ، فقال له فتاه أرأيت إذ أوينا الى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً قال فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً فقال موسى ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً .

---

(١) مسلم ٢٣٨٠ ، البخاري ٦٤ .

(١) ثم بفتح الثاء أي هناك .

قال سفيان : يزعم الناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتاً إلا عاش ، قال وكان الحوت قد أكل منه فلما قطر عليه الماء عاش ، قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وإني بأرضك السلام ، قال أنا موسى ؛ قال موسى بن اسرائيل ؟ قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ، قال : إنك لن تستطيع معي صبراً ، ياموسى إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من الله علمك الله لا أعلمه . قال موسى ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ، فقال له الخضر : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، فلما ركبا السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً .

قال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت الأولى من موسى نسياناً ، قال وجاءَ عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور الذي وقع على حرف السفينة من هذا البحر .

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، فقال موسى :أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ، قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ، قال: وهذه أشد من الأولى ، قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً .

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ، قال مائل ، فقال الخضر بيده هكذا فأقامه ، فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ! لو شئت لاتخذت عليه أجراً ، قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما ، قال سعيد بن جبير : وكان ابن عباس يقرأ : وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ، وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين وبقية روايات سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب هي موافقة لهذه الرواية في المعنى وان تفاوتت الألفاظ في بعضها ، فلا فائدة في الإطالة بذكرها ، وكذلك روايات غير سعيد عنه .

﴿فانطلقا﴾ أي موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة ومعهما يوشع ، وإنما لم يذكر في الآية لأنه تابع لموسى ؛ فالمقصود ذكر موسى والخضر وقال القشيري ؛ والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقي الخضر ، وقال أبو العباس : اكتفى بذكر المتبوع عن التابع ، فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فحملوهم بغير نول ﴿حتى اذا ركبا في السفينة خرقها﴾ قيل قلع لوحاً من ألواحها وقيل لوحين مما يلي الماء بفأس لما بلغت اللجج ، وقيل خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق اليها .

﴿قال﴾ موسى ﴿أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً﴾ أي عظيماً يقال أمر الأمر اذا كبر وعظم ، وإمر الاسم منه ، وقال أبو عبيدة : الإمر الداهية العظيمة ، وقال القتيبي : الإمر العجب ، وبه قال قتادة ، وقال الأخفش : أمر أمره يأمر إذا اشتد والاسم الإمر . وقال ابن عباس : أمراً نكراً . وعن مجاهد نحوه روى أن الماء لم يدخلها .

﴿قال﴾ الخضر ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أذكره ما تقدم

من قوله له سابقا إنك لا تستطيع معي صبراً ﴿قال﴾ موسى ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾ ما مصدرية ، أي لا تؤاخذني بنسياني أو موصولة أي لا تؤاخذني بالذي نسيته ، وهو قول الخضر فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ، فالنسيان إما على حقيقته على تقدير أن موسى نسي ذلك ، أو بمعنى الترك على تقدير أنه لم ينس ما قاله له ولكنه ترك العمل به .

عن أبيّ بن كعب قال : لم ينس ولكنها من معاريض الكلام ، أي أورده في صورة دلت على النسيان ولم يقصد نسيان الوصية بل نسيان شيء آخر حتى لا يلزم الكذب قاله الكازروني ، قيل: كانت الأولى من موسى نسياً والثانية شرطاً والثالثة عمداً ﴿ولا ترهقني﴾ أي لا تكلفني ﴿من أمري عسراً﴾ مشقة في صحبتي . قال أبو زيد : أرهقته عسراً اذا كلفته ذلك ، والمعنى عاملني باليسر والعفو لا بالعسر ، وقرىء عُسُراً بضمتين .

﴿فانطلقا﴾ بعد خروجهما من السفينة يمشيان ﴿حتى إذا لقيا غلاماً﴾ قيل كان اسمه شمعون ، ذكره القرطبي ؛ ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير ، قيل كان الغلام يلعب مع الصبيـان ﴿فقتله﴾ أي فاقتلع الخضر رأسه أو ذبحه بالسكين أو ضرب رأسه بالجدار أقوال ، وأتى هنا بالفاء العاطفة لأن القتل عقب اللقيّ وجواب إذا ﴿قال﴾ موسى ﴿أقتلت نفساً زكية﴾ هي البريئة من الذنوب ، الطاهرة .

قال أبو عمر : الزاكية التي لم تذنب ، والزكية التي أذنبت ثم تابت ، وقال الكسائي : الزاكية والزكية لغتان ، وقال الفراء : الزاكية والزكية مثل القاسية والقسية ، قال ابن عباس : زاكية مسلمة ، وقال سعيد بن جبير : لم يبلغ الخطايا . وعن الحسن نحو ﴿بغير﴾ قتل ﴿نفس﴾ محرمة حتى يكون قتل هذه قصاصاً ﴿لقد جئت﴾ أي فعلت ﴿شيئاً نكراً﴾ أي فظيعاً منكراً لا يعرف في الشرع ، قرىء بسكون الكاف وضمها وهم سبعيتان ، قيل معناه أنكر من

الأمر الأول لكون القتل لا يمكن تداركه بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه . وقيل النكر أقل من الإمر ، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة .

وعن قتادة قال : النكر أنكر من العجب ، قيل استبعد موسى أن يقتل نفساً بغير نفس ولم يتأول للخضر بأنه يحل القتل بأسباب أخر . عن أبي العالية عند ابن المنذر وابن أبي حاتم قال : كان الخضر عبداً لا تراه الأعين إلا من أراد الله أن يريه إياه ، فلم يره من القوم إلا موسى ، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام .

وأقول ينبغي أن ينظر من أين له هذا ، فإن لم يكن مستنده إلا قوله « ولو رآه القوم الخ » فليس ذلك بموجب لما ذكره أما أولاً فإن من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام لا لكونه لا تراه الأعين ، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم .

وأما ثانياً فيمكن أن أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه ؛ ويدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، وعرفوا أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر من الله كما يفعل الأنبياء فسلموا الأمر لله . وعن عطاء قال : كتب نجدة الحروري الى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان فكتب اليه ان كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم ، وفي لفظ ولكنك لا تعلم ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم فاعتزلهم .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم عن أبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ، ولو أدرك لأرهق بأبويه طغياناً وكفراً .[١]

(١) مسلم ٢٦٦١ ـ ابو داوود كتاب السنة باب ١٩ .

۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾

﴿قال﴾ الخضر ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ زاد هنا لفظ لك لأن سبب العتاب أكثر وموجبه أقوى فقد نقض العهد مرتين ، وقيل زاد لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه ، لك أقول وإياك أعني ، وقيل زاد لعدم العذر هنا تحاملاً في الخطاب وتقريعاً لموسى .

ولهذا ﴿قال﴾ موسى ﴿إن سألتك عن شيء بعدها﴾ أي بعد هذه المرة أو بعد هذه النفس المقتولة ﴿فلا تصاحبني﴾ أي لا تجعلني صاحباً لك ؛ وقرىء تصحبني قال الكسائي : معناه لا تتركني أصحبك ، وقرىء بضم التاء والباء وتشديد النون ؛ نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره .

ولذا قال ﴿قد بلغت من لدني عذراً﴾ في مفارقتك لي ، يريد أنك قد أعذرت حيث خالفتك ثلاث مرات . وهذا كلام نادم شديد الندامة اضطره الحال الى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف، وقرأ الجمهور لدني مخففاً وشددها الباقون ، وعن أبيّ قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ من لدني عذراً مثقلة . أخرجه أبو داود والترمذي والطبراني وغيرهم . وقرأ الجمهور عذْراً بسكون الذال وقرىء بضمها ، وحكى الداني أن أبيا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم بكسر الراء وياء بعدها بإضافة العذر الى نفسه .

﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية﴾ قيل هي(أيلة)وهي أبعد الأرض من السماء وقيل انطاكية ، وقيل برقة ، وقيل قرية من قرى أذربيجان ، وقيل قرية من قرى الروم ، وقيل هي بلدة بـالأندلس ﴿استطعما أهلهـا﴾ طلبا منهم الطعام بضيافة ؛ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التأكيد أو للتأسيس أو لكراهة اجتماع الضميرين في هذه الكلمة لما فيه من الكلفة او لزيادة التشنيع على أهل القرية بإظهارهم ﴿فأبوا أن يضيفوهما﴾ أي أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من ضيافتهما ؛ فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحل الكدية فقد اخطأ خطأً بيّناً ومن ذلك قول بعض الأدباء الذين يسألون الناس :

فإن رددت فما في الرد منقصة عليَّ قد ردّ موسى قبل والخضر

وقـد ثبت في السنة تحـريم السؤال بما لا يمكن دفعـه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة . عن أبيّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ أن يضيفوهما مشددة ، قيل شر القُرَى التي تبخل بالْقِرَى أي لا تضيف الضيف ، قيل أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعيا لنسائهم ولعنا رجالهم .

﴿فوجدا فيها﴾ أي في القريـة ﴿جداراً﴾ طـوله مـائة ذراع وعـرضه خمسون ذراعاً وامتداده على وجه الأرض خمسمائة ذراع ﴿يريد ان ينقضّ﴾ إسنـاد الإرادةالى الجدار مجاز ، قال الزجاج : الجدار لا يريد إرادة حقيقة إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالإرادة ومعنى الانقضاض السقوط بسرعة يقال انقض الحائط إذا وقع وانقض الطائر إذا هوى من طيرانه فسقط على شيء .

﴿فأقامه﴾ أي فسواه الخضر بيده لأنه وجده مائلاً فرده كما كان ، وقيل نقضه وبناه ، وقيل أقامه بعمود ، عن أبيّ بن كعب عن رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم أنه قرأ يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه «قلت» ورواية الصحيحين التي قدمناها أنه مسحه بيده أولى .[١]

﴿قال﴾ موسى ﴿لو شئت لتخذت﴾ عن أبيّ ان الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ لتخذت مخففاً يقال تخذ فلان يتخذ تخذاً مثل اتخذ ﴿عليه أجراً﴾ أي على إقامته وإصلاحه، تحريضاً من موسى للخضر على أخذ الجعل والأجرة ليتعشيا به أو تعريضاً بأنه فضول ، والأول أولى ، قال الفراء : معناه لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الأجر .

﴿قال﴾ الخضر ﴿هـذا فراق بيني وبينك﴾ على إضافة فراق الى الظرف اتساعاً أي هذا الكلام والإنكـار منك على ترك الأجر هو المفرق بيننا قال الزجاج : المعنى هذا فراق بيننا أي هذا فراق اتصالنا وكرر بين تأكيداً .

أخرج أبو داود والنسائي والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر لقص الله علينا من خبره ولكن ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني﴾[٢] ولما قال الخضر لموسى بهذا أخذ في بيان الوجه الذي فعل بسببه تلك الأفعال التي أنكرها موسى فقال :

﴿سأنبئك﴾ قبل فراقي لك ﴿بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ أي الأمور الثلاثة المتقدمة ، والمراد بالتأويل إظهار ما كان باطناً ببيان وجهه ؛ قاله الشهاب وفي القرطبي المراد بالتأويل التفسير ، وأصل التأويل رجوع الشيء الى مآله .

ثم شرع في البيان له فقال ﴿أما السفينة﴾ يعني التي خرقها ﴿فكانت لمساكين﴾ لضعفاء عشرة وكانوا إخوة لا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم وقد

(١) مسلم ٢٣٨٠ ـ البخاري ٦٤ .
(١) المستدرك كتاب التاريخ ٥٧٤/٢ .

ذكر النقاش أسماءهم وقرأ جماعة مساكين بتشديد السين واختلف في معناها فقيل هم ملاحو السفينة وذلك أن المساك هو الذي يمسك السفينة والأظهر قراءة الجمهور بالتخفيف .

﴿يعملون في البحر﴾ ولم يكن لهم مال غير تلك السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة،وقد استدل الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين ﴿فأردت أن أعيبها﴾ أي أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ﴿وكان وراءهم ملك﴾ جملة حالية بإضمار قد قال المفسرون : يعني أمامهم ، وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ أمامهم ، وعن أبيّ بن كعب انه قرأها كذلك وكتب عثمان ﴿وكان وراءهم﴾ ووراء يكون أمام ، وقد مر الكلام على هذا في قوله ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ .

وقيل أراد خلفهم وكان طريقهم في الرجوع عليه وما كان عندهم خبر بأنه ﴿يأخذ كل سفينة﴾ صالحة لا معيبة ﴿غصباً﴾ نصبه على المصدر المبين لنوع الأخذ ، وقد قرأ ابن عباس وابي بن كعب بزيادة صالحة والملك الغاصب كان اسمه الجلندي الأزدي وكان كافراً ، وقيل كان اسمه هدد بن بدد ، وقيل كان ملك غسان واسمه جيسورا ذكره القرطبي .

﴿وأما الغلام﴾ يعني الذي قتله ﴿فكان أبواه مؤمنين﴾ ولم يكن هو كذلك وقرأ ابن عباس وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين ﴿فخشينا﴾ الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه ، وقيل معناه فعلمنا والأول أولى .

وعن قتادة : هي في مصحف عبدالله فخاف ربك ﴿أن يرهقهما﴾ أي يرهق الغلام أبويه يقال رهقه أي غشيه وأرهقه أغشاه ، قال المفسرون : معناه

خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه في دينه وهو الكفر، وقيل المعنى فخشينا أن يرهق الوالدين ﴿طغياناً﴾ عليهما ﴿وكفراً﴾ لنعمتهما بعقوقه.

قيل ويجوز أن يكون فخشينا من كلام الله ويكون المعنى كرهنا كراهة من خشي سوء عاقبة أمره فغيره، وهذا ضعيف جداً فالكلام كلام الخضر.

وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة فقيل: إنه كان بالغاً وقد استحق ذلك بكفره، وقيل كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك ويكون معنى خشينا الخ أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعا في المعصية، وقد يؤدي ذلك الى الكفر والارتداد.

والحاصل أنه لا إشكال في قتل الخضر له إذا كان بالغاً كافراً أو قاطعاً للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوغ له ذلك.

وأما إذا كان الغلام صبياً غير بالغ فقيل: إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغاً لكان كافراً يتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية يأباه فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحل في الشريعة المحمدية، ولكنه حل في شريعة أخرى فلا إشكال.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

﴿فأردنا أن يبدلها﴾ الإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه ، قال الزجاج : معنى فأردنا فأراد الله ومثله في القرآن ، وقيل المعنى أردنا أن يرزقهما الله ﴿ربهما﴾ بدل هذا الولد ولداً ﴿خيراً منه﴾ والتفضيل ليس على بابه ﴿زكاة﴾ أي ديناً وصلاحاً وتقوى وطهارة من الذنوب ﴿وأقرب رحماً﴾ بسكون الحاء وقرىء بضمها الرحمة يقال رحمه الله رحمة ورحماً والألف للتأنيث قال ابن عباس : رحماً مودة فأبدلا جارية ولدت نبياً .

﴿وأما الجدار﴾ يعني الذي أصلحه ﴿فكان لغلامين يتيمين﴾ قيل اسمهما أصرم وصريم ﴿في المدينة﴾ هي القرية المذكورة سابقاً وفيه جواز إطلاق المدينة على القرية لغة ، وقيل عبر هناك بالقرية تحقيراً لها لخسة أهلها وعبر هنا بالمدينة تعظيماً لها من حيث اشتمالها على هذين الغلامين وعلى أبيهما ﴿وكان تحته كنز لهما﴾ قيل كان مالاً جسيماً كما يفيده لفظ الكنز ، وبه قال عكرمة وقتادة إذ هو المال المجموع .

قال الزجاج : المعروف في اللغة أن الكنز إذا أفرد فمعناه المال المدفون فإذا لم يكن مالاً قيل كنز علم وكنز فهم ، وقيل لوح من ذهب ، وقيل علم في صحف مكتوبة مدفونة ، عن قتادة قال : كان الكنز لمن قبلنا وحرم علينا وحرمت الغنيمة على من كان قبلنا وأحلت لنا ، فلا يعجبن الرجل فيقول ما شأن الكنز أحل لمن قبلنا وحرم علينا فإن الله يحل من أمره ما شاء ويحرم ما شاء ، وهي السنن والفرائض تحل لأمة وتحرم على أخرى .

وعن ابي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : وكان تحته كنز ذهب وفضة أخرجه البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه والطبراني والحاكم وصححه[1] ، وعن أبي الدرداء قال : أحلت لهم الكنوز وحرمت عليهم الغنائم ، وأحلت لنا الغنائم وحرمت علينا الكنوز .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي ذر رفعه قال : إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت فيه « عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل لا إله إلا الله محمد رسول الله » وفي نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلق بذكرها فائدة .

﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ فكان صلاحه مقتضياً لرعاية ولديه وحفظ مالهما ، فظاهر اللفظ أنه أبوهما حقيقة ، وقيل هو الذي دفنه ، وقيل هو الأب السابع من عند الدافن له . قاله جعفر بن محمد وقيل العاشر وكان يسمى كاشحاً وكان من الأتقياء قاله مقاتل ، واسم أمهما دنيا . ذكره النقاش ، ففيه ما يدل على أن الله يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا . قال ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما .

وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله عز وجل يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرته ، وأهل دويرات حوله ، فما يزالون في حفظ الله تعالى ما دام فيهم »[1] . وعن ابن عباس نحوه وقال موضع حفظ الله في ستر من الله وعافية .

قال سعيد بن المسيب : إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي . وقد

---

(١) الترمذي تفسير سورة ١٨/ ٤٠ .

روي أن الله يحفظ الصالح في سبعة من ذريته ، وعلى هذا يدل قوله تعالى ﴿ان وليّيَ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ قاله القرطبي .

﴿فأراد ربك﴾ أي مالكك ومدبر أمرك ، وأضاف الرب الى ضمير موسى تشريفاً له ، وانما ذكر أولاً : فأردت لأنه إفساد في الظاهر وهو فعله ، وثانياً : فأردنا لأنه إفساد من حيث الفعل إنعام من حيث التبديل ، وثالثاً : فأراد ربك لأنه إنعام محض وغير مقدور للبشر .

قال الشوكاني في الفتح الرباني : علم أنه قد وجد في الخضر عليه السلام المقتضى للمجيء بنون العظمة لما تفضل الله به عليه من العطايا العظيمة والمواهب الجسيمة التي من جملتها العلم الذي فضله الله به حين أخبر موسى عليه السلام لما سأله هل في الأرض أعلم منه ؟ فقال عبدنا خضر كما هو ثابت في الصحيح ، كان هذا وجهاً صحيحاً ومسوغاً صحيحاً للمجيء بنون العظمة تارة وعدم المجيء بها أخرى ، فقال فأردت أن أعيبها ، وقال فأردنا ملاحظاً في أحد الموضعين لما يستحقه من التعظيم تحدثاً بنعمة الله سبحانه عليه وفي الموضع الآخر قاصداً للتواضع وانه فرد من أفراد البشر غير ناظر الى تلك المزايا التي اختصه الله بها سبحانه مع كون ذلك هو الصيغة التي هي الأصل في تكلم الفرد .

ومع هذا ففي تلوين العبارة نوع من الحسن آخر وهو الافتنان في الكلام فإنه أحسن تطرية لنشاط السامع وأكثر إيقاظاً له ، كما قيل في نكتة الالتفات ، ويمكن أن يقال إن خرق السفينة لما كان باعتبار تحصيل مسماه أمراً يسيراً فإنه يحصل بنزع لوح من ألواحها ، قال ﴿فأردت أن أعيبها﴾ ولما كان القتل مما تتعاظمه النفوس وتدخل فاعله الروعة العظيمة نزل منزلة ما لا يقدر عليه إلا جماعة . ويمكن أيضاً وجه ثالث وهو أن يقال لما كان خرق السفينة مما يمكن تداركه بأن يرد اللوح الذي نزعه كان ذلك وجهاً للإفراد لأنه يسير بالنسبة الى ما لا يمكن تداركه وهو القتل .

وأما قوله ﴿فأراد ربك﴾ فوجه نسبة الإرادة الى الرب سبحانه أن هذه الإرادة وقعت على قوله أن يبلغا أشدهما ، ومعلوم أن ذلك لا يكون من فعل البشر ولا بإرادته لأن بقاءهما في الحياة حتى يبلغا الأشد لا يدخل تحت طاقة البشر ولا يصح نسبته الى غير الرب عز وجل ؛ ولهذا يقول الخضر ﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾ هذا ما خطر بالبال عند الوقوف على هذه الآية ، ولم أقف على كلام لأحد من أهل التفسير فيما يتعلق بذلك أ هـ .

﴿أن يبلغا أشدهما﴾ أي كمالها وتمام نموهما ﴿ويستخرجا كنزهما﴾ من ذلك الموضع الذي عليه الجدار ، ولو انقض لخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلية ﴿رحمة من ربك﴾ لهما وهو مصدر في موضع الحال أي مرحومين من الله سبحانه .

﴿وما فعلته عن أمري﴾ أي عن اجتهادي ورأيي وهو تأكيد لما قبله فقد علم بقوله: فأراد ربك أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه لأن تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم وتغيير أحوالهم لا يكون إلا بالنص ، وليس في هذا دلالة على نبوة الخضر كما زعم الجمهور بل هو إلهام من الله سبحانه اليه .

﴿ذلك﴾ المذكور من تلك البيانات التي بينتها لك وأوضحت وجوهها ﴿تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ أي ما ضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه .ومعنى التأويل هنا هو المآل الذي آلت اليه تلك الأمور ، وهو اتضاح ما كان مشتبهاً على موسى وظهور وجهه ، وحذف التاء من تسطع تخفيفاً ، يقال اسطاع واستطاع بمعنى أطاق ، ففي هذا وما قبله جمع بين اللغتين .

وقد اختلف أهل العلم في نسب الخضر وفي كونه نبياً وفي طول عمره وبقاء حياته وكونه باقياً الى زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحياته بعده على أقوال كثيرة ، فقيل هو ابن آدم لصلبه وهو ضعيف منقطع . وقيل إنه ابن قابيل بن آدم وهو معضل ؛ وقيل إنه من سبط هرون أخي موسى وهو بعيد . وقيل إنه أرميا بن خلقيا ورده ابن جرير وقيل إنه ابن بنت فرعون ، وقيل ابن

فرعون لصلبه ، وقيل إنه اليسع ، وقيل إنه من ولد فارس . وقيل من ولد بعض من كان آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل ، وقيل كان أبوه فارسياً وأمه رومية ، وقيل بعكس ذلك .

ثم قيل كان اسمه عامراً ؛ وقيل بليا بن ملكان ، وقيل كلمان بدل ملكان ، وقيل معمر بن مالك وكنيته أبو العباس ، وهذا متفق عليه . قاله النووي .

واحتج من قال إنه نبي بقوله تعالى ﴿وما فعلته عن أمري﴾ لأن الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله والأصل عدم الواسطة .

قال الثعلبي : هو نبي في سائر الأقوال ، ثم قيل نبي غير مرسل ، وقيل أرسل الى قومه فاستجابوا له ونصره الرماني ثم ابن الجوزي ، وقيل كان ولياً واليه ذهب جماعة من الصوفية ، وبه قال علي بن أبي موسى من الحنابلة وابن الأنباري والقشيري ، وقيل إنه ملك من الملائكة .

قال ابن جرير في تاريخه : إنه كان في أيام فريدون الملك في قول عامة أهل الكتاب الأول ، وقيل كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان في زمن إبراهيم الخليل ، وقصته هذه ذكرها جماعة منهم خيثمة بن سليمان .

وأما تعميره فقال ابن عباس : نسيء للخضر في أجله حتى يكذب الدجال ، وقال أبو مخنف : أجمع أهل العلم بالأحاديث والجمع لها أنه أطول آدمي عمراً وشرب من عين الحياة ، وقال الحسن : وكل الخضر بالبحور وإلياس بالفيافي ، وإنهما يجتمعان في موسم كل عام ، وروى أبان مرفوعاً اليه صلى الله عليه وسلم اجتماعهما عند ردم يأجوج ومأجوج كل ليلة ، وفي سنده متروكان .

وقال النووي في التهذيب . قال الأكثرون من العلماء : هو حي موجود بين أظهرنا وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة وحكاياتهم

في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصى ، وأشهر من أن تذكر .

قال ابن الصلاح : هو حي عند جماهير العلماء والصلحاء والعامة منهم ، إنما شذ بإنكاره بعض المحدثين . وقال بعضهم : إن لكل زمان خضراً ، وهي دعوى لا دليل عليها ، وقال السهيلي : اسمه عاميل وإن أباه كان ملكاً ، وانه الرجل الذي يقتله الدجال ثم يحييه .

وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث : إنه مات قبل انقضاء مائة سنة من الهجرة ، ونصره أبو بكر العربي لقوله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر حياته لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة سنة ممن عليها اليوم[1] ؛ وله ألفاظ عند الشيخين وغيرهما عن جابر وابن عمر .

وأجاب من أثبت حياته بأنه كان حينئذ على وجه البحر ، وما أبرد هذا الجواب وأبعده عن الصواب .

وأما اجتماعه مع النبي صلى الله عليه وسلم وتعزيته لأهل البيت وهم مجتمعون لغسله صلى الله عليه وسلم فقال لهم عليّ : هو الخضر فقد ذكره ابن عبد البر في التمهيد ، وقيل اجتمع الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا جاز ذلك جاز لقاء الخضر ، رواه ابن أبي الدنيا عن أنس ، وتعقبه الحافظ أبو الخطاب بن دحية وقال : لم يصح من طرقه شيء ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء إلا مع موسى كما قصه الله من خبره ، وجميع ما ورد في حياته لا يصح منه شيء باتفاق أهل النقل .

وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه ، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شيخاً لا يعرفه فيقول له أنا فلان فيصدقه ، وحديث التعزية المتقدم موضوع وفيه ابن محرز متروك ، قال مسلم صاحب الصحيح فلما رأيته كانت بعرة

---

(١) مسلم ٢٥٣٧ ـ البخاري ١٠٠ .

أحب إليَّ منه ، وما روي عن أنس فموضوع أيضاً ، وقد نقل تكذيبه عن أحمد ويحيى وإسحاق وأبي زرعة ، وسياق المتن ظاهر النكارة وإنه من المجازفات .

وتمسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة واستند إلى ما وقع من ذكرها في صحيح البخاري وجامع الترمذي لكن لم يثبت ذلك مرفوعاً ، وأخرج الطبراني في المعجم الكبير حديثاً طويلاً عن أبي أمامة الباهلي مرفوعاً اليه صلى الله عليه وسلم في قصة الخضر يدل على كونه نبياً وسنده حسن لولا عنعنة بقية وهو ضعيف . وقد ذهب الى أن الخضر مات عليٌّ بن موسى الرضا والبخاري ، وانكر أن يكون باقياً للحديث المتقدم ، وهو عمدة من تمسك بأنه مات .

قال أبو حيان في تفسيره : الجمهور على أن الخضر مات ، وبه قال ابن أبي الفضل المرسي ، لأنه لو كان حياً لزمه المجيء الى النبي صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه ، وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي ؛ وبذلك جزم ابن المناوي وابراهيم الحربي وابو طاهر العبادي . وأخرج مسلم من حديث جابر قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بشهر : أقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة[1]، وله ألفاظ وطرق عند الترمذي وغيره .

وممن جزم أنه غير موجود الآن أبو يعلى الحنبلي وأبو الفضل بن ناصر والقاضي أبو بكر بن العربي وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزي ، واستدل على ذلك بأدلة منها ما تقدم ، ومنها قوله تعالى ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ .

قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق إن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه . أخرجه البخاري .

فلو كان الخضر موجوداً لجاء إليه ونصره بيده ولسانه وقاتل تحت رايته ،

---

(١) مسلم ٢٥٣٨ .

ولم يأت في خبر صحيح أنه جاء الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو قاتل معه .

قال أبو الحسين بن المناوي : بحثت عن تعمير الخضر وهل هو باق أم لا فإذا أكثر المغفلين مغترون بأنه باق من أجل ما روي في ذلك ، والأحاديث المرفوعة في ذلك واهية ، والسند الى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم ؛ وخبر مسلمة بن مصقلة كالخرافة ، وخبر رياح كالريح وما عدا ذلك من الأخبار كلها واهية الصدور والأعجاز لا يخلو حالها من أمرين ؛ إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالاً أو يكون بعضهم تعمد ذلك . وقد قال الله ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ .

وفي تفسير الأصفهاني عن الحسن أن الخضر مات ، وقد مر عنه أيضاً أنه حي ، وإذا تعارضا تساقطا ، واحتج ابن الجوزي أيضاً بما ثبت في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض[١] ، ولم يكن الخضر فيهم ، ولو كان يومئذ حياً لورد على هذا العموم ، فإنه كان ممن يعبد قطعاً .

وقد بسط الحافظ بن حجر العسقلاني القول في بيان أحوال الخضر وأخباره قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتي وردت أن الخضر وإلياس كانا في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم بعده الى الآن ، وما جاء في بقائه بعد النبي صلى الله عليه وسلم ومن نقل عنه أنه رآه وكلمه في أبواب مستقلة من كتابه الإصابة في معرفة الصحابة ، وتكلم على أسانيدها جرحاً وتعديلاً وغالبها لا يخلو عن علة أو ضعف أو انقطاع أو إعضال أو وضع أو نكارة أو شذوذ ، ولا يصلح شيء للاستدلال على حياة الخضر وبقائه الى الآن أو الى خروج الدجال .

---

(١) مسلم ١٧٦٣ ـ الإمام أحمد ١/٣٠ ولم اجده في البخاري .

والحق ما ذكرناه عن البخاري وأضرابه في ذلك ولا حجة في قول أحد كائناً من كان إلا الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يرد في ذلك نص مقطوع به ولا حديث مرفوع اليه صلى الله عليه وسلم حتى يعتمد عليه ويصار اليه ؛ وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد وطول التعمير لأحد من البشر ، وهما قاضيان على غيرهما ، ولا يقضي غيرهما عليهما .

ومن قال إنه نبي أو مرسل أو حي باق لم يأت بحجة نيرة ولا سلطان مبين ، واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، وقد تكلم الحافظ على هذا الباب في فتح الباري ايضاً فَمَنْ شاء الاطلاع على تفصيل ذلك فليرجع إليه وبالله التوفيق ، ومنه الفتح والإصابة . ولما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود وانتهى الكلام الى حيث انتهى شرع سبحانه في السؤال الثالث والجواب عنه ، فالمراد بالسائلين في قوله ﴿ويسألونك﴾ هم اليهود أي سؤال تعنت ﴿عن ذي القرنين﴾ واختلفوا فيه اختلافاً كثيرا ، فقيل هو الاسكندر بن فيلقوس الذي ملك الدنيا كلها بأسرها اليوناني باني الاسكندرية .

وقال ابن اسحاق : هو رجل من أهل مصر اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح ، وقيل هو ملك اسمه هرمس وقيل هردس ، وقيل شاب من الروم وقيل كان نبياً وقيل كان عبداً صالحاً وقيل اسمه عبدالله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبدالله من أولاد كهلان بن سبا .

وحكى القرطبي عن السهيلي أنه قال : إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان أحدهما كان على عهد ابراهيم عليه السلام ، والآخر كان قريباً من عيسى عليه السلام ، وقيل هو أبو كرب الحميري وقيل هو ملك من الملائكة ؛ ورجح الرازي القول الأول قال : لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة الى الغاية التي نطق بها التنزيل إنما هو اسكندر اليوناني كما يشهد به كتب التواريخ قال فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الاسكندر .

قال : وفيه إشكال لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس الحكيم وكان

على مذهبه فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب ارسطاطاليس حق وصدق، وذلك مما لا سبيل إليه.

قال النيسابوري : قلت ليس كل ما ذهب اليه الفلاسفة باطلاً فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر والله أعلم ، ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلي من أنهما اثنان كما قدمنا ذلك وبين أن الأول طاف بالبيت مع ابراهيم أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر ، وأما الثاني فهو الاسكندر المقدوني اليوناني وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس وكان قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل .

هذا معنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره راوياً له عن الأزرقي وغيره ثم قال : وقد ذكرنا طرفاً صالحاً في أخباره في كتاب (البداية والنهاية) بما فيه كفاية[1] ، وحكى أبو السعود في تفسيره عن ابن كثير أنه قال ؛ وإنما بيَّنا هذا يعني أنهما اثنان لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كثير وفساد كبير .

كيف لا والأول كان عبداً صالحاً مؤمناً وملكاً عادلاً ووزيره الخضر ، وقد قيل إنه كان نبياً ، وأما الثاني فقد كان كافراً ووزيره أرسطاطاليس الفيلسوف وكان بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة ، فأين هذا من ذاك انتهى .

قلت : لعله ذكر هذا في الكتاب الذي ذكره سابقاً وسماه بالبداية والنهاية ولم نقف عليه والذي يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان كما ذكره السهيلي والأزرقي وابن كثير وغيرهم لا كما ذكر الرازي وادعى أنه الذي تشهد به كتب التواريخ وقد وقع الخلاف هل هو نبي أم لا؟وسيأتي ما يستفاد منه المطلوب .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب الرد على المنطقيين : المشهور

(١) ابن كثير ٣/١٠٠ .

المتواتر أن أرسطو وزير الاسكندر بن فيلبس كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة وكثير من الجهال يحسب أن هذا هو ذو القرنين المذكور في القرآن ويعظم ارسطو بكونه كان وزيراً له كما ذكر ذلك ابن سينا وأمثاله من الجهال بأخبار الأمم ، وهذا من جهلهم فإن الاسكندر الذي وزر له أرسطو هو المقدوني الذي يؤرخ له تاريخ الروم المعروف عند اليهود والنصارى وهو إنما ذهب الى أرض القدس لم يصل الى السد عند من يعرف أخباره، وكان مشركاً يعبد الأصنام ، وكذلك ارسطو وقومه كانوا مشركين يعبدون الأصنام وذو القرنين كان موحداً مؤمناً بالله وكان متقدماً على هذا ؛ ومن يسميه الإسكندر ويقول هو الإسكندر بن فيلبس .

ولهذا كان هؤلاء المتفلسفة إنما راجوا على أبعد الناس عن العقل والدين كالقرامطة والباطنية الذين ركبوا مذهبهم من فلسفة اليونان ودين المجوس وأظهروا الرفض ، وكجهال المتصوفة وأهل الكلام ، وإنما ينفقون[1] في دولة جاهلية بعيدة عن العلم والإيمان إما كفاراً وإما منافقين كما نفق منهم من نفق على المنافقين الملاحدة ثم نفق على المشركين الترك ، وكذلك إنما ينفقون دائماً على أعداء الله ورسوله من الكفار والمنافقين انتهى .

وأما السبب الذي لأجله سمي ذا القرنين فقال الزجاج والأزهري : إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها وقرن الشمس من مغربها ، وقيل إنه كان له ضفيرتان من شعر والضفائر تسمى قروناً ، وقيل إنه رأى في أول ملكه كأنه قابض على قرني الشمس فسمي بذلك ، وقيل كان له قرنان تحت عمامته ، وقيل : إنه دعا الى الله فشجه قومه على قرنه ثم دعا الى الله فشجوه على قرنه الآخر وقيل إنما سمي بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قِبل أبيه وأمه وقيل :لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي ، وقيل

(١) أي يروجون .

لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركائبه جميعاً ، وقيل لأنه أعطى علم الظاهر والباطن .

وقيل لأنه دخل النور والظلمة ، وقيل لأنه ملك فارس والروم ، وقيل لأنه ملك الروم والترك ، وقيل :لأنه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب ، وهذا هو القدر المعمور من الأرض،وقيل لأنه كان لتاجه قرنان .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أدري أتُبَّع كان نبياً أم لا؟ وما ادري أذو القرنين كان نبياً أم لا؟ وما ادري الحدود كفارات لأهلها أم لا[1] ؟ أخرجه عبدالرزاق وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن عليّ بن أبي طالب قال ؛ لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان عبداً صالحاً أحب الله فأحبه الله ، ونصح لله فنصحه الله ، بعثه الله إلى قوم فضربوه على قرنه فمات ثم أحياه الله لجهادهم ، ثم بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات فأحياه الله لجهادهم فلذلك سمي ذا القرنين وإن فيكم مثله .

وعن ابن عمر قال ؛ ذو القرنين نبي ، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : هو ملك يسيح الأرض بالأسباب ، أخرجه ابن أبي حاتم عن الأحوص بن حكيم عن أبيه وعن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلاً ينادي بمنى ياذا القرنين فقال ها أنتم قد سميتم بأسماء الأنبياء فما بالكم وأسماء الملائكة ، وفي الباب غير ما ذكرناه مما يغني عنه ما قد أوردناه .

وقد أخرج أبو الشيخ والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني حديثاً يتضمن أن نفراً من اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذي القرنين فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء وكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً من الروم وأنه بنى الاسكندرية وأنه علا به ملك الى السماء وذهب به إلى السد ، وإسناده

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/ ٤٥٠ .

ضعيف وفي متنه نكارة ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني اسرائيل ، ذكر معنى هذا ابن كثير في تفسيره وعزاه الى ابن جرير والأموي في مغازيه : ثم قال بعد ذلك والعجب أن أبا زرعة الرازي مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة انتهى[1] .

وقد ساقه بتمامه السيوطي في الدر المنثور وساق أيضاً خبراً طويلا عن وهب بن منبه وعزاه الى ابن اسحاق وابن المنذر وغيرهم ، وفيه أشياء منكرة جداً وكذلك ذكر خبراً طويلاً عن محمد الباقر أخرجه أبو الشيخ وغيره ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه الينا .

واختلفوا أيضاً في وقته فقال قوم : كان بعد موسى ، وقال قوم : كان في الفترة بعد عيسى ، وقال قوم : كان في وقت ابراهيم واسماعيل ، وقد حققنا ذلك في لقطة العجلان فراجعه .

وبالجملة فإن الله مكنه وملكه ودانت له الملوك ، وروي أن الذين ملكوا الدنيا كلها أربعة مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود والاسكندر ، والكافران نمروذ وبختنصر ، وسيملكها من هذه الأمة خامس لقوله تعالى ﴿ليظهره على الدين كله﴾ وهو المهدي ذكره القرطبي .

وعن السدي قال ؛ قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك إنما تذكر إبراهيم وموس وعيسى والنبيين إنك سمعت ذكرهم منا فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد ، قال ومن هو؟ قالوا ذو القرنين قال : ما بلغني عنه شيء فخرجوا فرحين قد غلبوا في أنفسهم ، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهذه الآيات ويسألونك عن ذي القرنين .

﴿قل سأتلو عليكم﴾ أيها السائلون ﴿منه﴾ أي من ذي القرنين ﴿ذكراً﴾ خبراً وذلك بطريق الوحي المتلو .

---

(١) ابن كثير ٣/١٠٠ .

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

ثم شرع سبحانه في بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه ذكرا فقال ﴿إنا مكنا له في الأرض﴾ أي أقدرناه بما مهدنا له من الأسباب فجعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فيها وسهل عليه المسير في مواضعها وذلّل له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء ، ومن جملة تمكينه فيها أن جعل الله الليل والنهار عليه سواء في الإضاءة ﴿وآتيناه من كل شيء﴾ مما يتعلق بمطلوبه أو مما يحتاج إليه الخلق ﴿سبباً﴾ أي طريقاً يتوصل بها إلى ما يريده كآلات السير وكثرة الجند واستقصاء بقاع الأرض والوصول الى عين الحياة ، وقال ابن عباس : سبباً أي علماً وقال أيضا: بلاغاً الى حيث أراد .

قال المفسرون : والمعنى طريقاً تؤديه إلى مغرب الشمس قاله الزجاج : وقيل من كل شيء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به الى شيء .

﴿فأتبع سبباً﴾ سلك طريقاً نحو المغرب ، قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى مثل ردفته وأردفته ومنه قوله تعالى ﴿فأتبعه شهاب﴾ وحكى الأصمعي أنه يقال تبعته واتبعته إذا سار ولم يلحقه واتبعه إذا لحقه .

قال ابو عبيدة : ومثله ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ قال النحـاس وهذا من الفرق وان كان الأصمعي قد حكاه فلا يقبل إلا بعلم أو دليل ، وقوله عز وجل ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ ليس في الحديث أنهم لحقوهم ، وإنما في الحديث لما خرج موسى وأصحـابـه من البحر وحصل فرعون وأصحابه في البحر انطبق عليهم البحر.

والحق في هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات ، بمعنى واحد وهو بمعنى السير ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ أي نهاية الأرض من جهة المغرب وآخـر العمارة منها لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط وهو لا يمكن المضي فيه فلما لم يبق قدامه شط بل مياه لا آخر لها ﴿وجدها﴾ أي رأى الشمس ﴿تغرب في عين حمئة﴾ أي كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء يقال حمأت البئر حَمْأً بالتسكين إذا نزعت حمأتها وحمأت البئر حمأً بالتحريك كثرت حمأتها وقرىء حامية من الحمأة أي حارة وقد يجمع بين القراءتين فيقال كانت حارة وذات حمئة .

قال كعب : أما أنا فاني أجد في التوراة تغرب الشمس في ماء وطين ، وأشار بيده إلى المغرب وأنشد ابن أبي حاصر :

فرأى مغيب الشمس عند غروبها   في عين ذي خلب وثاط حرمد

فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قال الطين بكلامهم ، قال فما الثاط ؟ قال الحمئة ، قال فما الحرمد ؟ قال الأسود ، فدعا ابن عباس غلاماً فقال اكتب ما يقول هذا الرجل .

قيل ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك في نظره إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء . ولذلك قال ﴿وجدها تغرب﴾ ولم يقل كانت تغرب ، قاله البيضاوي ، يعني على العادة من أن الشخص إذا كان في البحر

يرى الشمس كأنها تغرب فيه ، قيل وتسمية البحر المحيط عيناً لا محذور فيه ، خصوصا وهو بالنسبة الى ما هو أعظم منه في علم الله .

وفي القرطبي قال بعض العلماء : ليس المراد أنه انتهى الى الشمس مغرباً ومشرقاً حتى وصل الى جرمها ومسها لأنها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلصق بالأرض ، وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض لأنها أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ، بل المراد أنه انتهى الى آخر العمارة من جهتي المغرب والمشرق فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة ، كما انا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض ؛ ولهذا قال ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم ، بل أراد أنهم أول من تطلع عليه .

وقال القتيبي : ويجوز أن تكون هذه العين من البحر وتكون الشمس تغيب وراءها أو عندها أو معها فيقام حرف الصفة مقام صاحبه والله أعلم . أ هـ .

أقول ولا يبعد أن يقال لا مانع من أن يمكنه الله من عبور البحر حتى يصل إلى تلك العين التي تغرب فيها الشمس ، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مشرق الشمس ومكن له في الأرض والبحر من جملتها ، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره .

قال الكرخي : فالله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين وكرة الأرض بحيث تسع عين الماء عين الشمس ، فلِمَ لا يجوز ذلك وإن كنا لا نعلم به لقصور عقولنا عن الإحاطة بذلك ، وأيضاً الأنبياء والحكماء لا يبعد أن يقع منهم مثل ذلك . ألا ترى الى ظن موسى فيما أنكره على الخضر . أ هـ .

﴿ووجد عندها﴾ أي عند العين أو الشمس ﴿قوماً﴾ قيل هم قوم عراة

لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما لفظ البحر ، وكانوا كفاراً ، قاله البيضاوي . ومن المعلوم أن الكفر إنما يتحقق بعد بعثة رسول وعدم إيمانهم به ، ولينظر أي رسول أرسل الى هؤلاء حتى كفروا به .

هذا والأظهر أنهم كانوا أهل فترة لم يرسل إليهم أحد ، ولما جاءهم ذو القرنين دعاهم الى ملة ابراهيم ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ؛ فخيره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم فقال :

﴿قلنا ياذا القرنين﴾ يستدل بها من يزعم أنه كان نبياً فإن الله خاطبه بالوحي ومن قال إنه لم يكن نبياً أوّله بالإلهام ، ويحتمل أن يكون الخطاب على لسان نبي غيره ﴿إما أن تعذب﴾ إياهم بالقتل من أول الأمر ﴿وإما أن تتخذ فيهم حُسناً﴾ أي أمراً ذا حسن أو أمراً حسناً مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر ، والمراد دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع ،قيل: وإما للتقسيم دون التخيير ، أي ليكن شأنك معهم إما التعذيب وإما الاحسان ، فالأول لمن أصرّ على الكفر والثاني لمن تاب منه والأول أولى .

﴿قال﴾ ذو القرنين مختاراً للدعوة التي هي الشق الأخير من الترديد ﴿أما من ظلم﴾ نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتي ﴿فسوف نعذبه﴾ بالقتل في الدنيا ﴿ثم يرد إلى ربه﴾ في الآخرة ﴿فيعذبه﴾ فيها ﴿عذاباً نكراً﴾ أي منكراً فظيعاً شديداً بالنار لأنها أنكر من القتل، قال الزجاج : خيره الله بين الأمرين .

قال النحاس : وَرُدَّ على ابن سليمان قوله لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبي فيخاطب بهذا فكيف يقول لربه عز وجل ﴿ثم يرد الى ربه﴾ وكيف يقول فسوف نعذبه فيخاطبه بالنون ، قال والتقدير قلنا يامحمد قالوا ياذا القرنين ، قال النحاس : وهذا الذي ذكره لا يلزم لجواز أن يكون الله عز وجل خاطبه

على لسان نبي في وقته ، وكان ذو القرنين خاطب أولئـك القوم ، فلا يلزم ما ذكره ، ويمكن أن يكون مخاطباً للنبي الذي خاطبه الله على لسانه أو خاطب قومه الذي وصل بهم الى ذلك الموضع .

﴿وأما من آمن﴾ بالله وصدق دعوتي ﴿وعمل﴾ عملاً ﴿صالحاً﴾ مما يقتضيه الإيمان ﴿فله جزاء الحسنى﴾ بنصب جزاء وتنوينه، قال الفراء : نصبه على التمييز وقال الزجاج : هو مصدر في موضع الحال ، أي مجزياً بها جزاء ، وقرىء بالإضافة أي جزاء الخصلة الحسنى عند الله أو الفعلة الحسنى وهي الجنة ، قاله الفراء .وقيل: إضافة الجزاء الى الحسنى التي هي الجنة كإضافة حق اليقين ودار الآخرة ، ويجوز ان يكون هذا الجزاء من ذي القرنين أي أعطيه وأتفضل عليه .

﴿وسنقول له﴾ أي لمن آمن ﴿من أمرنا يسراً﴾ أي مما نأمر به قولاً ذا يسر ليس بالصعب الشاق أو أطلق عليه المصدر مبالغة ﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي سلك طريقاً آخر غير الطريق الأولى ، وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها الى المشرق واستمر فيه لا يمل ولا تغلبه أمة مرَّ عليها .

﴿حتى إذا بلغ﴾ في مسيره ذلك ﴿مطلع الشمس﴾ أي الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولا من معمور الأرض،أو مكان طلوعها لعدم المانع شرعاً ولا عقلاً من وصوله اليه كما أوضحناه فيما سبق ، قيل بلغه في اثنتي عشرة سنة ، وقيل في أقل من ذلك بناء على أنه سخر له السحاب وطويت له الأسباب .

﴿وجدها تطلع على قوم﴾قيل: هم الزنج وقيل:هم من نسل مؤمني قوم هود واسم مدينتهم حاحيالق واسمها بالسريانية مرقسا ، وهم مجاورون يأجوج ومأجوج ﴿لم نجعل لهم من دونها﴾ أي الشمس ﴿ستراً﴾ يسترهم لا من

البيوت والسقوف ولا من اللباس بل هم حفاة عراة لا يأوون الى شيء من العمارة ، قيل لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقر عليها البناء .

قال كعب : أرضهم لا تمسك الأبنية لرخاوتها وبها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوها فـإذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم . قال الزمخشري وعن بعضهم قال : خرجت حتى جاوزت الصين ، فسألت عن هؤلاء القوم فقيل لي بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم واذا أحدهم يفرش إحدى أذنيه ويلتحف الأخرى ، فلما قرب طلوع الشمس سمعت صوتاً كهيئة الصلصلة فغشي عليَّ ثم أفقت فلما طلعت الشمس فإذا هي فوق الماء كهيئة الزيت ، فأدخلوني سرباً لهم فلما طلع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم .

وقال مجاهد : من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض ، وفي كتب الهيئة إن أكثر حال الزنج كذلك ، وكذا حال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستواء .

﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ أي كذلك أمر ذي القرنين ، اتبع هذه الأسباب حتى بلغ ، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به أو من الآلات والجند وغيرهما .

وقيل المعنى لم نجعل لهم ستراً مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الأبنية والثياب ، وقيل المعنى وكذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها وقيل المعنى كذلك يطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم ، فقضى في هؤلاء مثل ما قضى في أولئك من تعذيب الظالمين والإحسـان الى المؤمنين وهو الأصح ويكون تأويل الإحاطة بما لديه في هذه على ما يناسب ذلك كما قلنا في الوجه الأول، ثم حكى سبحانه سفر ذي القرنين الى ناحية أخرى وهي ناحية القطر الشمالي بعد تهيئة أسبابه فقال :

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب واستمر آخذاً فيه ﴿حتى إذا بلغ﴾ في مسيره ذلك ﴿بين السدين﴾ بفتح السين وقرىء بضمها وهما سبعيتان .

وقال أبو عبيدة وابن الأنباري وأبو عمروبن العلاء : السد إن كان بخلق الله تعالى فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول أي هو مما فعله الله وخلقه ، وإن كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثاً .

وقال ابن الأعرابي : كل ما قابلك فَسَدَّ ما وراءه فهو سد ، وسد نحو الضعف والضعف والفقر والفقر ، والسدان هما جبلان من قِبل أرمينية وأذربيجان. قاله ابن عباس . وقيل موضع بين السدين هو منقطع أرض الترك مما يلي المشرق ، وقيل هما جبلان عاليان جداً أملسان لا يستطاع الصعود عليهما كالسد الآتي ، ويسمى كل واحد منهما سداً لأنه سد فجاج الأرض .

وفي الشهاب إطلاق السد على الجبل لأنه سد في الجملة، وفي القاموس السد الجبل والحاجز أو لكونه ملاصقاً للسد فهو مجاز بعلاقة المجاورة .

وحكى ابن جرير في تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنساناً

من ناحية الجزر فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع .

وحكى أن الواثق بعث بعض من يثق به إليه ليعاينوه فخرجوا من باب من الأبواب حتى وصلوا اليه وشاهدوه فوصفوا أنه بناء من لبن حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل ، وقيل جبلان في أواخر الشمال .

قال الرازي : والأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال سد الإسكندر ما بينهما ، أي الفتحة وطولها مائة فرسخ ، وليس ليأجوج ومأجوج طريق يخرجون منها الى أرض العمارة إلا هذه الفتحة ومسكنهم وراء هذين الجبلين ، وأرضهم متسعة جداً تنتهي الى البحر المحيط .

﴿وجد من دونهما﴾ أي من ورائهما مجاوزاً عنهما ، وقيل أمامهما أي خارجة عنهما لا داخلة بناحية يأجوج ومأجوج . وقال الخطيب بقربهما من الجانب الذي هو أدنى منهما الى الجهة التي أتى منها ذو القرنين ﴿قوماً﴾ أي أمة من الناس لغتهم في غاية البعد من لغات بقية الناس لبعد بلادهم من بقية البلاد ، فلذا ﴿لايكادون﴾ أي لا يقربون ﴿يفقهون﴾ أي يفهمون ﴿قولاً﴾ ممن مع ذي القرنين فهماً جيداً كما يفهم غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم .

وقرىء بضم الياء وكسر القاف من أفقه اذا أبان ، أي لا يبينون لغيرهم كلاماً ، وقرىء بفتح الياء والقاف أي لا يفهمون كلام غيرهم ، والقراءتان صحيحتان ومعناهما لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم ولسانهم غريب مجهول لشدة عجمتهم فكلامهم مغلق قال ابن جريج هم الترك .

﴿قالوا﴾ أي هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولاً ﴿ياذا القرنين﴾ وهو الإسكندرالأكبر ، قيل إن فهمه لكلامهم من جملة الأسباب التي أعطاه الله ، وقيل إنهم قالوا ذلك لترجمانهم ؛ فقال لذي القرنين بما قالوا له ، وذلك لأنهم

من أولاد يافث بن نوح وذو القرنين من أولاد سام فلا يفهم لغتهم .

﴿إن يأجوج ومأجوج﴾ اسمان عجميان لا اشتقاق لهما بدليل منع صرفهما للعلمية والعجمة ، وبه قال الأكثر ، وقيل عربيان مشتقان من أج الظليم في مشبه اذا هرول ، وتأججت النار إذا تلهبت ، وقرأهما الجمهور بغير همز ، وقرأ عاصم بالهمز .

قال ابن الأنباري : وجه همزهما وإن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حروفاً لا يعرف الهمز فيها أصل ، كقولهم كَبْأَتَ وَرَثْأْتَ وَاسْتَشْأَتَ الريح ، ويحتمل أن تكون الهمزة أصلاً والألف بدلاً عنها أو بالعكس ، لأن العرب تتلاعب بالأسماء العجمية ، قال أبو علي : يجوز أن يكونا عربيين ، فمن همز فهو على وزن يفعول ، مثل يربوع ، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفاً مثل رأس .

وأما مأجوج فهو مفعول من أج والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق ، قال وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة . وقيل: اشتقاقهما من الأَوْجَة وهي الاختلاط أو شدة الحر ، وقيل من الأوج وهو سرعة العدو ، واختلف في نسبهم ، فقيل: هم من ولد يافث بن نوح والترك منهم ، وقيل يأجوج ومأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم .

وقال كعب الأحبار: احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء قال القرطبي : وهذا فيه نظر لأن الأنبياء لا يحتلمون ، وانما هم من ولد يافث ، كذلك قال مقاتل وغيره . وقد وقع الخلاف في صفتهم ، فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة ، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة ، ومنهم من يكون لهم مخالب كمخالب السباع ، وإن منهم صنفاً يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ، ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة في صفاتهم وأفعالهم .

قال ابن عباس : يأجوج ومأجوج شبر وشبران وأطولهم ثلاثة أشبار وهم من ولد آدم وفيه بعد ،وعن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاث أمم تاويل وتاريس ومنسك ، أخرجه الطبراني وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي وغيرهم قيل هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء ومسافة الأرض بتمامها خمسمائة عام ثلثمائة بحار ومائة وتسعون مسكن لهم بقي عشرة سبعة للحبشة وثلاثة لجملة الخلق غيرهم وهم كفار دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى الايمان ليلة الإسراء فلم يجيبوا والله أعلم .

﴿مفسدون في الأرض﴾ بالنهب والبغي عند خروجهم ، وقيل سيفسدون بعد خروجهم إلينا ، واختلف في إفسادهم في الأرض فقيل هو أكل بني آدم ، وقيل هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد ، وقيل كانوا يخرجون الى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم الى ذي القرنين في أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا حملوه وأدخلوه أرضهم .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض يحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستفتحونه غداً فيعودون اليه أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستفتحونه إن شاء الله تعالى ويستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء قسراً وعلواً فيبعث الله عليهم نغفا في أقفائهم فيهلكون ، قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم فوالذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكراً من لحومهم[١] .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلّق ، قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم اذا كثر الخبث[٢] ، وأخرجا نحوه من حديث أبي هريرة مرفوعاً وقد ذكرنا تفصيل حالهم في حجج الكرامة فراجعه ﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾ هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذي القرنين وقرىء خراجاً .

قال الأزهري : الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفيء ويقع على الجزية وعلى الغلة ، والخراج أيضاً اسم لما يخرج من الفوائض في الأموال والخرج المصدر ، وقال قطرب : الخرج الجزية والخراج في الأرض وقيل : الخرج ما يخرجه كل أحد من ماله والخراج ما يجبيه السلطان ، وقيل : هما بمعنى واحد قال ابن عباس خرجاً أي أجراً عظيماً وجعلاً من الأموال .

﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ أي ردماً حاجزاً بيننا وبينهم فلا يصلون إلينا، قال الخليل وسيبويه : الضم[٣] هو الاسم والفتح المصدر ، وقال الكسائي : الضم والفتح لغتان بمعنى واحد وقد سبق قريباً ما حكيناه عن أبي عمرو بن العلاء وأبي عبيدة وابن الأنباري من الفرق بينهما .

وقال ابن أبي اسحاق : ما رأته عيناك فهو سُد بالضم وما لا ترى فهو سد بالفتح وقد قدمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم في السدين .

﴿قال﴾ لهم ذو القرنين ﴿ما مكني فيه ربي﴾ أي ما بسطه الله لي من

(١) الترمذي ٢/١٩٧ ـ الحاكم ٤/٤٨٨ ـ الإمام أحمد ٢/٥١٠ .

(٢) مسلم ٢٨٨٠ ـ البخاري ١٥٨٢ .

(٣) الضم: أي ضم السين في «سدّا» ومثله الفتح.

المال والقدرة والملك وفي قراءة سبعية بنونين من غير ادغام ﴿خير﴾ من خرجكم الذي تجعلونه لي فلا حاجة لي اليه وأجعل لكم السد تبرعاً ثم طلب منهم المعاونة له فقال ﴿فأعينوني بقوة﴾ أي برجال منكم يعملون بأيديهم أو أعينوني بآلات البناء او بمجموعهما .

قال الزجاج : بعمل تعملونه معي ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ حاجزاً حصيناً وهذا جواب الأمر ، والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل .

قال الهروي : يقال ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردماً أي سددتها والردم أيضا الاسم وهو السد ،وقيل :الردم أبلغ من السداد، السد كل ما يسد به والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ومنه ردم ثوبه إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض ، قال ابن عباس : الردم هو أشد الحجاب .

﴿آتوني﴾ أي أعطوني وناولوني ﴿زبر الحديد﴾ جمع زبرة كغرفة وغرف وهي القطعة ، قال الخليل : الزبرة من الحديد القطعة الضخمة ، قال الفراء : معناه آتوني بها على قدر الحجارة التي يبنى فيها فبنى بها وجعل بينها الحطب والفحم ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ بفتح الحرفين وضمهما وضم الأول وسكون الثاني ، والثاني اشهر اللغات وقرىء بفتح الصاد وضم الدال .

وقال الأزهري : يقال لجانبي الجبل صدفان اذا تحاذيا لتصادفهما أي تلاقيهما وكذا قال أبو عبيدة والهروي وقد يقال لكل بناء عظيم مرتفع صدف قاله أبو عبيدة ؛ وفي البيضاوي الصدفين من الصدف وهو الميل لأن كلا منهما منعزل عن الآخر ومنه التصادف للتقابل وقال ابن عباس : الصدفين الجبلين ، وقال مجاهد : رؤوس الجبلين ، ومعنى الآية أنهم أعطوه زبر الحديد فجعل يبني بها بين الجبلين حتى ساواهما .

ثم ﴿قال﴾ للعملة ﴿انفخوا﴾ على هذه الزُّبَر بالكيران ﴿حتى إذا

جعله﴾ أي جعل ذلك المنفوخ فيه وهو الزُّبَر ﴿ ناراً﴾ أي كالنار في حرها وإسناد الجعل إلى ذي القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ قيل :كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى يحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة وهو معنى قوله :

﴿قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾ قال أهل اللغة هو النحاس الذائب وبه قال ابن عباس : والإفراغ الصب وكذا قال أكثر المفسرين ، وقالت طائفة : القطر الحديد المذاب ، وقالت طائفة أخرى منهم ابن الأنباري : هو الرصاص المذاب فدخل القطر بين زُبَره فصار شيئاً واحداً قيل :وهذا السد معجزة عظيمة ظاهرة لأن الزُّبْرَة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر أحد على القرب منها والنفخ عليها لا يمكن إلا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين حتى تمكنوا من العمل فيه .

﴿فما اسطاعوا﴾ أصلها فما استطاعوا ، قال ابن السكيت : يقال ما أستطيع وما أسطيع وما أستيع وبالتخفيف قرأ الجمهور وقرأ حمزة وحده فما اسطاعوا بتشديد الطاء وهي قراءة ضعيفة الوجه .

قال أبو علي الفارسي : هي غير جائزة وقرىء على الأصل ﴿أن يظهروه﴾ أي يعلوه قاله ابن جريج ، وقال قتادة : أن يرتقوه فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته فكان ارتفاعه مائتي ذراع ولملاسته لا يثبت عليه قدم ولا غيره .

﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ يقال نقبت الحائط إذا خرقت فيه خرقاً فخلص ما وراءه ، قال الزجاج : ما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدته وصلابته وسمكه وثخنه أي عرضه قيل: إن عرضه خمسون ذراعاً وطوله فرسخ وسعة الفتحة التي بين الجبلين مائة فرسخ .

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾

﴿قال﴾ ذو القرنين مشيراً الى السد ﴿هذا﴾ السد أي الإقدار عليه ﴿رحمة من ربي﴾ أي أثر من آثار رحمته لهؤلاء المجاورين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم ولو لم يكن ذلك السد فهو نعمة لأنه مانع من خروجهم ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي أجله أن يخرجوا منه وقيل هو مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة ﴿جعله﴾ الظاهر أن الجعل هنا بمعنى التصيير وعند ابن عطية بمعنى خلق وفيه بعد لأنه إذ ذاك موجود ﴿دكاء﴾ أي مستوياً بالأرض ومنه ﴿كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾ قاله الترمذي : اي مستوياً يقال ناقة دكاء إذا ذهب سنامها .

وقال القتيبي : أي جعله مدكوكاً مبسوطاً ملصقاً بالأرض وقيل مساوياً للأرض فيغور فيها أو يذوب حتى يصير تراباً ، وقال الحليمي قطعاً منكسرة ومن قرأ دكاء بالمد أراد التشبه بالناقة الدكاء وهي التي لا سنام لها أي مثل دكاء لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء وقرأ الباقون دكاً بالتنوين على أنه مصدر ومعناه ما تقدم ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الحال أي مدكوكاً ، قال قتادة لا أدري آلجبلين يعني به أم بينهما؟

﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي بخروجهم أو وعده بالثواب والعقاب أو

الوعد المعهود حقاً ثابتاً لا يتخلف ، وهذا آخر قول ذي القرنين .

ثم قال الله تعالى ﴿وتركنا بعضهم﴾ أي بعض يأجوج ومأجوج ﴿يومئذ يموج في بعض﴾ أي جعلنا وصيَّرنا بعضهم يوم مجيء الوعد أو يوم خروج يأجوج ومأجوج يختلط ويموج في بعض آخر منهم ، يقال ماج الناس إذا دخل بعضهم في بعض حيارى كموج الماء ، والمعنى أنهم يضطربون ويختلطون من شدة الازدحام عند خروجهم عقب موت الدجال فينحاز عيسى بالمؤمنين الى جبل الطور فراراً منهم ، ثم يسلط الله عليهم دوداً في أنوفهم فيموتون به ولا يدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس ولا يصلون الى من تحصن منهم بورد أو ذكر وتمام قصتهم في كتابنا حجج الكرامة .

وقيل الضمير في بعضهم للخلق واليوم يوم القيامة أي وجعلنا بعض الخلق من الجن والأنس يموج في بعض ، وقيل المعنى وتركنا يأجوج ومأجوج يوم كمال السد وتمام عمارته بعضهم يموج في بعض .

﴿ونفخ في الصور﴾ أي القرن للبعث وقد تقدم تفسيره وفيه دليل على أن خروجهم من علامات قرب الساعة ، قيل هي النفخة الثانية بدليل قوله بعد ﴿فجمعناهم جمعاً﴾ فإن الفاء تشعر بذلك ولم يذكر النفخة الأولى لأن المقصود هنا ذكر أحوال القيامة والمعنى جمعنا الخلائق بعد تلاشي أبدانهم ومصيرها تراباً جمعاً تاماً على أكمل صفة وأبدع هيئة وأعجب أسلوب في صعيد واحد .

﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ المراد بالعرض هنا الإظهار أي أظهرنا جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم ، وفي ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة .

ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله ﴿الذين كانت أعينهم﴾ في الدنيا أي أعين قلوبهم أي بصائرهم ﴿في غطاء﴾ أي غشاء وستر وهو ما غطى الشيء وستره من جميع الجوانب ﴿عن﴾ سبب ﴿ذكري﴾ وهي الآيات التي

يشاهدها من له تفكر واعتبار فيذكر الله بالتوحيد والتمجيد فأطلق المسبب على السبب أو عن القرآن العظيم وتأمل معانيه وتدبر فوائده فهم عمي لا يهتدون به .

ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما أراد أن يصفهم بالصم عن استماع الحق فقال: ﴿وكانوا لا يستطيعون﴾ أي لا يعقلون ﴿سمعاً﴾ قاله مجاهد ، وقيل: لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم لغلبة الشقاوة عليهم ولشدة عداوتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا أبلغ مما لو قال : وكانوا صماً لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية، وفي ذكر غطاء الأعين وعدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار وإعراضهم عن الأدلة السمعية .

﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ الحسبان هنا بمعنى الظن والاستفهام للتقريع والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، والمعنى أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردهم عن قبول الحق ، وعن عليّ أنه قرأ أَفَحَسْبُ بجزم السين وضم الباء .

وعن عكرمة أنه قرأ كذلك ومعناه أَكَافِئُهُم وَمُحْسِبُهُم أن يتخذوا عيسى وعزيراً والملائكة أرباباً من دونه تعالى بل هم لهم أعداء يتبرأون منهم ، وقيل يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله .

والمعنى أظنوا أن الاتخاذ المذكور لا يغضبني ولا أعاقبهم عليه ، قال الزجاج : المعنى أيحسبون أن ينفعهم ذلك يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا كلا ﴿إنا اعتدنا﴾ هيأنا ﴿جهنم للكافرين نزلاً﴾ يتمتعون به عند ورودهم قال الزجاج : النزل المأوى والمنزل ، وفي القاموس ما يقتضي أن كل منزل يقال له نُزُل، ففي تقييد النزل بمكان الضيف نظر كما قال بعضهم إنه الذي يعد للضيف ؛ وعلى هذا فيكون تهكماً بهم كقوله ﴿فبشرهم

بعذاب أليم﴾ والمعنى أن جهنم معدة لهم عندنا كما يعد المنزل للضيف .

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ جمع أخسر أي أشد خسراناً من غيرهم أو بمعنى خاسر، وجمع العمل للدلالة على إرادة الأنواع منه ، عن مصعب بن سعد قال : سألت أبي أَهُمُ الحرورية؟ قَال: لا، هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وكان سعد يسميهم الفاسقين ، وعنه قال : لا ولكنهم أصحاب الصوامع، والحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم .

وعن عليّ قال : إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري، وعنه قال هم فجرة قريش، وعنه قال: لا أظن إلا أن الخوارج منهم ﴿الذين ضل﴾ أي بطل وضاع ﴿سعيهم﴾ كالعتق والوقف وإغاثة الملهوف لأن الكفر لا تنفع معه طاعة ﴿في الحياة الدنيا وهم يحسبون﴾ أي والحال أنهم يظنون ﴿أنهم يحسنون صنعاً﴾ عملاً يجازون عليه وأنهم منتفعون بآثاره .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم﴾ مستأنفة مسوقة لبيان تكميل الخسران وسببه ، وهذا أولى الوجوه ومعنى كفرهم بالآيات كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية ﴿ولقائه﴾ أي كفروا بالبعث والحساب والثواب والعقاب وما بعده من أمور الآخرة ثم رتب على ذلك قوله ﴿فحبطت أعمالهم﴾ التي عملوها مما يظنونه حسناً وهو خسران وضلال ثم حكم عليهم بقوله ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ أي لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم بل نزدريهم ونستذلهم .

وقيل لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين وهؤلاء لا حسنات لهم .

قال ابن الأعرابي : العرب تقول ما لفلان عندنا وزن أي قدر لخسته ويوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته وسرعة طيشه وقلة تثبته ، والمعنى على هذا أنهم لا يعتد بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة .

وقرأ مجاهد يقيم أي فلا يقيم الله وقرأ الباقون بالنون وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنه ليأتي

الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال اقرأوا إن شئتم: فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً[١] .

ثم بيَّن سبحانه عاقبة هؤلاء ومايؤول إليه أمرهم فقال ﴿ذلك﴾ أي الذي ذكرناه من أنواع الوعيد وحبوط أعمالهم وخسة قدرهم ﴿جزاؤهم جهنم﴾ عطف بيان للجزاء والسبب في ذلك أنهم ضموا الى الكفر اتخاذهم آيات الله واتخاذ رسله هزواً ، والباء في ﴿بما كفروا﴾ للسببية ﴿واتخذوا آياتي ورسلي هزوا﴾ أي مهزوءاً بهم .

ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم ﴿كانت لهم﴾ فيما سبق من علم الله لأهل طاعته قاله ابن الأنباري ﴿جنات الفردوس نزلاً﴾ قال المبرد: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب ، واختار الزجاج ما قاله مجاهد أن الفردوس البستان باللغة الرومية ، وقيل كل ما حوط فهو فردوس والجمع فراديس .

وحكى الزجاج : أنها الأودية التي تنبت ضروباً من النبت فقيل هو عربي وقيل أعجمي وقيل فارسي وقيل سرياني ، وقد تقدم بيان النزل ، والمعنى كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلاً معداً لهم مبالغة في إكرامهم.

أخرج الطبراني والحاكم وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سلوا الله الفردوس فانها سُرَّةُ الجنة وإن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش[٢] .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله

(١) مسلم ٢٧٨٥ ـ البخاري ٢٠٢٣ .
(٢) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٧١ .

صلى الله عليه وسلم : إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة(١) .

وأخرج الترمذي وأحمد والحاكم والبيهقي وعبد بن حميد عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن في الجنة مائة درجة كل درجة منها ما بين السماء والأرض ، الفردوس أعلاها درجة ومن فوقها يكون العرش ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس(٣) .

وعن السدي هو الكرم بالنبطية ، وقال كعب : هي جنات الأعناب بالسريانية وعنه ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأوسعها وأفضلها وأرفعها وقيل :هي الجنة الملتفة بالأشجار التي تنبت ضروباً من النبات ، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة وقد أوضحنا ما جاء في الجنان كلها ونعيمها من الأحاديث والآثار في كتاب سميناه مثير ساكن الغرام الى روضات دار السلام .

﴿خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً﴾ قال مجاهد : متحولاً أي لا يطلبون تحولاً عنها إلى غيرها إذ هي أعز من أن يطلبوا غيرها أو تشتاق أنفسهم الى سواها قال ابن الأعرابي وابن قتيبة والأزهري : الحول اسم بمعنى التحول يقوم مقام المصدر ، وقال أبو عبيدة والفراء : إن الحول التحويل .

ولما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ قال ابن الأنباري : سمي المداد مداداً لإمداده الكاتب وأصله من الزيادة ومجيء الشيء،بعد الشيء،ويقال للزيت الذي يوقد به السراج مداداً ، والمراد بالبحر هنا الجنس، والمعنى لو كتبت كلمات علم الله

---

(١) الإمام أحمد ٢/٣٣٥ ـ ٢/٣٣٩ ولم أجده في الصحيحين .

(٣) الترمذي كتاب الجنة باب ٤ .

وحكمته وعجائبه وفرض أن جنس البحر مداد لها ﴿لنفد البحر﴾ أي لفنى ماؤه ﴿قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ أي قبل نفود الكلمات، وقيل المعنى لو كان البحر مداداً للقلم والقلم يكتب لنفد البحر قبل نفود كلمات ربي أي علمه . قاله مجاهد .

وقال قتادة : ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام الله وحكمته ، وقيل المراد بها معلوماته ، قرىء تنفد بالتاء والياء وهما سبعيتان وذكر في الكشاف أن قبل هنا بمعنى غير أو بمعنى دون ، وقيل عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى ، وهو إن كان واحداً فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد، وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع قال الأعشى :

ووجه نقي اللون صاف يزينه مع الجيد لبات لها ومعاصم

فعبر باللبات عن اللبة قال الجبائي : إن قوله ﴿قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ يدل على أن كلماته قد تنفد في الجملة ، وما ثبت عدمه امتنع قدمه ، وأجيب بأن المراد الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية ، وقيل في الجواب إن نفاد شيء قبل نفاد شيء آخر لا يدل على نفاد الشيء الآخر ولا على عدم نفاده ، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات الله بحيث لا تضبطها عقول البشر ، أما أنها متناهية أو غير متناهية فلا دليل على ذلك في هذه الآية ، والحق أن كلمات الله تابعة لمعلوماته وهي غير متناهية فالكلمات غير متناهية .

﴿ولو جئنا بمثله مددا﴾ كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله ﴿قل لو كان البحر﴾ وفيه زيادة مبالغة وتأكيد،والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها أي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله لو لم يجيء بمثله مدداً ﴿ولو جئنا بمثله﴾ أي البحر ﴿مدداً لنفد﴾ أيضاً والمدد الزيادة وقرىء مداداً وهي كذلك في مصحف أبيّ .

ثم أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسلك مسلك التواضع فقال ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ أي آدمي حالي مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية ومن كان هكذا فهو لا يدعي الإحاطة بكلمات الله إلا أنه امتاز عنهم بالوحي إليه من الله سبحانه فقال ﴿يوحى إليَّ﴾ وكفى بهذا الوصف فارقاً بينه وبين سائر أنواع البشر .

ثم بيَّن أن الذي أوحي اليه هو قوله ﴿إنما إلهكم إله واحد﴾ لا شريك له في الألوهية والملك وفي هذا إرشاد الى التوحيد ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد فقال ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ الرجاء توقع وصول الخير في المستقبل،والمعنى من كان له هذا الرجاء الذي هو شأن المؤمنين ويخاف المصير اليه ، وقيل يؤمل رؤية ربه والبعث والجزاء ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ هو ما دل الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله أي مستوفياً لمعتبر أنه شرعٌ عن ابن عباس قال : أنزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً آخر غيره وليست هذه في المؤمنين .

﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ من خلقه سواء كان صالحاً أو طالحاً ، حيواناً أو جماداً ، قال الماوردي : قال جميع أهل التأويل في تفسير هذه الآية إن المعنى لا يرائي بعمله أحداً .

وأقول إن دخول الشرك الجلي الذي كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدم على دخول الشرك الخفي الذي هو الرياء . ولا مانع من دخول هذا الخفي تحتها إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية .

عن ابن عباس قال : قال رجل يا نبيّ الله إني أقف المواقف أبتغي وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية .

وعنه قال : كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لقالة الناس فلا يريد به الله فنزل في ذلك ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية .

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجة والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد بن أبي فضالة الانصاري وكان من الصحابة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فان الله أغنى الشركاء عن الشرك[١] .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا فقال : لا أجر له فأعظم الناس ذلك فعاد الرجل فقال لا أجر له[٢] ، وعن شداد بن أوس قال : كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشرك الأصغر .

وعنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من صلى يرائي فقد أشرك ومن صام يرائي فقد أشرك ومن تصدق يرائي فقد أشرك ، ثم قرأ ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ الآية[٣] ، أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن شداد أيضاً قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشركه أنا عنه غني[٤] ، أخرجه أحمد وأبو نعيم الطيالسي .

واخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي لمكان رجل[٥] .

---

(١) الترمذي تفسير سورة ١٨/٦ - الإمام أحمد: ٤/٢١٥ .
(٢) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٧١ .
(٣) الإمام أحمد ٤/١٢٦ .
(٤) الإمام أحمد ٤/١٢٦ .
(٥) الإمام أحمد ٣/٣٠ .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن شداد ابن أوس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية قلت أتشرك أمتك بعدك؟ قال: نعم أما أنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ولكن يراؤون الناس بأعمالهم ، قلت:يارسول الله ما الشهوة الخفية؟ قال: يصبح أحدهما صائماً فيعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته[1] .

وأخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه أنه قال : أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو الذي أشرك وفي لفظ فمن أشرك بي أحداً فهو له كله[2] .

وفي الباب أحاديث كثيرة في التحذير من الرياء وأنه الشرك الأصغر وأن الله لا يقبله ، وقد استوفاها صاحب الدر المنثور في هذا الموضع فليرجع اليه ، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية بل الشرك الجلي يدخل تحتها دخولاً أولياً وعلى فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير الى ذلك ما قدمنا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في علم الأصول .

وقد ورد في فضائل هذه الآية بخصوصها ما أخرجه الطبراني وابن مردويه عن حكيم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم ، وأخرج ابن راهويه والبزار والحاكم وصححه والشيرازي في الألقاب وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ في ليلة ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾

---

(١) الإمام أحمد ٤/١٢٤ .

(٢) مسلم ٢٩٨٥ ـ الإمام أحمد ٢/٣٠١

الآية كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة قال ابن كثير بعد إخراجه غريب جداً[1] .

وعن معاوية بن أبي سفيان أنه تلا هذه الآية ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ وقال : إنها آخر آية نزلت من القرآن ، قال ابن كثير وهذا أثر مشكل فإن هذه الآية هي آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا ما يغير حكمها بل هي مثبتة محكمة فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروي بالمعنى على ما فهمه[2] .

---

(١) إبن كثير ٣/١١٠ .

(٢) إبن كثير ٣/١١٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

هي مكية وآياتها ثمان أو تسع وتسعون آية

قال ابن عباس : أنزلت بمكة . وعن ابن الزبير وعائشة مثله . وفي البيضاوي . الا آية السجدة . وفي الجلالين : الا سجدتها فمدنية . أو والا ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ الآيتان وأخرج أحمد والبيهقي وابن أبي حاتم عن أم سلمة أن النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب : هل معك مما جاء به - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - عن الله شيء ؟ قال : نعم ، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) فبكى النجاشي[1] حتى أخضلت لحيته وبكت أساقفته . حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم ، ثم قال النجاشي : ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة وقد ذكر ابن اسحاق القصة بطولها .

وقد تقدم في الجزء الاول من هذا التفسير أن أسماء السور وترتيبها ، وترتيب الآيات توقيفي . ولم تذكر امرأة باسمها صريحا في القرآن الا مريم فذكرت فيه في ثلاثين موضعا .

---

(١) أخضل الشيء اخضلالاً واخضوضل أي ابتل إ هـ صحاح ، والأسقف رئيس من رؤساء النصارى في الدين والجمع أساقفة إ هـ.



بسم الله الرحمن الرحيم

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ قال ابن عباس : كبير هاد أمين عزيز صادق . وعن ابن مسعود وناس من الصحابة : هو الهجاء المقطع الكاف من الملك والهاء من الله والياء والعين من العزيز والصاد من المصور .

وعن أم هانىء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كاف هاد عالم صادق،وعن علي كان يقول يا كٓهيعٓصٓ اغفر لي ، وعن السدي قال : كان ابن عباس يقول : في كٓهيعٓصٓ ، وحٓم ، ويٓس ، وأشباه هذا هو بسم الله الأعظم وعن ابن عباس : هو قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله وقال قتادة : هو اسم من اسماء القرآن ، وقيل هو اسم السورة . وعن الكلبي : هو ثناء أثنى الله به على نفسه .

وكما وقع الخلاف في هذا وأمثاله بين الصحابة ، وقع بين من بعدهم ، ولم يصح مرفوعاً في ذلك شيء . ومن روي عنه من الصحابة في ذلك شيء فقد روي عن غيره ما يخالفه، وقد يروى عن الصحابي نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة في هذه الفواتح ، فلا يقوم شيء من ذلك حجة ، بل الحق الوقف ، وردُّ لعلم في مثلها إلى الله سبحانه ، ولذا قال في الجلالين : الله أعلم بمراده

بذلك . وفي الخطيب أنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه . وقد قدمنا تحقيق هذا في فاتحة سورة البقرة .

﴿ ذكر ﴾ أي هذا ذكر ، أو المتلو ذكر ، وقيل إنه خبر الحروف المقطعة ، وهو قول يحيى بن زياد . قال أبو البقاء : وفيه بعد ، وقيل هو مبتدأ محذوف الخبر أي فيما يتلى عليك ذكر .

قال الزجاج : المعنى هذا الذي نتلوه عليك ذكر ﴿ رحمة ربك ﴾ مضاف لفاعله ومفعوله ﴿ عبده زكريا ﴾ يعني إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد . قيل عبده مفعول لذكر ، ومعنى ذكر الرحمة بلوغها وإصابتها . كما يقال ذكرني معروف فلان أي بلغني .

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان زكريا نجاراً[1] ، أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه ، وعن ابن مسعود قال : كان آخر أنبياء بني إسرائيل زكريا بن آزر بن مسلم من ذرية يعقوب ﴿ إذ نادى ربه ﴾ ظرف زمان للرحمة أي رحمة الله إياه وقت أن ناداه ﴿ نداء ﴾ مشتملاً على دعاء ﴿ خفياً ﴾ سراً جوفَ الليل لأنه أسرع الى الإجابة .

واختلف في وجه كون ندائه هذا خفياً ، فقيل لأنه أبعد عن الرياء وأقرب إلى الصفاء ، وقيل أخفاه لئلا يلام على طلبه للولد في غير وقته ، ولكونه من أمور الدنيا . وقيل أخفاه مخافة من قومه ، وقيل كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفاً هرماً لا يقدر على الجهر ، لأنه كان ابن خمس وسبعين أو ثمانين سنة وكان النداء في المحراب .

﴿ قال رب إني وهن العظم مني ﴾ هذه الجملة مفسرة لقوله نادى ربه . فالنداء أوله قوله هذا وآخره قوله الآتي ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ فجملة النداء ثمان جمل والدعاء منه هو قوله ﴿ فهب لي من لدنك ولياً ﴾ كما سيأتي ،

---

(١) المستدركَ كتاب التاريخ ٢/٥٩٠ .

والوهن الضعف ، يقال وهن يهن وهناً ، من باب وعد إذا ضعف فهو واهن في الأمر والعمل والبدن ، ووهنته أضعفته ، يتعدى ؛ ولا يتعدى في لغة فهو موهون البدن والعظم ، والأجود أنه يتعدى بالهمزة ، فيقال أوهنته ، والوهن بفتحتين لغة في المصدر ، ووهن يهن بالكسر فيهما لغة ، وقرىء بالحركات الثلاث ، أراد أن عظامه فترت ورقت ؛ وضعفت قوته من الكبر .

وذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه ، وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته،ولأنه أشد ما في الانسان وأصلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن . ووحد العظم قصداً إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام،وقيل اشتكى سقوط الأضراس .

﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ الاشتعال في الأصل انتشار شعاع النار ، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية بأن حذف المشبه به ، وأداة التشبيه ، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها . قال الزجاج : يقال للشيب إذا كثر جداً . قد اشتعل رأس فلان .

﴿ ولم أكن بدعائك ﴾ أي بدعائي إياك ﴿ رب شقيا ﴾ يقال شقي بكذا أي تعب فيه ، ولم يحصل مقصوده منه ، فالمعنى لم أكن خائفاً في وقت من الأوقات ، بل كلما دعوتك استجبت لي ، وهذا توسل بما سلف له من الاستجابة ، وتنبيه على أن المطلوب ـ وإن لم يكن معتاداً ـ فإجابته لدعائه معتادة ، وقد عوده سبحانه بالإجابة وأطعمه ، ومن حق الكريم أن لا يخيب من أطعمه .

قال العلماء : يستحب للمرء أن يجمع في دعائه بين الخضوع . وذكر نعم الله عليه . كما فعل زكريا ههنا . فإن قوله الماضي غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن سرد مطالبه وبلوغ مآربه ، وفي هذا ذكر ما

عوده الله . والإنعام عليه بإجابة أدعيته ، والتعرض في الموضعين لوصف الربوبية لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع .

﴿ وإني خفت ﴾ بكسر الخاء ﴿ الموالي من ورائي ﴾ وقرىء خفت بكسر التاء وفاعله الموالي ، أي قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدي أو انقطعوا بالموت ، مأخوذ من خفت القوم إذا ارتحلوا ، وهذه قراءة شاذة وبعيدة عن الصواب . والموالي هنا هم الأقارب الذين يرثون وسائر العصبات من بني العم ، ونحوهم ، والعرب تسمي هؤلاء موالي . وقيل هم الناصرون له ، وقيل الكلالة، وقيل جميع الورثة.

واختلفوا في وجه المخافة من زكريا لمواليه من بعده ، فقيل خاف أن يرثوا ماله وأراد أن يرثه ولده ، فطلب من الله سبحانه أن يرزقه ولداً .

وقال آخرون : إنهم كانوا مهملين لأمر الدين فخاف أن يضيع الدين بموته ، فطلب ولياً يقوم به بعد موته ، وهذا القول أرجح من الأول ، لأن الأنبياء لا يورثون ، وهم أجل من أن يعتنوا بأمور الدنيا ، فليس المراد هنا وراثة المال ، بل المراد وراثة العلم والنبوة والقيام بأمر الدين ، وقد ثبت عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[1] .

﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾ هي التي لا تلد لكبر سنها والتي لا تلد أيضاً لغير كبر ، وهي المرادة هنا ؛ ويقال للرجل الذي لا يلد عاقر أيضاً . قال ابن جرير : وكان اسم امرأته أشاع بنت فاقود بن ميل ، وهي أخت حنة ، وهي أم مريم ، فولد لأشاع يحيى ولحنة مريم . وقال القتيبي : هي أشاع بنت عمران ، فعلى القول الأول يكون يحيى بن زكريا ابن خالة أم عيسى . وعلى

(١) مسلم ١٧٥٧ ـ البخاري ١٣٩٠ .

الثاني يكونان ابني خالة ، كما ورد في الحديث الصحيح .

﴿ فهب لي من لدنك ﴾ أي أعطني من فضلك ﴿ ولياً ﴾ مرضياً لأن مثله لا يرجى إلا من فضلك وكمال قدرتك . ولم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته في حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما ، وحصوله منها ، وقد قيل : إنه كان ابن بضع وتسعين سنة ، وقيل : بل أراد بالولي الذي طلبه هو الولد ، ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة . فإن الله سبحانه قد يكرم رسله ما يكون كذلك ، فيكون من جملة المعجزات الدالة على صدقهم ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ قرىء بالرفع في الفعلين جميعاً على أنهما صفتان للولي ، وليسا بجواب الدعاء ، وقرىء بالجزم فيهما على أنهما جواب للدعاء ، ورجح الأول أبو عبيد ، وقال : هي أصوب في المعنى لأنه طلب ولياً هذه صفته ، فقال : هب لي الذي يكون وارثي . ورجح ذلك النحاس ، والوراثة هنا هي وراثة العلم والنبوة على ما هو الراجح كما سلف .

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق ابن ابراهيم . وزعم بعضهم أنه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان ، وبه قال الكلبي ومقاتل : وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم اليه للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين ، وقد كان فيهم أنبياء وملوك ، وقرىء يرثني وارث آل يعقوب، وقرىءوأرث آل يعقوب، أي أنا، وقرىء «أُوَ يَرِثُ آل يعقوب» على أن هذاالمصغر فاعل يرثني، وهذه القرآت في غاية الشذوذ لفظاً ومعنى.

﴿ واجعله رب رضياً ﴾ أي مرضياً في أخلاقه وأفعاله ؛ وقيل راضياً بقضائك ، وقدرك ، وقيل رجلاً صالحاً ترضى عنه ، وقيل نبياً كما جعلت آباءه أنبياء .

﴿ يا زكريا ﴾ بالهمز ، وحذفه سبعيتان . قال جمهور المفسرين : إن هذا النداء من الله سبحانه ، وقيل من جهة الملائكة ، لقوله في آل عمران ﴿ فنادته الملائكة ﴾ ويمكن أن يكن وقع له الخطاب مرتين ، مرة بواسطة الملائكة وأخرى من غير واسطة ، وفي الكلام حذف ، أي فاستجاب له دعاءه فقال : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام ﴾ وبين هذه البشارة ووجود الغلام في الخارج بالفعل ثلاث عشرة سنة لأن طلب زكريا للولد والبشارة به كان في صغر مريم وهي في كفالته ، وأن الحمل بيحيى كان مقارناً للحمل بعيسى ، وكانت مريم إذ ذاك بنت ثلاث عشرة سنة، وأن أشاع حملت به قبل حمل مريم بعيسى بستة أشهر .

﴿ اسمه يحيى ﴾ قد تقدم في آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكريا . قال الزجاج : سمي يحيى لأنه حيي بالعلم والحكمة التي أوتيها ، وهو الممنوع من الصرف للعلمية والعجمية ، وتقول في تثنيته يحييان رفعاً ويحيين نصباً وجراً ، وفي جمع سلامته يحيون رفعاً ، ويحيين نصباً وجراً .

﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ فعيل بمعنى مفعول، أي مسمى يحيى قال أكثر المفسرين : معناه لم نسم أحداً قبله يحيى .

وقال مجاهد وابن عباس وجماعة : معناه أنه لم يجعل له مثلاً ولا نظيراً ، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السموّ ، ورد هذا بأنه يقتضي تفضيله على إبراهيم وموسى . وقيل: معناه لم تلد عاقر مثله، والأول أولى .

وفي إخباره سبحانه بأنه لم يُسَمَّ بهذا الاسم قبله أحداً فضيلة له من جهتين . الأولى أن الله سبحانه هو الذي تولى تسميته به ولم يكلها الى الأبوين ، وسماه بخصوص يحيى لأنه به حيي رحم أمه بعد موته بالعقم ، والجهة الثانية أن تسميته باسم لم يوضع لغيره تفيد تشريفه وتعظيمه .

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾

﴿ قال رب أنّى ﴾ أي كيف ومن أين ﴿ يكون لي غلام ﴾ وليس معنى هذا الاستفهام الاستبعاد والإنكار، بل التعجب والاستكشاف من قدرة الله وبديع صنعه حيث يخرج ولداً من امرأة عاقر وشيخ كبير ﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾ أي لا تلد ؛ والجملة حال من الياء في لي ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في آل عمران .

﴿ وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ أي يأساً ، يريد بذلك نحول الجسم والجلد ودقة العظم أو يبساً جساوة[1] في المفاصل والعظام من أجل الكبر والطعن في السن العالية يقال عتا الشيخ يعتو عتياً إذا انتهت سنه وكبر ، وشيخ عات اذا صار الى حال اليبس والجفاف والأصل عتواً لأنه من ذوات الواو فأبدلوها ياء لكونها أخف قال السمين : فيه أربعة أوجه أظهرها أنه مفعول به ، أو مصدر مؤكد لمعنى الفعل أو مصدر وقع موقع الحال ، أي عاتياً أو ذا عتو ، الرابع أنه تمييز ، وعلى هذه الأوجه الثلاثة ﴿ من ﴾ مزيدة ذكره أبو البقاء ، والأول هو الأوجه ، انتهى ، وقرىء عِتياً بكسر العين وبضمها وهما لغتان ، وكلتا الجملتين لتأكيد الاستبعاد .

---

(١) جسا ضد لطف وجست اليد وغيرها جسوا وجساء يبست وجسا الشيخ جسوا بلغ غاية السن والماء جمد ، أ هـ صحاح .

والتعجب المستفاد من قوله : ﴿ أنّى يكون لي غلام ﴾ قال ابن عباس : لا أدري كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذا الحرف عتياً أو عتياً . وعن عطاء في قوله عتياً قال : لبث زماناً في الكبر وقال السدي : هرماً ، والمعنى كيف يحصل بيننا ولد الآن وقد كانت امرأتي عاقراً لم تلد في شبابها وشبابي : وهي الآن عجوز وأنا شيخ هرم .

ثم أجاب الله سبحانه عن هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله : ﴿ قال ﴾ أي الملك المبلغ للبشارة ، وهو كما قال الكواشي : جبريل عليه السلام ، والأكثر على أنه الله تعالى لسلامته عن فك النظم .

﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كذلك تصديق له والإشارة الى ما سبق من قول زكريا: ثم ابتدأ بقوله : ﴿ قال ربك ﴾ أو قال قولاً مثل ذلك ، والإشارة إلى مبهم يفسره قوله ﴿ هو عليّ هين ﴾ وعلى الأول هذه الجملة مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره ، وإنما أعيد : قال ربك ، اهتماماً أي قال هو مع بعده عندك ، عليّ هين ، وهو فيعل من هان الشيء يهون إذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد . قال الفراء : أي خلقه عليّ هين بأن أرد عليك قوة الجماع وأفتق رحم امرأتك للعلوق .

﴿ وقد خلقتك من قبل ﴾ أي من قبل يحيى ، والجملة حال وقرأ سائر الكوفيين وقد خلقناك ﴿ ولم تك شيئاً ﴾ لأن المعدوم ليس بشيء ، هذه الجملة مقررة لما قبلها قال الزجاج : أي فخلق الولد لك كخلقك ، والمعنى أن الله سبحانه خلقه ابتداء وأوجده من العدم المحض ، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه ، وإنما لم ينسب ذلك الى آدم عليه السلام لأنه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول : وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيئاً ، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم .

﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة تدلني على وقوع المسؤول وتحققه وحصول الحبل . والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه قال ابن الانباري : وجه ذلك أن نفسه تاقت إلى سرعة الأمر فسأل الله آية يستدل بها على قرب ما مَنَّ به عليه، وقيل: طلب آية تدله على أن البشرى من الله سبحانه لا من الشياطين ، لأن إبليس أوهمه بذلك ، كذا قال الضحاك والسدي وهو بعيد جداً .

﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ نصب على الحال أي آيتك أن لا تقدر على الكلام ، والحال أنك سوي الخلق صحيح سليم من غير بأس ليس بك آفة تمنعك منه ، والمراد ثلاث ليال بأيامها ، كما في آل عمران ثلاثة أيام وإنما عبر هنا بالليالي ، وهناك بالأيام ، لأن هذه السورة مكية ، والمكي سابق على المدني ، والليل سابق على النهار ، فأعطى السابق للسابق ؛ وأعطى المؤخر للمؤخر ، وقيل : ثلاث ليال متتابعات ، والأول أولى ، قال ابن عباس : اعتقل لسانه من غير مرض ، وفي لفظ من غير خرس.

﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ أي من مصلاه متغير اللون ؛ عاجز الكلام فأنكروا ذلك عليه، في القاموس : المحراب الغرفة ، وصدر البيت ، وأكرم مواضعه ، ومقام الإمام من المسجد ، والموضع الذي يتفرد به الملك فيتباعد عن الناس، ومحاريب بني إسرائيل مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها.

وفي الشهاب: وأما المحراب المعروف الآن، وهو طاق مجوّف في حائط المسجد يصلي فيه الإمام فهو محدث لا تعرفه العرب، فتسميته محراباً اصطلاح للفقهاء انتهى، وهو ممنوع ؛بل هو معنى لغوي إذ هو من أفراد المعنى اللغوي الذي ذكره في القاموس بقوله: ومقام الإمام بالمسجد واشتقاقه من الحرب كأن ملازمه يحارب الشيطان، وقيل من الحَرَب محركاً؛ كأن ملازمه يلقى حرباً وتعباً ونصباً.

﴿ فأوحى إليهم﴾ أي أومأ ؛ وأشار، بدليل قوله في آل عمران : إلا رمزاً وقيل كتب لهم على الأرض ، وبالأول قال الكلبي ، والقرظي وقتادة وابن منبه وبالثاني ، قال مجاهد : وقد يطلق الوحي على الكتابة . قال ابن عباس : كتب لهم كتاباً (﴿ أن سبحوا ﴾ مصدرية أو مفسرة ، والمعنى فأوحى إليهم بأن صلوا ؛ أو أي صلوا .

﴿ بكرة وعشياً ﴾ أي نزهوا ربكم طرفي النهار ؛ فهما ظرفا زمان للتسبيح . وانصرفت بكرة لأنه لم يقصد بها العلمية ، فلو قصد بها العلمية امتنعت من الصرف ، قال الفراء : العشي يؤنث ، ويجوز تذكيره اذا أبهم ، قال : وقد يقال : العشي جمع عشية قيل والمراد صلاة الصبح والعصر، وقيل المراد بالتسبيح هو قولهم سبحانه الله .

﴿ يا يحيى ﴾ أي قال الله للمولود يا يحيى ، أو ولد له مولود فبلغ المبلغ لذي يجوز أن يخاطب فيه . فقلنا له يا يحيى .

وقال الزجاج : المعنى فوهبنا له وقلنا له يا يحيى أي بعد ولادته بثلاث سنين على ما قاله قتادة ، وقيل بسنتين يعني على لسان الملك كما قاله أبو حيان ﴿خذ الكتاب ﴾ المراد به التوراة لأنه المعهود حينئذ ، ويحتمل أن يكون كتاباً مختصاً به وإن كنا لا نعرفه الآن .

والمراد بالأخذ إما الأخذ الحسي ، أو الأخذ من حيث المعنى ، وهو القيام بما فيه كما ينبغي ، وذلك بتحصيل ملكة تقضي سهولة الإقدام على المأمور به ، والإحجام على المنهي عنه ، ثم أكده بقوله ﴿ بقوة ﴾ أي متلبساً بجد ، وعزيمة ، واجتهاد قاله مجاهد .

﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ المراد بالحكم الحكمة ، وهي الفهم للكتاب الذي أمر بأخذه ، وفهم الأحكام الدينية ، وقيل هي العلم وحفظه والعمل

به : وقيل النبوة،وقيل العقل ، وقال مجاهد : الفهم ، وقال مالك بن دينار : اللب ، ولا مانع من حمل الحكم على جميع ما ذكر ، والجملة مستأنفة .

قال ابن عباس : أعطي الفهم ، والعبادة ، وهو ابن سبع سنين ، وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الغلمان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال يحيى ما للعب خُلقنا اذهبوا نصلي ، فهو قول الله ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ أخرجه الحاكم في تاريخه ، وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبيا ، أخرجه البيهقي ، وأخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً عليه .

﴿ وحناناً ﴾ معطوف على الحكم ، قال جمهور المفسرين : الحنان الرحمة والرقة والشفقة ، العطف والمحبة وأصله توقان النفس مأخوذ من حنين الناقة على ولدها قال : يقول حنانك يا رب وحنانيك يا رب معنى واحد يريد رحمتك ، قال إن الأول الحنان مشددا من صفات الله عز وجل، والحنان محققاً للعطف والرحمة والحنان التوق والبركة .

قال ابن عطية: والحنان في كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور في ذات الله ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل: والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حناناً ، يعني بلالاً لما مر به وهو يعذب،وقيل إن القائل لذلك هو ورقة ابن نوفل، قال الأزهري: معنى ذلك لأترحمن عليه ولأعطفن عليه لأنه من أهل الجنة.

ومعنى ﴿من لدنا﴾ من عندنا ومن جنابنا، وقيل المعنى أعطيناه رحمة من

لدنا، كائنة في قلبه، يتحنن بها على الناس، ومنهم أبواه وقرابته حتى يخلصهم من الكفر، قال ابن عباس في ﴿حناناً﴾ لا أدري ما هو إلا أني أظنه يعطف الله على عبده بالرحمة، وقد فسرها جماعة من السلف بالرحمة كما مر، ومنه قول الشاعر:

وعسير بلاء حاق به ويسير حنانك يدفعه

﴿وزكاة﴾ معطوف على ما قبله، والزكاة التطهير والبركة والتنمية والبر أي جعلناه مباركاً للناس يهديهم إلى الخير، وقيل ذكيناه بحسن الثناء عليه كتزكية الشهود، وقيل صدقة تصدقنا بها على أبويه قاله ابن قتيبة، وقيل تصدقاً على الناس أي أعطيناه توفيقاً للتصدق عليهم وقيل يعني بالزكاة الطاعة والإخلاص، وقيل: هي العمل الصالح، فلم يعمد بذنب.

﴿وكان تقياً﴾ قال ابن عباس: طهر فلم يأت بذنب أي متجنباً لمعاصي الله سبحانه مطيعاً له بطبعه، وقد روي أنه لم يعمل معصية ولم يهم بها قط، ومن جملة تقواه أنه كان يتقوت بالعشب، وكان كثير البكاء فكان لدمعه مجار على خده.

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾

﴿وبراً﴾ فعل بمعنى فاعل أي باراً ﴿بوالديه﴾ والمعنى لطيفاً بهما محسناً إليهما، لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله أعظم من برهما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ .

﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي لم يكن متكبراً يقتل، ويضرب على الغضب، ولا عاصياً لوالديه، أو لربه، وهذا وصف له عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح، والمراد أصل الفعل، فالمنفي أصل الجبر، والعصيان، لا المبالغة فيهما ﴿وسلام﴾ منا ﴿عليه﴾.

قال ابن جرير وغيره: معناه أمان عليه من الله، قال ابن عطية: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة فهي أشرف وأنه من الأمان لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه وهو أقل درجاته. وإنما الشرف في أن سلم الله عليه. وقال سلام هنا منكراً، وفي قصة عيسى ﴿والسلام﴾ معرفاً لأن الأول من الله، والقليل منه كثير، والثاني من عيسى.

ومعنى ﴿يوم ولد﴾ أنه أمن من الشيطان وغيره في ذلك اليوم، وسلم من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم، أو أن الله حياه في ذلك اليوم ﴿ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ قيل أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن: يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه، ويوم يموت لأنه يرى قوماً لم يكن قد عرفهم وأحكاماً ليس لديها عهد، ويوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة، فخص الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة.

﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ هذا شروع في ابتداء خلق عيسى، والمراد بالكتاب هذه السورة: أي اذكر يا محمد للناس في هذه السورة قصة مريم وخبرها ونبأها؛ أو المراد به جنس القرآن وهذه السورة منه ﴿إذ انتبذت﴾ النبذ الطرح والرمي. قال تعالى: ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾، والمعنى أنها تنحت وتباعدت. وقال ابن قتيبة: اعتزلت وقيل انفردت.

﴿من أهلها﴾ أي من قومها والمعاني متقاربة. واختلفوا في سبب انتباذها، فقيل لأجل أن تعبد الله سبحانه، وقيل للتطهر من حيضها ﴿مكاناً شرقياً﴾ أي من جانب الشرق، والنصب على الظرفية أو مفعول به، على أن معنى انتبذت أتت مكاناً، كما في السمين، وفي المصباح ما يؤيده.

والشرق بسكون الراء المكان الذي تشرق فيه الشمس، وإنما خص المكان بالشرق لأنهم يعظمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار، حكى معناه ابن جرير، وقال ابن عباس: مكاناً أظلها من الشمس أن يراها أحد منهم، وقال: إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة. لأن مريم اتخذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذوا ميلاده قبلة، وإنما سجدت اليهود على خوف حين شق فوقهم الجبل، فجعلوا ينحرفون وهم ينظرون إليه يتخوفون أن يقع عليهم، فسجدوا سجدة رضيها الله فاتخذوها عنه.

وقيل كان ذلك اليوم شاتياً شديد البرد فجلست في مشرقه تعلي رأسها.

﴿فاتخذت﴾ أي ضربت ﴿من دونهم﴾ أي من دون أهلها ﴿حجاباً﴾ أي حاجزاً وستراً يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة أو حال التطهر من الحيض، والحجاب الستر والحاجز ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ هو جبريل عليه السلام ليبشرها بالغلام ولينفخ فيها فتحمل به.

وقد اختلف الناس في نبوة مريم، فقيل إنها نبية لمجرد هذا الإرسال إليها ومخاطبتها للملك، وقيل لم تكن نبية لأنه إنما كلمها الملك وهو على مثال البشر، والمتفق عليه أن المنفي وحي الرسالة لا مطلق الوحي، والوحي هنا إنما هو بشارة الولد لا بالرسالة، وقد تقدم الكلام على هذا في آل عمران،

وقيل هو روح عيسى لأن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد. والأول أولى لقوله ﴿ فتمثل ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿ لها ﴾ بعد لبسها ثيابها ﴿ بشراً سوياً ﴾ تاماً مستوي الخلق لم يفقد من نعوت بني آدم شيئاً .

وقال البيضاوي : ولعله أي التمثل ليهيج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها ، إ هـ قال في الخميس في أحوال أنفس نفيس : فيه نظر ، انتهى ، ولم يبين أحد هذا النظر الصحيح لا هو ولا غيره من المفسرين فيما تصفحت إلا أبا السعود حيث قال : هو مع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة يكذبه قوله تعالى : ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك ﴾ فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة مثل ما إليه فضلاً عما ذكر من الحالة المرتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة .

نعم كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه ، وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التي هي العصمة مما دهمها إ هـ .

وقد تكلموا في كيفية تمثله ، فقال إمام الحرمين: يفني الله الزائد من خلقه أو يزيله عنه ثم يعيده اليه، يعني أن له أجزاء أصلية كما في الإنسان وأجزاء زائدة،وجزم ابن عبد السلام بالإزالة دون الفناء وقال ابن حجر : إن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى بل يخفيه الله تعالى عن الرأي فقط قاله الكرخي .

وقيل إنما ظهر لها في صورة البشر لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه فتفهم كلامه ولو بدا لها في صورة الملائكة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه ، وأنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته ، فلما رأته في صورة إنسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء فاستعاذت بالله منه .

و﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ أي ممن يتقي الله

ويخافه ، ويعامل بمقتضى التقوى والإيمان ، وخصت الرحمن بالذكر ليرحم ضعفها وعجزها عن دفعه . وقيل إن تقياً اسم رجل صالح فتعوذت منه تعجباً . وقيل إنه اسم رجل فاجر معروف في ذلك الوقت ، والأول أولى .

وتعوذها من تلك الصورة الحسنة دل على كمال عفتها وغاية ورعها ، وجواب الشرط محذوف ، أي فلا تتعرض لي واتركني وانته عني ، أو فتنتهي عني لتعوذي ، وهذه الجملة كقول القائل : إن كنت مؤمناً فلا تظلمني .

﴿ قال ﴾ جبريل ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ الذي استعذت به ، ولست ممن يتوقع منه ما خطر على بالك من إرادة السوء ؛ وإنما جئت ﴿ لأهب لك ﴾ جعل الهبة من قبله لكونه سبباً فيها ، من جهة كون الإعلام لها من جهته أو من جهة كون النفخ الذي قام به في الظاهر ، ويقويه ما في بعض المصاحف أمرني أن أهب لك ، وقرىء ليَهَبَ على معنى أرسلني الله ليهب لك ﴿ غلاماً زكياً ﴾ هو الطاهر من الذنوب ، الذي ينمو على النزاهة والعفة . وقيل المراد بالزكي النبي .

﴿ قالت أنّى يكون لي غلام ﴾ والحال أني ﴿ لم يمسسني ﴾ أي لم يقربني ﴿ بشر ﴾ زوج بنكاح ﴿ ولم أك بغياً ﴾ أي فاجرة ، فجعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه ، والزنا ليس كذلك ، وإنما يقال فيه : فجر بها وخنث بها . وما أشبه ذلك .

والبغيّ هي الزانية التي تبغي الرجال . قال المبرد : أصله بغوي على فعول . وقال ابن جني : إنه فعيل . وقال ابن الأنباري : إن بغياً غالب في النساء إجراء له مجرى حائض وعاقر . وقلما تقول العرب رجل بغي ، وزيادة ذكر ذلك يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيهاً لجانبها من الفحشاء ، يعني أن الولد لا يكون إلا من نكاح أو سفاح ولم يكن هنا واحد منهما . قيل وما استبعدت من قدرة الله شيئاً ، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد ، هل من قبل زوج نتزوجه في المستقبل؟ أم يخلقه الله سبحانه ابتداء .

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

﴿ قال ﴾ جبريل ﴿ كذلك ﴾ أي الأمر هكذا من خلق غلام منك من غير أب ﴿ قال ربك هو ﴾ أي خلق ولدك بلا أب ﴿ عليّ هين ﴾ بأن ينفخ بأمري جبريل فيك فتحملي به ، والجملة مستأنفة والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من قول زكريا ﴿ و ﴾ خلقناه ﴿ لنجعله ﴾ أي هذا الغلام أو خلقه بلا أب ﴿ آية للناس ﴾ يستدلون بها على كمال القدرة على أنواع الخلق فإنه خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى ، قاله الكرخي .

﴿ و ﴾ لنجعله ﴿رحمة﴾ عظيمة كائنة ﴿ منا ﴾ لمن آمن به لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير ، لأن كل نبي رحمة لأمته ﴿ وكان ﴾ خلقه ﴿ أمراً مقضياً ﴾ به في علمي مقدراً محكوماً مفروغاً منه لا يرد ولا يبدل ولا يتغير مسطوراً في اللوح المحفوظ قد قدره الله سبحانه وجف به القلم .

﴿ فحملته ﴾ أي الموهوب ههنا كلام مطوي ، والتقدير فاطمأنت إلى قوله فدنا منها فنفخ في جيب درعها وهو بعيد عنها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملته وأحست في بطنها مصوراً ؛ وكان سنها ثلاث عشرة سنة ، أو عشراً ، أو عشرين . أو ست عشرة سنة . وقيل كانت النفخة في ذيلها أو كمها ، وقيل في فمها ، وليس المراد أنه نفخ في فرجها مباشرة .

عن أبي بن كعب قال : تمثل روح عيسى في صورة بشر فحملته ، قال :

حملت الذي خاطبها دخل في فيها ، قيل إن وضعها كان متصلاً بهذا الحمل من غير مضي مدة للحمل ، ويدل على ذلك قوله .

﴿ فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ أي تنحت بالحمل مصاحبة له واعتزلت الى مكان بعيد من أهلها مخافة اللائمة ؛ قيل كان هذا المكان وراء الجبل ، وقيل أبعد مكان في تلك الدار ؛ وقيل أقصى الوادي ، وهو وادي بيت لحم ، وقيل إنها حملت به ستة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر ، وذلك آية أخرى ، لأنه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر ، وقيل سبعة أشهر وقيل تسعة أشهر كحمل النساء ، وقيل كان الحمل والولادة في ساعة واحدة وقيل حملته في ساعة وَصُوِّر في ساعة ،ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومه ، وكانت قد حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى .

قلت : وهذا التفصيل لا دليل عليه ولا مستند له إلا أخبار الأخبار أو آراء الرجال ، ولو صح من نص صحيح لوجب المصير اليه وكان آية أخرى .

﴿ فأجاءها ﴾ يقال جاء وأجاء لغتان بمعنى واحد ، أي ألجأها واضطرها وجاء بها . وقرأ شبل فَاجَأَهَا من المفاجأة ، وفي مصحف أُبيّ (فلما أجاءها) . قال في الكشاف : إن أجاءها منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء، وفيه بعد ، والظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقل ﴿ المخاض ﴾ أو وجع الولادة وهو مصدر مخضت المرأة تمخض مخضاً ومخاضاً ، إذا دنا ولادها قرأ الجمهور بفتح الميم وقرىء بكسرها .

﴿ إلى جذع النخلة ﴾ الجذع ساق النخلة اليابسة التي لا رأس لها ، كأنها طلبت شيئاً تستند اليه وتعتمد عليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق بشيء مما تجده عندها ، والتعريف إما للجنس أو للعهد ، والمستفيض المشهور أن ولادة عيسى كانت ببيت لحم، وأنها لما هربت وخافت عليه أسرعت به وجاءت به الى بيت المقدس فوضعته على صخرة فانخفضت الصخرة له وصارت كالمهد ، وهي الآن موجودة تزار بحرم بيت المقدس .

ثم بعد أيام توجهت به الى بحر الأردن فغمسته فيه ، وهو اليوم الذي تتخذه النصارى عيداً ويسمونه يوم الغطاس ، وهم يظنون أن المياه في ذلك اليوم تقدست فلذلك يغطسون في كل ماء . ومن زعم أنها ولدت بمصر ، قال: بكورة أنهاس ، ولم يثبت ، انتهى من البحر لأبي حيان ، وأنهاس بجانب البهنسا .

﴿ قالت ﴾ جزعاً مما أصابها ﴿ يا ﴾ للتنبيه لأن المنادى غير عاقل ﴿ ليتني مت قبل هذا ﴾ الوقت أو الأمر تمنت الموت استحياء من الناس ، أو خوفاً من الفضيحة لأنها خافت أن يظن بها السوء في دينها أو لئلا يقع قوم بسببها في البهتان .

﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ أي شيئاً حقيراً متروكاً ، والنِّسْيُ في كلام العرب الشيء الحقير الذي من شأنه أن يُنسى ولا يذكر ولا يعرف ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل وقال الفراء : النسي ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها ، فتقول مريم : نسياً منسياً أي حيضة ملقاة ، وقد قرىء بفتح النون وكسرها وهما لغتان مثل الحجر والحجر والوتر والوتر ، وقرأ القرظي : نِسأ بالهمز مع كسر النون ، ونوف البكالي بالهمز مع فتح النون والمنسي المتروك الذي لا يذكر ولا يعرف ولا يخطر ببال أحد من الناس ، قال ابن عباس : نسياً منسياً أي لم أخلق ولم أك شيئاً .

﴿ فناداها ﴾ أي خاطبها لما سمع قولها ﴿ من ﴾ قرىء بكسر الميم وفتحها وهما سبعيتان ﴿ تحتها ﴾ الضمير إما لمريم وإما للنخلة والأول أولى لتوافق الضميرين وكانت على أكمة وكان جبريل أسفل منها تحت الأكمة ، قال قتادة : الذي ناداها جبريل ، وبه قال ابن عباس : وزاد. ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ، وقد اختلفت الروايات عن السلف ، هل هذا المنادى هو جبريل ؟ أو عيسى ؟ فمن قرأ ﴿ من ﴾ بالفتح فهو عيسى ، ومن قرأ بالكسر فهو جبريل ﴿ أن لا تحزني ﴾ تفسير للنداء أو المعنى بأن لا تحزني على أنها مصدرية ولا ناهية أو نافية ﴿ قد جعل ربك تحتك ﴾ أي قربك ﴿ سرياً ﴾ .

قال جمهور المفسرين : السَّرِيُّ النهر الصغير لأن الماء يسري فيه ، والسري . الجدول ، والجمع سِرْيَان والسَّرِي الرئيس ، والجمع سُرَاة وهو عزيز لا يكاد يوجد له نظير ، لأنه لا يجمع فعيل على فعلة وجمع السراة سروات وسري مفعول، وجعل بمعنى صير أو خلق .

وقيل : السري من سريت الثوب أي نزعته ، وسررت الحبل عن الفرس ، والأول أولى ، والمعنى قد جعل تحت قدمك نهراً قيل : كان هذا قد انقطع عنه الماء فأرسل الله فيه الماء لمريم وأحيى به ذلك الجذع اليابس الذي اعتمدت عليه حتى أورق وأثمر .

وقيل : معنى تحتك تحت أمرك أي إن أَمَرْتِهِ أن يجري جرى ، وإن أمرتِهِ بالإمساك أمسك ؛ والأول أولى . وعن جماعة من التابعين أن المراد بالسري هنا عيسى ، والسري العظيم من الرجال ، ومنه قولهم فلان سري ، أي عظيم ومن قوم سُرَاة أي عظام .

أخرج الطبراني وابن النجار وابن مردويه ،عن ابن عمر أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن السري الذي في الآية نهر أخرجه الله لها لتشرب منه ، وفي سنده أيوب بن نهيك الجبلي قال فيه أبو حاتم الرازي : ضعيف وقال أبو زرعة : منكر الحديث ، وقال أبو الفتح الأزدي : متروك الحديث ، وقال الطبراني بعد إخراجه إنه غريب جداً .

﴿ وهزي إليك بجذع النخلة ﴾ الْهَزُّ التحريك يقال هزه فاهتز والباء مزيدة للتأكيد ، وقال الفراء ؛ العرب تقول هزه وهز به ، والجذع هو أسفل الشجرة ، قال قطرب : كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع ﴿ تساقط عليك ﴾ أصله تتساقط ؛ وقرىء تسقط ويسقط ، فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة ، ومن قرأ بالتحتية جعله للجذع ﴿ رطباً جنياً ﴾ الجَنِيّ المأخوذ طرياً ، وقيل : هو ما طاب وصلح للجني ، وهو فعيل يعني مفعول ، أي رطباً طرياً طيباً ، قاله ابن عباس أي استحق أن يجنى .

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾

﴿ فكلي ﴾ من ذلك الرطب ﴿ واشربي ﴾ من ذلك الماء أو من عصير الرطب وقدم الأكل مع أن ذكر النهر مقدم على الرطب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء .

ثم قال : ﴿ وقري عيناً ﴾ قرأ الجمهور ، بفتح القاف ، وقرىء بكسرها ، قال ابن جرير : هي لغة نجد ، والمعنى طيبي نفساً وارفضي عنك الحزن وهو مأخوذ من القرِّ والقِرَّة وهما البرد ، والمسرور بارد القلب ساكن الجوارح ، وذلك أن العين إذا فرح صاحبها كان دمعها قاراً أي بارداً وإذا حزن كان دمعها حاراً ، ولذلك قالوا في الدعاء عليه : أسخن الله عينه .

وقيل : المعنى وقري عيناً برؤية الولد الموهوب لك، وقال الشيباني : معناه نامي ، قال أبو عمرو : أقر الله عينه أي أنام عينه ، وأذهب سهره ، وقيل مأخوذ من الاستقرار أي أعطاها الله ما يسكن عينها ، فلا تطمح إلى غيره .

﴿ فإما ترين ﴾ أصله تَرْأَيين مثل تسمعين ﴿ من البشر أحداً فقولي ﴾ أي إن طلب منك الكلام أحد من الناس فقولي ، وبهذا المقدر يتخلص من إشكال وهو أن قولها فلن أكلم اليوم إنسياً ، كلام فيكون ذلك تناقضاً لأنها قد

كلمت إنسياً بهذا الكلام ، وقيل قوله فقولي أي بالإشارة وليس بشيء ، بل المعنى فلن أكلم اليوم إنسياً بعد هذا الكلام قاله السمين .

﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ قيل المراد بـه الصوم الشـرعي ، وهو الإمساك عن المفطرات[1] والأول أولى ، وفي قراءة أُبَيّ صوماً صمتاً بالجمع بين اللفظين، وكذا روي عن أنس وروي عنه الواو بينهما ، والذي عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت ، ويدل عليه فلن أكلم اليوم إنسياً كما سيأتي ومعنى الصوم في اللغة أوسع من المعنيين .

قال أبو عبيدة : كل ممسك من طعام أو كلام أو سير فهو صائم ، وقراءة أبي تدل على أن المراد بالصوم هنا الصمت ، لأنه تفسير للصوم ، وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما يفيده الواو ، ومعنى ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ أنها لا تكلم أحداً من الأنس بعد إخبارهم بهذا الخبر ، بل إنما تكلم الملائكة وتناجي ربها .

ولما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات ﴿ فأتت به ﴾ أي بعيسى ﴿ قومها تحمله ﴾ أي أتت مصاحبة له وكان إتيانها إليهم في المكان القصي الذي انتبذت فيه للوضع قيل:في يوم الوضع ، وقيل بعد أن طهرت ، قال ابن عباس : بعد أربعين يوماً بعدما تعالت من نفاسها ، فلما رأوا الولد معها حزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين .

﴿ قالوا ﴾ منكرين لذلك ﴿ يا مريم لقد جئت ﴾ أي فعلت، وارتكبت ﴿شيئاً فرياً﴾ عجيباً نادراً قاله أبو عبيدة ، وقال مجاهد : الْفَرِيُّ العظيم أي من الأمر يقال في الخير والشر .

وقال قطرب : الْفَرِيّ الجديد من الأسقية أي جئت بأمر بديع جديد لم

---

(١) قوله (والأول أولى) لم يذكر الأول وأصل التركيب بعد قوله : ﴿ صوماً ﴾ أي امساكاً وسكوتاً ، وقيل المراد الخ فتأمل إ هـ مصححة .

تُسبقي اليه وقيل الْفَرِيُّ القطع أي شيئاً قاطعاً وخارقاً للعادة التي هي الولادة بواسطة الأب وقال سعيد بن مسعدة : الْفَرِيُّ المختلق المفتعل ، والاسم الفرية ويقال فريت الجلد وأفريت بمعنى واحد قطعته والولد من الزنا كالشيء المفتري قال تعالى : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ .

﴿ يا أخت هارون ﴾ هذا من كلامهم أيضاً ، وقد وقع الخلاف في معنى هذه الأَخوة وفي هارون المذكور ، من هو؟ فقيل هو هارون أخو موسى ، والمعنى أن من كانت نظنها مثل هارون في العبادة كيف تأتي بمثل هذا ؟ وقيل كانت مريم من ولد هارون أخي موسى ، فقيل لها يا أخت هارون كما يقال لمن كان من العرب يا أخا العرب ، وقيل كان لها أخ من أبيها اسمه هارون ، وقيل :هارون هذا رجل صالح في ذلك الوقت شبهت به في عفتها وصلاحها ، وقيل :بل كان في ذلك الوقت رجل فاسق اسمه هارون فنسبوها اليه على جهة التعيير والتوبيخ حكاه ابن جرير ولم يسم قائله ، وهو ضعيف .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرؤون يا أخت هارون؟ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم[١] ، وهذا التفسير النبوي يغني عن سائر ما روي عن السلف في ذلك .

﴿ ما كان أبوك ﴾ أي عمران ﴿ امرأ سوء وما كانت أمك ﴾ أي حنة ﴿ بغياً ﴾ هذا فيه تقرير لما تقدم من التعيير والتوبيخ وتنبيه على أن الفاحشة من ذرية الصالحين،مما لا ينبغي أن تكون ﴿ فأشارت ﴾ أي مريم ﴿إليه﴾ أي إلى عيسى أن كلموه،وانما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق لأنها نذرت للرحمن

(١) مسلم ٢١٣٥ ـ الترمذي تفسير سورة ١٩ ـ الإمام احمد ٤/٢٥٢ .

صوماً عن الكلام ، كما تقدم هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك في أيام نذرها ، وعلى تقدير أنها قد خرجت منها فيمكن أن يقال إن اقتصارها على الإشارة للمبالغة في إظهار الآية العظيمة، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة .

﴿ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها الى ذلك المولود بأن يكلمهم ، قال أبو عبيدة : في الكلام حشو زائد والمعنى كيف نكلم صبياً في المهد .

وقال الزجاج : الأجود أن يكون ﴿مَنْ﴾ في معنى الشرط والجزاء والمعنى من يكون في المهد صبياً فكيف نكلمه ، ورجحه ابن الأنباري ، وقيل إن كان هنا التامة التي هي بمعني الحدوث والوجود ، وَرُدَّ بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر ، وقيل:إنها بمعنى صار .

وقيل: إنها الناقصة على بابها من دلالتها على اقتران مضمون الجملة بالزمان الماضي من غير تعرض للانقطاع ، ولذلك يعبر عنها بأنها ترادف لم يزل ، والمهد هو شيء معروف يتخذ لتنويم الصبي ، ولفظ القاموس المهد الموضع يهيأ للصبي ويوطأ ، والأرض كالمهاد ، والجمع مهود انتهى ، وقيل : هو هنا جحر الأم ؛ وقيل سرير كالمهد .

والمعنى كيف نكلم من سبيله أن يُنَوَّم في المهد لصغره . فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم ﴿ قال إني عبد الله ﴾ فكان أول ما نطق به الاعتراف بالعبودية لله ، لئلا يتخذوه إلهاً وفيه إزالة التهمة عن الأم لأن الله لم يختص بهذه المرتبة العظيمة من ولد في الزنا ، ووصف نفسه بصفات ثمانية ، أولها العبودية وآخرها تأمين الله له في أخوف المقامات ﴿ آتاني الكتاب ﴾ أي الانجيل ﴿ وجعلني نبياً ﴾ أي حكم لي بإيتاء الكتاب ، والنبوة في الأزل وإن لم يكن قد نزل عليه في تلك الحال ولا قد صار نبياً ، وقيل إنه آتاه الكتاب وجعله نبياً في تلك الحال وهو بعيد جداً .

وعن أنس قال : كان عيسى قد درس الإنجيل وأحكامها في بطن أمه فذلك قوله آتاني الكتاب ، وهو أبعد ، وقال عكرمة : قضى ان أكون كذلك ، ومثله قوله صلى الله عليه وسلم كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد[1] .

﴿ وجعلني مباركاً ﴾ البركة أصلها من بروك البعير والمعنى جعلني ثابتاً في دين الله ﴿ أينما كنت ﴾ وقيل البركة الزيادة والعلو فكأنه قال : جعلني في جميع الأشياء زائداً عالياً محجاً ، وقيل معنى المبارك النفاع للعباد لأنه كان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويرشد ويهدي وقيل : المعلم للخير وقيل : الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر .

وعن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم قال : جعلني نفاعاً للناس أينما اتجهت أخرجه الاسماعيلي في معجمه وأبو نعيم في الحلية .

وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : معلماً ومؤدباً ، أخرجه ابن عدي وابن عساكر ، وأينما شرطية لا استفهامية وجوابها إما محذوف وإما هو المتقدم عند من يرى ذلك .

﴿ وأوصاني ﴾ أي أمرني ﴿ بالصلاة والزكاة ﴾ أي بزكاة المال إذا ملكته ، أو تطهير النفس عن الرذائل في الوقت المعين لهما وهو البلوغ أو الآن ، قولان للمفسرين والأول أولى ﴿ ما دمت حياً ﴾ أي مدة دوام حياتي ، وهذه الأفعال الماضية هي من باب تنزيل ما لم يقع منزلة الواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه لكونه قد سبق في القضاء المبرم .

وقيل : المراد إن الله صيره حين انفصل عن أمه بالغاً عاقلاً . قال الخازن : وهذا القول أظهر ﴿ قلت ﴾ بل أبعد ويحتاج الى مستند صحيح ثابت .

---

(١) لم يرو هذا الحديث في كتاب من الكتب المعتبرة كالصحاح والمسانيد والسنن والمعاجم والمستدركات وانما رواه صاحب الحلية عن ميسرة الفحل وابن سعد من طريق ابن أبي الجدعاء .

وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

﴿ وبراً بوالدتي ﴾ اقتصر على البر بوالدته لأنه قد علم في تلك الحال أنه لم يكن له أب وقرىء براً بكسر الباء إما على حذف مضاف وإما على أنه مصدر وصف به مبالغة ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ الجبار المتعظم الذي لا يرى لأحد عليه حقاً والشقي العاصي لربه. وقيل الخائب وقيل العاق . وقال ابن عباس : شقياً عصياً ، أي بل أنا خاضع متواضع ، ومن تواضعه أنه كان يأكل ورق الشجر ويجلس على التراب ولم يتخذ له مسكناً . روي أنه قال قلبي لين وأنا صغير في نفسي .

﴿ والسلام ﴾ قال المفسرون : هو هنا بمعنى السلامة أي الأمان من الله ﴿ عليّ ﴾ والألف واللام فيه للعهد لأنه قد تقدم لفظه في قوله وسلام عليه أي ذلك السلام الموجه إلى يحيى موجه إليّ .

وقال الزمخشري : والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللعنة على متهمي مريم وأعدائها من اليهود وتحقيقه أن اللام للجنس ، أي جنس السلام عليّ خاصة ، فقد عَرَّض بأن ضده عليكم . ونظيره والسلام على من اتبع الهدى .

﴿ يوم وُلدت ﴾ فلم يضرني الشيطان في ذلك الوقت بالطعن ولا أغواني

﴿ ويوم أموت ﴾ أي ولا عند الموت ﴿ ويوم أبعث حياً ﴾ أي ولا عند البعث وإنما خص هذه المواضع لكونها أخوف من غيرها. وهذا آخر كلامه فعلموا به براءة أمه، ولم يتكلم بعد هذا الكلام، حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان في العادة.

﴿ ذلك ﴾ أي المتصف بالأوصاف الثمانية السابقة. وقال الزجاج: ذلك الذي قال: إني عبد الله ﴿ عيسى بن مريم ﴾ لا ما تقوله النصارى من أنه ابن الله وأنه إله.

﴿ قول الحق ﴾ قرىء بالنصب على المدح أو على أنه مصدر مؤكد لقال إني عبد الله، قاله الزجاج. وقرىء بالرفع على أنه نعت لعيسى. قاله الكسائي. وسمي قول الحق كما سمي كلمة الله. والحق هو الله عز وجل قاله قتادة. وقال أبو حاتم: المعنى هو قول الحق. وقيل التقدير هذا الكلام قول الحق، وهو من باب إضافة الموصوف الى الصفة مثل حق اليقين. وقيل الإضافة للبيان. وقرىء قال الحق، وروي ذلك عن ابن مسعود. وقرأ الحسن قول الحق بضم القاف، والقَوْل والقُول والقال والمقال بمعنى واحد.

﴿ الذي فيه يمترون ﴾ أي ذلك عيسى ابن مريم الذي فيه يمترون، ومعناه يختلفون على أنه من المماراة أو يشكون على أنه من المرية، وقد وقع الاختلاف في عيسى، فقالت اليهود: هو ساحر وأنه ابن يوسف النجار، وقالت النصارى: هو ابن الله أو إله.

وعن قتادة في الآية قال: اجتمع بنواسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر؛ أخرج كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط الى الأرض فأحيى من أحيى وأمات من أمات ثم صعد الى السماء. وهم اليعقوبية فقالت الثلاثة كذبت، ثم قال اثنان منهم للثالث قل فيه، فقال هو

ابن الله ، وهم النسطورية ، فقال الاثنان كذبت ، ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه ، فقال هو ثالث ثلاثة : الله إله وعيسى إله وأمه إله . وهم الاسرائيلية وهم ملوك النصارى فقال الرابع كذبت هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته ، وهم المسلمون فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال ، فاقتتلوا وظهروا على المسلمين ، فذلك قول الله سبحانه ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ .

قال قتادة : وهم الذين قال الله فيهم : فاختلف الأحزاب من بينهم ، فاختلفوا فيه فصاروا أحزاباً ، فاختصم القوم فقال المرء المسلم أنشدكم بالله هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام وأن الله لا يطعم ؟ قالوا اللهم نعم . قال فهل تعلمون أن عيسى كان ينام وأن الله لا ينام ؟ قالوا اللهم نعم ، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون ، فأنزل الله ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ .

﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ أي ما صح ولا استقام ذلك . قال الزجاج : ﴿ من ﴾ مؤكدة تدل على نفي الواحد والجماعة ، والمعنى ما كان من صفته اتخاذ الولد أي ثبوت الولد له محال .

ثم نزه الله نفسه فقال ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه وتقدس عن مقالتهم هذه . ثم صرح سبحانه بما هو شأنه ، تعالى سلطانه فقال : ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ من الأمور وهذا بمنزلة التعليل لما قبله ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي فيكون حينئذ بلا تأخير لا يتعذر عليه إيجاده على الوجه الذي أراده ، وفي إيراده في هذا الموضع تبكيت عظيم وإلزام بالحجة للنصارى ، أي من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ، وقد سبق الكلام على هذا مستوفى في البقرة .

﴿وإن الله ﴾ بفتح أن بتقدير اذكر او لأن ، واليه ذهب الزمخشري تابعاً للخليل وسيبويه ، وبكسرها بتقدير قل ، أو على الاستئناف ، وقيل على الأول

أنها عطف على الصلاة ، أي أوصاني بالصلاة وبأن الله ، واليه ذهب الفراء ، ولم يذكر مكي غيره ، وقيل على الثاني عطف على قوله إني عبد الله ، وهو من البعد بمكان ﴿ ربي وربكم فاعبدوه ﴾ هذا من تمام كلام عيسى بدليل ما قلت لهم إلا ما أمرتني الآية .

﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ أي الذي ذكرته لكم من أنه ربي وربكم ، هو الطريق القيم الذي لا اعوجاج فيه ولا يضل سالكه ﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ من بينهم ﴾ أي فاختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى ، فأفرطت النصارى وغلت وفرطت اليهود وقصرت ، ومن زائدة وقيل للتبعيض إذ بقي منهم فرقة أخرى مؤمنة يقولون إنه عبد الله كما تقدم .

﴿ فويل للذين كفروا ﴾ وهم المختلفون في أمره ، عبر عنهم بالموصول إيذاناً بكفرهم جميعاً وإشعاراً بعلة الحكم ﴿ من مشهد يوم عظيم ﴾ أي من شهود يوم القيامة وما يجري فيه من الحساب والجزاء والعقاب ، أو من مكان الشهود فيه ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم . وقيل المعنى فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور .

﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا في موضع التعجب فيقولون أسمع بزيد وأبصر به ، أي ما أسمعه وأبصره ، فعجب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم منهم . وقال السمين : هذا لفظ أمر ومعناه التعجب ، وقيل بل هو أمر حقيقة ، والمأمور هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أسمع الناس وأبصرهم بهم وبحالهم ، ماذا تصنع بهم من العذاب ، وهو منقول عن أبي العالية ، وقال ابن عباس : يقول الكفار يومئذ : أسمع شيء وأبصره ، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون .

﴿ يوم يأتوننا ﴾ للحساب والجزاء ﴿ لكن الظالمون ﴾ الأصل لكنهم وهو من إقامة الظاهر مقام المضمر للإيذان بأنهم في ذلك ظالمون لأنفسهم

﴿ اليوم ﴾ أي في الدنيا ﴿ في ضلال ﴾ أي خطأ ﴿ مبين ﴾ أي واضح ظاهر ، ولكنهم اغفلوا التفكر والاعتبار والنظر في الآثار ﴿ وأنذرهم ﴾ أي خوّف يا محمد كفار مكة ﴿ يوم الحسرة ﴾ أي يوم يتحسرون جميعاً ، فالمسيء يتحسر على إساءته، والمحسن على عدم استكثاره من الخير .

وعن ابن عباس قال : يوم الحسرة هو من أسماء يوم القيامة ، وقرأ ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾، وفي سنده علي ابن أبي طلحة وهو ضعيف ، والآية التي استدل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام .

﴿ إذ قضي الأمر ﴾ من الحساب وطويت الصحف وصار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ﴿ وهم في غفلة ﴾ أي غافلين عما يعمل بهم وتلك الحال متضمنة للتعليل ، أي أنذرهم لأنهم في حالة يحتاجون فيها إلى الانذار ، وهي الغفلة والكفر .

﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ به ، أخرج البخاري ومسلم وغيرهم ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون ، وينظرون اليه ، فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون اليه فيقولون نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه فيؤمن به فيذبح ، ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ؛ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ الآية وأشار بيده فقال أهل الدنيا في غفلة[1] . وأخرج النسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

---

(١) مسلم ٢٨٤٩ ـ البخاري ١٠٢٤ .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾

﴿ إنّا نحن ﴾ تأكيد للضمير في إنا لأنه بمعناه ﴿ نرث الأرض ﴾ أي نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات ، فكأنه سبحانه ورث الأرض ﴿ ومن عليها ﴾ حيث أماتهم جميعاً ﴿ وإلينا يرجعون ﴾ أي يردون إلينا يوم القيامة فنجازي كلاً بعمله ، وقد تقدم مثل هذا في سورة الحجر .

﴿ واذكر ﴾ لكفار مكة ﴿ في الكتاب إبراهيم ﴾ أي خبره والمراد بذكر الرسول إياه في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس كقوله : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ فالمراد ما ذكر ، وإلا فالذاكر له هو الله في كتابه ، وعاش إبراهيم من العمر مائة وخمساً وسبعين سنة ؛ وبينه وبين آدم ألفا سنة ، وبينه وبين نوح ألف سنة ذكره السيوطي[1] وفي التحبير ﴿إنه كان صديقاً نبياً﴾ تعليل لما تقدم من الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يذكره ، وهي معترضة ما بين البدل والمبدل منه والصديق كثير الصدق بليغه أي اذكر ابراهيم الجامع لهذين الوصفين ، ولما ثبت أن كل نبي يجب أن يكون صديقاً ولا يجب في كل صديق أن يكون نبياً ، ظهر بهذا قرب مرتبة الصديق من مرتبة النبي ، فلهذا انتقل من ذكر كونه صديقاً إلى ذكر كونه نبياً .

---

(١) السيوطي يرجع في هذا إلى نقل عن التوراة في سفر التكوين مشوه ، وليس له سند في الإسلام .

﴿إذ قال لأبيه﴾ بدل اشتمال من إبراهيم وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة، وأبو ابراهيم هو آزر على ما تقدم تقريره ﴿يا أبت﴾ التاء عوض عن الياء ولهذا لا يجتمعان ﴿لم تعبد﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي لأي شيء ولأي سبب تعبد ﴿ما لا يسمع﴾ ما تقوله من الثناء عليه، والدعاء له ﴿ولا يبصر﴾ ما تفعله من عبادته؛ ومن الأفعال التي تفعلها مريداً بها الثواب، ويجوز أن يحمل نفي السمع والإبصار على ما هو أعم من ذلك أي لا يسمع شيئاً من المسموعات ولا يبصر شيئاً من المبصرات.

﴿ولا يغني عنك شيئاً﴾ من الأشياء فلا يجلب لك نفعاً؛ ولا يدفع عنك ضرراً، وهي الأصنام التي كان يعبدها آزر، أورد ابراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح وصدر كلا منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه، وامتثالاً لأمر ربه، ووصف الأصنام بثلاثة أشياء كل واحد منها قادح في الإلهية، ورتب هذا الكلام على غاية الحسن، ثم كرر دعوته الى الحق فقال:

﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ أي بعض العلم وهو علم الوحي أو التوحيد أو الآخرة أقوال ثلاثة ذكرها أبو حيان فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل الى أبيه، وأنه قد تجدد له حصول ما يتوصل به منه الى الحق ويقتدر به على إرشاد الضال، ولهذا أمره باتباعه فقال: ﴿فاتبعني﴾ في الإيمان، والتوحيد ﴿أهدك صراطاً سوياً﴾ مستوياً موصلاً الى المطلوب منجياً من المكروه ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال:

﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطعه فإن عبادة الأصنام هي من طاعة الشيطان ثم علل ذلك بقوله: ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ حين ترك ما أمره به من السجود لآدم. ومن أطاع من هو عاص لله سبحانه فهو عاصٍ لله، والعاصي حقيق بأن تسلب عنه النعم وتحل به النقم، قال

الكسائي : العصي والعاصي واحد ، ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال : ﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ﴾ إن لم تتب.

قال الفراء : معنى أخاف هنا أعلم وبه فسر الأقلون الآية ، واليه أشار في التقرير وقال الأكثرون : إن الخوف هنا محمول على ظاهره لأن ابراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر ، إذ لو كان جازماً بذلك لم يشتغل بنصحه ، فوجب إجراؤه على ظاهره ، ومعنى الخوف على الغير، هو أن يظن وصول الضرر إلى ذلك الغير .

﴿ فتكون للشيطان ولياً ﴾ أي أنك إن أطعت الشيطان كنت معه قريناً في النار واللعنة . فتكون بهذا السبب موالياً له أو تكون بسبب موالاته في العذاب معه ، وليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه :﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو﴾.وقيل الولي بمعنى التالي ؛ وقيل بمعنى القريب .

قال الشهاب : الْوَلِيُّ من الوَلِيْ وهو القرب ، وكل من المتقاربين قريب من صاحبه أي تكون للشيطان قريباً منه في النار ، تليه ويليك ، فلما مرت هذه النصائح النافعة والمواعظ المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلظة والفظاظة والقسوة المفرطة ، حيث :

﴿ قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ ناداه باسمه ولم يقابل يا أبت بيا بني وأخره وقدم الخبر على المبتدأ . وصدره بهمزة الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب ، ولإنكار نفس الرغبة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل . والمعنى أمعرض أنت عن ذلك ومنصرف الى غيره . ثم توعده وهدده فقال : ﴿ لئن لم تنته ﴾ عن مقالتك فيها أو الرغبة عنها ، واللام للقسم ﴿ لأرجمنك ﴾ بالحجارة حتى تموت ، وقيل باللسان فيكون معناه لأشتمنك . قاله ابن عباس ، وقيل معناه لأضربنك وقيل لأبعدنك عني بالقول القبيح ، وقيل لأظهرن أمرك فاحذرني ﴿ واهجرني ملياً ﴾ أي زماناً طويلاً . وقال ابن عباس حيناً . قال الكسائي : يقال هجرته ملياً وملوة وملاوة ، بمعنى الملاوة من

الزمان وهو الطويل .

وقيل معناه اعتزلني سالم العرض سوياً لا تصيبك مني معرة ، واختار هذا ابن جرير وعن ابن عباس قال : اجتنبني سوياً واجتنبني سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة وعن عكرمة : ملياً دهراً ، وعن قتادة : سالماً ، وعن الحسن مثله ، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد ﴿ قال سلام عليك ﴾ أي تحية توديع ومقاطعة ومتاركة ، كقوله تعالى : وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .

وقيل معناه أمنة مني لك . قاله ابن جرير . وانما أمنه مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله والأول أولى وبه قال الجمهور .

وقيل معناه الدعاء له بالسلامة استمالة له ورفقاً به ، وهذا في مقابلة قوله : لئن لم تنته ، وهذا مقابلة للسيئة بالحسنة . ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من الله سبحانه تألفاً له وطمعاً في لينه وذهاب قسوته .

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

فقال : ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ وكان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على كفره وتحق عليه الكلمة . ولهذا قال الله سبحانه في موضع آخر : ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾بعد قوله :﴿وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها أياه﴾ وقيل المراد باستغفاره له طلب توفيقه للإيمان الموجب للمغفرة ، أي سأسأل لك ربي توبة تنال بها المغفرة ، يعني الإسلام، والاستغفار للكافر بهذا الوجه جائز ، كأنه يقول اللهم وفقه للإسلام أو تب عليه واهده . قاله الكرخي والصحيح هو الأول .

﴿إنه كان بي حفياً﴾ تعليل لما قبلها ، والمعنى سأطلب لك المغفرة من الله ، فإنه كان بي كثير البر واللطف . يقال حفي به وتحفى اذا بره . قال الكسائي . يقال حفي بي حفاوة وحفوة أي اعتنى بي وبالغ في إكرامي والطافي . وقال الفراء : حفياً أي عالماً لطيفاً يجيبني إذا دعوته . وبه قال ابن عباس . والحفي أيضاً المستقصي في السؤال ، ومنه كأنك حفي عنها .

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

ثم صرح الخليل بما تضمنه سلامه من التوديع والمتاركة فقال: ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ أي أهاجر بديني عنكم وعن معبوداتكم حيث لم تقبلوا نصحي ولا نجعت فيكم دعوتي ، وهذا في مقابلة قوله : واهجرني ملياً .

﴿ وأدعو ربي ﴾ وحده ﴿ عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ أي خائباً كما شقيتم بعبادة الأوثان . وقيل عاصياً قيل:أراد بهذا الدعاء هو أن يهب الله له ولداً وأهلاً يستأنس بهم في اعتزاله ويطمئن اليهم عند وحشته ، وفي تصدير الكلام بعسى التواضع وهضم النفس والتنبيه على أن الإجابة والإثابة تفضل منه تعالى غير واجبين وأن ملاك الأمر خاتمته وهو غيب .

وقيل:أراد دعاءه لأبيه بالهداية ، وعسى للشك لأنه كان لا يدري أيستجاب له فيه أم لا ، والأول أولى لقوله:

﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾ أي بأن ذهب مهاجراً من بابل أو كوثي الى الأرض المقدسة ﴿ وهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ أي جعلنا هذين الموهوبين له أهلاً وولداً بدل الأهل الذين فارقهم يأنس بهما . وهذا يقتضي أنه عاش حتى رأى يعقوب وهو كذلك ، كما مرت الإشارة اليه في قوله : فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، وخصهما لأنه سيذكر إسماعيل بفضله منفرداً قال ابن عباس : وهبنا له إسحاق ابناً ويعقوب ابن ابنه ﴿ وكُلًّا ﴾ مفعول لجعلنا قدم عليه للتخصيص ، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا بالنسبة الى من عداهم ، أي كل واحد منهم ﴿ جعلنا نبياً ﴾ لا

بعضهم دون بعض .

﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴾ أي للثلاثة بأن جعلناهم أنبياء ، وذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوة هي من باب الرحمة . وقيل المراد بالرحمة هنا المال وسعة الرزق ، وقيل كثرة الأولاد ، وقيل الكتاب ، ولا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور . ومن للتبعيض .

﴿ وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ أي الثناء الحسن قاله ابن عباس ، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به ، كما عبر باليد عن العطية ، وإضافته الى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد ، ففي اللسان مجاز مرسل من اطلاق اسم الآلة وإرادة ما ينشأ منها . والمعنى وجعلنا لهم ثناء صادقاً يذكرهم الأمم كلها الى يوم القيامة ، بما لهم من الخصال المرضية ، ويصلون على ابراهيم وعلى آله الى قيام الساعة ، وهذا توبيخ لكفار مكة إذ كان مقتضى ترضيهم وثنائهم على المذكورين أن يتبعوهم في الدين مع أنهم لم يفعلوا .

ثم قفى الله سبحانه قصة ابراهيم بقصة موسى لأنه تِلوه في الشرف ، وقدمه على إسماعيل لئلا يفصل بينه وبين ذكر يعقوب فقال :

﴿ واذكر في الكتاب ﴾ أي واقرأ عليهم من القرآن قصة ﴿ موسى إنه كان مخلصاً ﴾ بفتح اللام أي جعلناه مختاراً وأخلصناه ، وقرىء بكسرها أي أخلص العبادة والتوحيد لله غير مراء للعباد ﴿ و ﴾ أنه ﴿ كان رسولاً نبياً ﴾ أي أرسله الله الى عباده فأنبأهم عن الله بشرائعه التي شرعها لهم ، فهذا وجه ذكر النبي بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوة ، فكأنه أراد بالرسول معناه اللغوي لا الشرعي ، والله أعلم .

وقال النيسابوري : الرسول النبي الذي معه كتاب والنبي الذي ينبىء عن الله عز وجل وان لم يكن معه كتاب ، وكان المناسب ذكر الأعم قبل الأخص إلا أن رعاية الفواصل اقتضت عكس ذلك ؛ كقوله في طه : ﴿ رب هرون وموسى ﴾. قال مجاهد : النبي هو الذي يكلم وينزل عليه ولا يرسل ،

وفي لفظ الأنبياء الذين ليسوا برسل يوحى الى أحدهم ولا يرسل الى أحد ، والرسل الأنبياء الذي يوحى اليهم ويرسلون .

﴿ وناديناه ﴾ أي كلمناه كما في سورة القصص في قوله :﴿فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين﴾ ﴿ من جانب الطور الأيمن ﴾ أي من ناحيته اليمنى ، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير .

ومعنى الأيمن أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى حين أقبل من مدين متوجهاً الى مصر فإن الشجرة كانت في ذلك الجانب والنداء وقع منها ؛ وليس المراد يمين الجبل نفسه ، فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال ، وقيل معنى الأيمن الميمون . ومعنى النداء أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب .

قال قتادة : جانب الجبل الأيمن . وهذا صريح في أن المراد بالطور هو الذي عند بيت المقدس ، لا الطور الذي عند السويس ، لأنه يكون على يسار المتوجه من مدين الى مصر كما هو محسوس ﴿ وقربناه نجياً ﴾ أي أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه ، والنجي بمعنى المناجي كالجليس والنديم ؛ فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام، مثلت حاله بحال من قربه الملك لمناجاته .

قال الزجاج : قرّبه منه في المنزلة حتى سمع مناجاته . وقيل: إن الله سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم ، روي هذا عن بعض السلف ، وبه قال أبو العالية ، وروي نحوه عن جماعة من التابعين قال ابن عباس حتى سمع صريف القلم يكتب في اللوح المحفوظ وأخرجه الديلمي عنه مرفوعاً قال قتادة : في نجيا نجي بصدقه .

﴿ ووهبنا له من رحمتنا ﴾ أي من نعمتنا ، وفي ﴿ من ﴾ هذه وجهان . أحدهما أنها تعليلية أي من أجل رحمتنا ، والثاني انها تبعيضية ، أي بعض رحمتنا ﴿ أخاه هرون نبياً ﴾ وذلك حين سأل ربه وقال : واجعل لي وزيراً من أهلي . هرون أخي قال ابن عباس : كان هرون أكبر من موسى ، أي بأربع سنين ، ولكن إنما وهب له نبوته .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾

﴿ واذكر في الكتاب إسمعيل إنه كان صادق الوعد ﴾ وصف الله سبحانه إسمعيل بصدق الوعد مع كون جميع الأنبياء كذلك ، لأنه كان مشهوراً بذلك مبالغاً فيه ، وناهيك أنه وعد الصبر من نفسه على الذبح ، فوفى بذلك وكان ينتظر لمن وعده بوعد الأيام والليالي ، حتى قيل: إنه انتظر لبعض من وعده حولاً ؛ والمراد بإسماعيل هنا هو اسماعيل بن ابراهيم ، ولم يخالف في ذلك إلا من لا يعتد به ، فقال هو إسمعيل بن حزقيل بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله فيما شاء من عذابهم ، وثوابه فاستعفاه ورضي بثوابه .

﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ قد استدل بهذا الى أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة ، فإن أولاد ابراهيم كانوا على شريعته ، وقيل انه وصفه بالرسالة لكون ابراهيم أرسله إلى جرهم ، وهم قبيلة من عرب اليمن نزلوا على هاجر أم اسماعيل بوادي مكة ﴿ وكان يأمر أهله ﴾ المراد به هنا أمته وقيل جرهم وقيل عشيرته ، كما في قوله :(وأنذر عشيرتك الأقربين).

والمراد ﴿ بالصلاة والزكاة ﴾ هنا هما العبادتان الشرعيتان ، ويجوز أن يراد معناهما اللغوي ﴿ وكان عند ربه مرضياً ﴾ أي رضياً زاكياً صالحاً ، والمعنى قائماً

لله بطاعته . وقيل رضيه لنبوته ورسالته ، وهذا نهاية في المدح لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعة بأعلى الدرجات قال الفراء والكسائي : من قال مرضي بني على رضيت ، قال وأهل الحجاز يقولون مرضوي .

﴿ واذكر في الكتاب إدريس﴾ هو ابن شيث بن آدم لصلبه ، أفاده السيوطي في التحبير واسمه أخنوخ . قيل هو جد نوح ، فإن نوحاً هو ابن لمك ابن متوشلخ ابن أخنوخ ، وعلى هذا فيكون جد أبي نوح ، ذكره الثعلبي وغيره ، وقد قيل إن هذا خطأ ، وامتناع إدريس للعجمة والعلمية .

وقولهم سمي به لكثرة دراسته الكتب لا يصح ، لأنه لو كان إفعيلاً من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفاً ، وهو أول مرسل بعد آدم عليه السلام وأول من أعطى النبوة من بني آدم وأول من خط بالقلم ، ونظر في النجوم والحساب وأول من خاط الثياب وأول من اتخذ السلاح . وقاتل الكفار .

﴿ انه كان صديقاً نبياً ﴾ وذلك ان الله شرفه بالنبوة ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة . وقد اختلف في معنى قوله : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ فقيل ان الله رفعه الى السماء الرابعة . وقيل الى السادسة وقيل الى الثانية . وقد روى البخاري في صحيحه من حديث الإسراء، وفيه : « ومنهم إدريس في الثانية »[1] وهو غلط من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر ، والصحيح : « أنه في السماء الرابعة » كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم[2] .

---

(١) البخاري ١٦٨٤ .

(٢) مسلم ١٦٢ .

وقيل ان المراد برفعه ما أعطيه من شرف النبوة والزلفى عند الله ، وقيل إنه رفع الى الجنة . وقيل هو الرفعة بعلو المرتبة في الدنيا والأول أصح ؛ عن ابن عباس قال : كان إدريس خياطاً ، وكان لا يغرز غرزة إلا قال سبحان الله ؛ وكان يمسي حين يمسي وليس على الأرض أفضل عملاً منه ، فاستأذن ملك من الملائكة ربه فقال يا رب ائذن لي فأهبط الى إدريس ، فأذن له ، فأتى إدريس فقال : إني جئتك لأخدمك ، قال كيف تخدمني وأنت ملك وأنا إنسان، ثم قال إدريس هل بينك وبين ملك الموت شيء ؟ قال الملك : ذاك أخي من الملائكة ، قال هل تستطيع أن تنفعني ؟ قال أما نؤخر شيئاً أو نقدمه فلا ، ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت ، فقال اركب بين جناحي ، فركب إدريس فصعد الى السماء العليا فلقي ملك الموت وإدريس بين جناحيه ، فقال له الملك : إن لي إليك حاجة قال علمت حاجتك ، تكلمني في إدريس وقد محي اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين ، فمات إدريس بين جناحي ملك أخرجه ابن أبي حاتم، وعنه سألت كعباً فذكر نحوه فهذا هو من الإسرائيليات التي يرويها كعب . وعنه قال رفع إدريس الى السماء السادسة .

وأخرج الترمذي وصححه وابن المنذر وابن مردويه قال : حدثنا أنس بن مالك عن النبي (ﷺ) قال : لما عرج بي رأيت إدريس في السماء الرابعة[1] . وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه ، وعن مجاهد قال : رفع إدريس كما رفع عيسى ولم يمت . وعن ابن مسعود قال : إدريس هو الياس ، وحسنه السيوطي ﴿ أولئك ﴾ خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم والإشارة الى الأنبياء المذكورين من أول السورة إلى هنا ، وهم عشرة أولهم في الذكر زكريا وآخرهم فيه إدريس ، وهو مبتدأ وقوله: ﴿ الذين أنعم الله عليهم ﴾ صفته و﴿ من النبيين ﴾ بيان للموصول من بيان العام بالخاص

(١) الترمذي تفسير سورة ١٩ ـ الإمام احمد ٣/٢٦٠ .

و ﴿ من ذرية آدم ﴾ بدل منه بإعادة الخافض، وقيل (من)فيه للتبعيض ، يعني إدريس ونوحاً .

﴿ وممن حملنا مع نوح ﴾ أي من ذرية من حملنا معه في السفينة ، وهم من عدا إدريس ، فإن إدريس من ذرية آدم لقربه منه ، وابراهيم من ذرية من حمل مع نوح لأنه من ذرية سام بن نوح ، فإن ابراهيم بن آزر وبينه وبين نوح عشرة قرون كما في التحبير .

﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾ وهم الباقون ﴿ و ﴾ من ذرية ﴿ إسرائيل ﴾ وهو يعقوب ؛ وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية . وقيل إنه أراد بقوله من ذرية آدم إدريس وحده ، وبقوله ممن حملنا مع نوح ابراهيم وحده ، وبقوله ومن ذرية ابراهيم ، إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وبقوله إسرائيل موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ، قال السدي : هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم ، أما من ذرية آدم فإدريس ونوح وأما من ذرية من حمل مع نوح فإبراهيم ، وأما ذرية ابراهيم فإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وأما ذرية إسرائيل فموسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ، لأن مريم من ذريته .

﴿ وممن هدينا ﴾ أي من جملة من هدينا الى الإسلام ﴿ واجتبينا ﴾ بالإيمان وقيل على الأنام وهذا آخر الصفات ، والتقدير والكائنين ممن هدينا الخ ، واعلم أنه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الأنبياء بما يخصه من الثناء ، ثم جمعهم آخراً فقال أولئك الخ ، فرتب تعالى أحوال الأنبياء الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبهاً بذلك على أنهم كما فضلوا بأعمالهم فلهم منزلة في الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء ، ثم بين أنهم ممن هدينا واجتبينا منبهاً بذلك على أنهم خصوا بهذه المنازل لهداية الله لهم ، ولأنه اختارهم للرسالة .

﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ وهذا خير

لأولئك ، ويجوز أن يكون الخبر هو الذين أنعم الله عليهم ، وهذا استئناف لبيان خشوعهم لله وخشيتهم منه ، والسجد والبُكِيّ جمع ساجد قياساً وباك على غير قياس، وقياسه بكاة ، كقاض وقضاة ، وقد تقدم في سبحان بيان معنى خروا سجداً ، يقال بكى يبكي بكاء وبكياً ؛ قال الخليل: إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن، أي ليس معه صوت ، ومنه قول الشاعر :

بكت عيني وحق لها بكاها وما يغني البكاء ولا العويل

قال الزجاج: قد بين الله أن الأنبياء كانوا اذا سمعوا آيات الله بكوا وسجدوا خضوعاً وخشوعاً وخوفاً وحذراً، والمراد من الآيات ما خصهم به من الكتب المنزلة عليهم ، وقيل المراد بها ذكر الجنة والنار والوعد والوعيد؛ وفيه استحباب البكاء وخشوع القلب عند سماع القرآن .

قال صالح المري : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وفي الحديث : اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا[1] . وعن ابن عباس : اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه ، وقد استدل بهذه على مشروعية سجود التلاوة ، وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن ، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند تلاوة هذه الآية ، وقال بعضهم : إنه الصلاة .

وقال الرازي : يحتمل أنهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بالسجود فيفعلوا ذلك لأجل ذكر السجود في الآية .

ولما مدح الله سبحانه هؤلاء الأنبياء بهذه الصفات ترغيباً لغيرهم في الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم ، ذكر أضدادهم تنفيراً للناس على طريقتهم فقال :

---

(١) ابن ماجة كتاب الإقامة باب ١٧٦ ـ كتاب الزهد باب ٦٩ .

۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾

﴿ فخلف ﴾ أي وجد وحدث ﴿ من بعدهم ﴾ أي من بعد النبيين المذكورين ﴿ خلف ﴾ أي عقب سوء . قال أهل اللغة : يقال لعقب الخير والصدق خلف بفتح اللام ، ولعقب الشر والسوء خلف بسكون اللام ، وقد قدمنا الكلام على هذا في آخر الأعراف .

﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ أي أخروها عن وقتها ، قاله الأكثر ، وهو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى يأتي المغرب ، وقيل أضاعوا الوقت، وقيل كفروا بها وجحدوا وجوبها ، وقيل لم يأتوا بها على الوجه المشروع . وقيل تركوها كاليهود والنصارى ، والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضاً من فروضها أو شرطاً من شروطها أو ركناً من أركانها فقد أضاعها ، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة أو جحدها دخولاً أولياً .

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية ، فقيل في اليهود وقيل في النصارى وقيل في قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يأتون في آخر الزمان . وقال بالأولين السدي . وقال بالثالث مجاهد ، ولفظه هم من هذه الأمة يتراكبون في الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ولا يخافون من الله في السماء ، وعن ابن مسعود قال : ليس إضاعتها تركها ، قد يضيع الإنسان الشيء ولا يتركه. ولكن إضاعتها اذا لم يصلها لوقتها .

﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ أي فعلوا ما تشتهيه أنفسهم وترغب اليه من المحرمات كشرب الخمر والزنا ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ هو الشر عند أهل اللغة كما أن الخير هو الرشاد . والمعنى أنهم سيلقون شراً لا خيراً .

وقيل الغي الضلال . وقيل الخيبة وقيل الخسران وقيل الهلاك وقيل العذاب وقيل هو اسم واد في جهنم تستعيذ من حره أوديتها أعد للزناة وشربة الخمر وشهاد الزور وأكلة الربا والعاقين لوالديهم .

وقيل في الكلام حذف . والتقدير سيلقون جزاء الغي . قاله الزجاج . ومثله قوله سبحانه : يلق أثاماً . أي جزاء أثام .

أخرج أحمد وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم ، عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا هذه الآية قال : يكون خلف من بعد ستين سنة ؛ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غياً ، ثم يكون خلف يقرأون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة ؛ مؤمن ومنافق وفاجر[1].

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل اللبن قلت : يا رسول الله ما أهل الكتاب؟ قال قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا ، قلت : ما أهل اللبن ؟ قال قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات[2] .

وعن عائشة أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة وتقول : لا تعطوا منها بربرياً ، ولا بربرية ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٧٤ .
(٢) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٧٤ .

هم الخلف الذين قال الله فخلف من بعدهم خلف[١] ، أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه .

وعن ابن مسعود قال : الغي نهر أو واد في جهنم من قيح بعيد القعر خبيث الطعم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات ، وقد قال بأنه واد في جهنم ، البراء بن عازب ، وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً ، ثم ينتهي إلى غي ، وأثام ؛ قلت: وما غي؟ وأثام ؟ قال نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللذان ذكر الله في كتابه فسوف يلقون غياً ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً.

وأخرج ابن مردويه؛ عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : الغي واد في جهنم.

﴿ إلا من تاب ﴾ مما فرط منه من تضييع الصلاة واتباع الشهوات فرجع إلى طاعة الله ﴿ وآمن ﴾ به ﴿ وعمل ﴾ عملاً ﴿صالحاً﴾ الاستثناء منقطع قاله الزجاج وجرى أبو حيان وغيره على أنه متصل ، وهو ظاهر الآية ، لما روي عن قتادة أنها في حق هذه الأمة ، ويجوز أن يحمل على التغليظ ، كما قال تعالى : ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ وبهذا التأويل يحسن قول قتادة . إن هذا الكلام نازل في شأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل في هذا الاستثناء دليل على أن الآية في الكفرة لا في المسلمين .

﴿ فأولئك يدخلون الجنة ﴾ بفتح الياء وضم الخاء ، وقرىء بضم الياء

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٢٤٤ .

وفتح الخاء ﴿ ولا يظلمون شيئاً ﴾ أي لا ينقص من أجورهم شيء ، وان كان قليلاً ، فإن الله سبحانه يوفي أجورهم اليهم ﴿ جنات عدن ﴾ قرىء بالرفع على الابتداء وقرىء بالنصب على البدل من الجنة بدل البعض ، لكون جنات عدن ، بعضاً من الجنة ، وعلى المدح أيضاً .

قال أبو حاتم : ولولا الخط لكان جنة عدن ، يعني بالإفراد مكان الجمع وليس هذا بشيء ، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التي هي بمنزلة الأنواع للجنس ، وقرىء بصرف عدن ؛ ومنعها عن الصرف ، على أنها علم بمعنى العدن ؛ وهو الإقامة أي بساتين إقامة وصفها بالدوام بخلاف جنات الدنيا فإنها لا تدوم ، أو علم لأرض الجنة لكونها مقام إقامة .

﴿ التي وعد ﴾ ها ﴿ الرحمن عباده ﴾ متلبسة أو متلبسين ﴿ بالغيب ﴾ والمعنى أنهم لا يرونها فهي غائبة عنهم ، أو هم غائبون عنها ﴿ إنه ﴾ أي الرحمن ، وقيل إنه ضمير الشأن والأمر لأنه مقام تعظيم وتفخيم ﴿ كان وعده ﴾ أي موعوده على العموم فيدخل فيه الجنات دخولاً أولياً ، وقيل الوعد مصدر على بابه ﴿ مأتياً ﴾ أي هم يأتونها ، قال الفراء : لم يقل آتياً لأن كل ما أتاك فقد أتيته ، وكذا قال الزجاج ، وقال الزمخشري : كان وعده مفعولاً لا منجزاً .

﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ هو الهذر ، والفضول من الكلام الذي يلغى ولا طائل تحته ، وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم ، وقيل اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله ﴿إلا سلاماً ﴾ هو استثناء منقطع أي سلام بعضهم على بعض أو سلام الله أو سلام الملائكة عليهم ، وقال الزجاج : السلام اسم جامع للخير ، لأنه يتضمن السلامة ، والمعنى أن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم ؛ وانما يسمعون ما يسلمهم ؛ وأبدى الزمخشري فيه ثلاثة أوجه ذكرها سليمان الجمل .

﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ قال المفسرون : ليس في الجنة بكرة ولا عشية ولا نهار ولا ليل بل ضوء ونور أبداً ، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء في الدنيا ، وبه قال ابن عباس وإنما يعرفون الليل بإرخاء الحجب ، وغلق الأبواب،والنهار بفتحها ورفع الحجب ، كما روي،والرزق في البكرة والعشي ، أفضل العيش عند العرب ، وقيل أراد دوام الرزق .

أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن الحسن وأبي قلابة قالا : قال رجل يا رسول الله هل في الجنة من ليل ؟ قال وما هيجك على هذا؟ قال سمعت الله يذكر في الكتاب : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ فقلت الليل من البكرة والعشي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس هناك ليل وإنما هو ضوء ونور يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو ، تأتيهم طرف الهدايا من الله بمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة .

﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا أحوالها نورثها ونعطيها وننزل بها من كان من أهل التقوى ، كما يتقي على الوارث مال مورثه ، ولا يرد كالميراث الذي يأخذه الوارث فلا يرجع فيه المورث ، أي نبقيها عليهم من ثمرة تقواهم ، قرىء نورث بفتح الواو وتشديد الراء من ورّث مضعفاً وبالتخفيف ، وقرأ الأعمش نورثها بإبراز عائد الموصول .

وقيل في الكلام تقديم وتأخير ، أي نورث من كان تقياً من عبادنا والوراثة أقوى لفظ يستعمل في التمليك ، والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا تبطل بردّ ولا إسقاط ، وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار ، لو أطاعوا زيادة في كرامتهم .

والآية تدل على أن المتقي يدخلها ، وليس فيها دلالة على أن غير المتقي لا يدخلها ، وأيضاً صاحب الكبيرة متق عن الكفر ﴿ وما نتنزل إلا بـأمر ربك ﴾ أي قال الله سبحانه قل يا جبريل ، وما نتنزل وقتاً غب وقت ، الا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استبطأ نزول جبريل عليه حين سألوه في أمر الروح ، وأصحاب الكهف ، وذي القرنين ، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تتنزل الا بأمر الله ، قيل احتبس جبريل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً ، وقيل خمسة عشر ، وقيل اثني عشر ، وقيل ثلاثة أيام ، وقيل إن هذا حكاية عن أهل الجنة ، وإنهم يقولون عند دخولها وما نتنزل هذه الجنان الا بأمـر ربك ، والأول أولى بدلالة ما قبله ، ومعناه يحتمل وجهين :

الأول : وما نتنزل عليك إلا بأمر ربك لنا بالتنزل .

والثاني : وما نتنزل عليك الا بأمر ربك الذي يأمرك به بما شرعه لك ولأمتك.والتنزل : النزول على مهل فإنه مطاوع نزل بالتشديد وقد يطلق على مطلق النزول كما يطلق نزل المشدد بمعنى أنزل .

وقد أخرج البخاري وغيره ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟[1] فنزلت هذه الآية الى آخرها وكان ذلك الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وفي الباب روايات تدل على أنه السبب في النزول ، ثم أكد جبريل ما أخبر به النبي (ﷺ) فقال .

﴿ له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ﴾ أي من الجهات والأماكن أو من الأزمنة الماضية والمستقبلة وما بينهما من الزمان أو المكان الذي نحن فيه ، فلا نقدر أن ننتقل من جهة إلى جهة ، ومن مكان الى مكان أو من زمان

---

(١) البخاري كتاب التوحيد باب ٢٨ ـ الإمام احمد ١/٢٣١ .

الى زمان الا بأمر ربك ومشيئته ، وقيل المعنى له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة . قاله سعيد بن جبير .

وقيل ما أمامنا من أمور الآخرة وما خلفنا من أمور الدنيا وما بين ذلك أي ما يكون من هذا الوقت الى قيام الساعة ، وقيل هو ما بين النفختين قاله قتادة ، وقبل الأرض التي بين أيدينا اذا نزلنا والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض وقيل ما مضى من أعمارنا وما غبر منها ؛ والحالة التي نحن فيها وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى : ان الله سبحانه هو المحيط بكل شيء : لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، فلا نقدم على أمر الا بإذنه ، وقال ما بين ذلك ولم يقل ما بين ذينك لأن المراد ما بين ما ذكرنا كما في قوله سبحانه عوان بين ذلك .

﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ ناسياً أي لم يَنْسَكَ ولم يتركك وإن تأخر عنك الوحي وقيل المعنى أنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئاً ، وقيل المعنى وما كان ريك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذي يرسل فيه رسله .

أخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن مردويه والطبراني والبيهقي والحاكم وصححه عن أبي الدرداء رفع الحديث ، قال : ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ثم تلا : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾[1] ومن حديث جابر عند ابن مردويه مثله .

---

(١) المستدرك كتاب التسير ٢ / ٣٧٥ .

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾

﴿ رب السموات والأرض ﴾ أي خالقهما ﴿ و ﴾ خالق ﴿ ما بينهما ﴾ ومالكهما ومالك ما بينهما ومن كان هكذا فالنسيان محال عليه. وكيف يتصور أن يحوم حول ساحته الغفلة؟ ،وفيه دليل على أن فعل العبد خلق الله لأنه حاصل بين السموات والأرض ، ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعبادته ، والصبر عليها فقال :

﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ الفاء للسببية لأن كونه لا ينساك ، وكونه رب العالمين ، سبب موجب لأن يعبد ، وعدى فعل الصبر باللام دون على التي يتعدى بها لتضمنه معنى الثبات ﴿ هل تعلم له سمياً ؟ ﴾ الاستفهام للإنكار ، والمعنى أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه ، فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له هذا مبني على ان المراد بالسَّمِيِّ، هو الشريك في المسمى .

وقيل المراد به الشريك في الاسم ، كما هو الظاهر من لغة العرب فقيل المعنى أنه لم يسم شيء من الأصنام ولا غيرها بالله قط يعني بعد دخول الألف واللام التي عوضت عن الهمزة ولزمت أو برب السموات والأرض . وإليه نحا

أبو السعود . والجملة تأكيد لما أفادته الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب تخصيص العبادة به تعالى .

قال الزجاج : تأويله والله أعلم هل تعلم له سمياً يستحق أن يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون ؟ وعلى هذا لا سَمِيٌّ لله في جميع أسمائه لأن غيره وان سمي بشيء من أسمائه فلله سبحانه حقيقة ذاك الوصف . والمراد بنفي العلم المستفاد من الإنكار هنا نفي المعلوم على أبلغ وجه وأكمله . وقال ابن عباس : هل تعلم ؟ أي تعرف للرب شبهاً أو مثلاً ، ليس أحد يسمي الرحمن غيره ، وعنه قال : يا محمد هل تعلم لآلهك من ولد ؟ .

﴿ ويقول الإنسان﴾ المراد به ها هنا الكافر لأن الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث . قال ابن جريج : الإنسان هو العاص بن وائل . وقيل أبي بن خلف أو الوليد بن المغيرة والنازل فيه الآية ، وهذا من قبيل العام الذي أريد به الخاص،وقيل اللام في الانسان للجنس بأسره ، وإن لم يقل هذه المقالة إلا بعضهم، وهم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم، وعلى كل فلفظ الإنسان لا يشمل المؤمنين.

﴿أئذا ما مت﴾ قرىء على الاستفهام وعلى الخبر ﴿ لسوف أخرج حياً ﴾ من القبر كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم؟والاستفهام بمعنى النفي أي لا أحيى بعد الموت، و ﴿ حياً ﴾ حال مؤكدة لأن من لازم خروجه من القبر أن يكون حياً وهو كقوله : ﴿ ويوم أبعث حياً ﴾ .

﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي والواو لعطف الجملة على أخرى مقدرة ، أي أيقول ذلك ولا يذكر . وقرىء يذكر بالتخفيف وبالتشديد وأصله يتذكر ، وفي قراءة أبي أو لا يتذكر ، والمراد بالذكر هنا إعمال الفكر أي ألا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه فيستدل بالإبتداء على الإعادة؟. والابتـداء أعجب وأغرب من الاعـادة لأن النشأة الأولى هي إخـراج لهذه

المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداعاً واختراعاً لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له ، وأما النشأة الآخرة فقد تقدم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها .

ومعنى ﴿ من قبل ﴾ من قبل بعثه ، وقدره الزمخشري من قبل الحالة التي هو عليها الآن وهي حالة بقائه ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ أي والحال أنه لم يكن حينئذ شيئاً من الأشياء أصلاً، فالإعادة بعد أن كان شيئاً موجوداً أسهل وأيسر وأهون . ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التي أجمع العقلاء على أنه لم تكن في حجج البعث حجة أقوى منها أكد بالقسم باسمه سبحانه . مضافاً الى رسوله تشريفاً له وتعظيماً ، أو لأن العادة جارية بتأكيد الخبر بالتمييز فقال :

﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ أي لنسوقنهم الى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا ﴿ والشياطين ﴾ والواو للعطف أو بمعنى مع . والمعنى أن هؤلاء الجاحدين للبعث يحشرهم الله مع شياطينهم الذين أغووهم واضلوهم في سلسلة ، وهذا ظاهر على جعل اللام في الانسان للعهد وهو الانسان الكافر ، وأما على جعلها للجنس فلكونه قد وجد في الجنس من يحشر مع شيطانه .

﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم ﴾ من خارجها قبل دخولها ، وقيل من داخلها ﴿ جثياً ﴾ جمع جاث من قولهم جثا على ركبتيه يجثو جثواً أي جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب ، أو يكون الجثي على الركب شأن أهل الموقف كما في قوله سبحانه : وترى كل أمة جاثية .

وقيل المراد بقوله جثياً جماعات وأصله جمع جَثْوة، والجثوة هي المجموع من التراب والحجارة . قال ابن عباس : جثياً قعوداً .

﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ أي من كل أمة وفرقة وأهل دين وملة من الكفار . والشيعة الفرقة التي تبعث ديناً من الأديان ، وخصص ذلك الزمخشري

فقال هي الطائفة التي شاعت أي تبعت غاوياً من الغواة ، قال الله تعالى : ﴿ ان الذين فرقوا دينهم[1] وكانوا شيعاً ﴾ ﴿أيهم أشد[2] على الرحمن عتياً ﴾ أي أعصى لله وأعتى وقال ابن عباس : عتياً معصية وعصياً ، فإنه ينزع من كل طوائف الغي والفساد أعصاهم وأعتاهم فإذا اجتمعوا طرحهم في جهنم ، والعتي هنا مصدر كالعتو وهو التمرد في العصيان ، أي عصياناً وجرأة .

وقيل :المعنى لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر ، قاله قتادة وفي ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو عن كثير من أهل العصيان ، ولو خص ذلك بالكفرة ، فالمراد أنه يميز طوائفهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب ، أو يدخل كُلًّا طبقته التي تليق به ، وللنحويين في إعراب أيهم كلام طويل وأقوال كثيرة أظهرها عند الجمهور من المعربين ، وهو مذهب سيبويه أن أيهم موصولة بمعنى الذي وأن حركتها حركة بناء ، وأشد خبر مبتدأ مضمر والجملة صلة لأي ، وأيهم وصلتها في محل نصب مفعولاً به لننزعن ، وعتياً تمييز محول عن المبتدأ المحذوف الذي هو أشد . أي عتوة أشد من عتو غيره .

وعن ابن مسعود قال : يحشر الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعاً ، ثم بدأ بالأكابر والأكابر جرماً ، ثم قرأ : فوربك لنحشرنهم إلى قوله عتياً ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴾ بكسر الصاد وضمها سبعيتان . قال ابن جريج : يعني أيهم أحق وأولى بالخلود في جهنم ، يقال صلى يصلي صلياً ، مثل مضى الشيء يمضي مضياً .

قال الجوهري : يقال صليت الرجل ناراً إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها ، فإن ألقيته إلقاء كأنك تريد الإحراق، قلت أصليته بالنار بالألف ، وصلَّيته تصلية ، ومنه ويصلى سعيراً ، ومن خفف فهو من قولهم : صلى فلان

---

(١) هذا جزء من الآية رقم ١٥٩ من سورة الأنعام.

(٢) بقية آية مريم رقم ٦٩.

للنار بالكسر يصلى صلياً احترق . قال الله تعالى : ﴿ بالذين هم أولى بها صلياً ﴾ ، ومعنى الآية أن هؤلاء الذين هم أشد على الرحمن عتياً ، هم أولى بصليها أو صليهم ، أولى بالنار .

﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ الخطاب للناس من غير التفات أو للإنسان المذكور فيكون التفاتاً ، وقيل للكفار ، وقرىء وإن منهم لمناسبة الآيات التي قبل هذه فإنها في الكفار ، وهي قوله : فوربك لنحشرنهم ، الآيات وكذلك قرأ عكرمة وجماعة ، لكن الأكثرون على أن المخاطب العالم كلهم ، والمعنى ما منكم من أحد مسلماً كان أو كافراً إلا واردها أي واصلها وداخلها ، والضمير يرجع الى النار ؛ وقيل الى يوم القيامة والأول أولى .

وقد اختلف الناس في هذا الورود ، فقيل الورود الدخول لقوله : لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، لكنه يختص بالكفار لقراءة وإن منهم ، وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات ويستثنى الأنبياء والمرسلون ، وتكون على المؤمنين برداً وسلاماً ، كما كانت على ابراهيم .

وقالت فرقة : الورود هو المرور على الصراط ، لأن الصراط ممدود عليها ، فيسلم أهل الجنة ويتقاذف أهل النار ، وعلى هذا لا يستثنى الأنبياء والمرسلون، بل يمر عليه جميع الخلق . روي ذلك عن ابن عباس وكعب الأحبار والسدي ورواه السدي عن ابن مسعود عن النبي (ﷺ) والحسن . وعن مجاهد : ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده في الدنيا ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : الحمى حظ كل مؤمن من النار[1] ، وفيه بعد . وقيل ليس الورود الدخول إنما هو كما تقول وردت البصرة ولم أدخلها ، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود ، وحمله على ظاهره لقوله تعالى : ﴿ ان

(١) وتتمته : « وحمى ليلة تكفر خطايا سنة مجرمة » ضعيف الجامع الصغير ٢٧٩٥ سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣٥٣٢ .

الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ قالوا فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها ، وأجابوا عنه بأن معناه أنهم مبعدون عن العذاب فيها والاحتراق بها ، فمن دخلها وهو لا يشعر بها ولا يحس منها وجعاً ولا ألماً فهو مبعد عنها .

وقالت فرقة : الورود هو الإشراف والاطلاع والقرب ، وذلـك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم فيرونها وينظرون اليها في حالة الحساب ، ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا اليه ويصار بهم إلى الجنة كما سيأتي ، ومما يدل على أن الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا ورد ماء مدين﴾ فإن المراد أنه أشرف عليه لا أنه دخل فيه ، ولا يخفى أن القول بأن الورود هو المرور على الصراط أو الورود على جهنم وهي خامدة فيه ، جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة فينبغي حمل هذه الآية على ذلك لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعداً من عذابها ، أو بحمله على المضي فوق الجسر المنصوب عليها ، وهو الصراط .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي والحاكم وصححه عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن وقال بعضنا يدخلونها جميعاً ثم ننجي الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له فقال ـ وأهوى بأصبعه الى أذنيه ـ صمما إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على ابراهيم ، حتى إن للنار ضجيجاً من بردها ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ الآية[1] . وأسنده أبو عمرو في كتاب التمهيد . وعلى هذا فالورود الدخول ؛ وهو قول ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم .

---

(١) المستدرك كتاب الأحوال ٤/٥٨٧ .

وفي الحديث فتقول النار للمؤمنين: جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي وعن مجاهد قال : خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس فقال : الورود الدخول وقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ وقال أورود أم لا ؟ وقرأ .﴿يقـدم قومه يوم القيامة فأوردهم النـار﴾، وورود أم لا ؟ أما أنا وأنت فسندخلها ، فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وقرأ ابن مسعود « وإن منكم إلا داخلها » مكان «واردها» وعنه قال ورودها الصراط وقال رجل من الصحابة لآخر : أيقنت بالورود . قال نعم ، قال وأيقنت بالصدور قال لا ، قال ففيم الضحك وفيم التثاقل .

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابن مسعود في الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون منها بأعمالهم ، فأولهم كلمح البرق ، ثم كالريح ، ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب المجد في رحله ، ثم كشد الرجل في مشية[1] وقد روى نحوه عنه من طريق ، وهو في مسند الدارمي أيضاً . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ يقول مجتاز فيها .

وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية . قـالت حفصة أليس الله يقول : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قال ألم تسمعيه يقول ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يموت لمسلم ثلاث من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم ؛ ثم قرأ سفيان ﴿وان منكم الا واردها﴾[2].

---

(١) المستدرك كتاب الأهوال ٤/٥٨٦ .

(٢) مسلم ٢٦٣٢ ـ البخاري ٦٧١ .

وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه وأبو يعلى والطبراني عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من جهس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم ، فإن الله يقول : ﴿ وان منكم إلا واردها ﴾ والأحاديث في تفسير هذه الآية كثيرة جداً .

وأما فائدة دخول المؤمنين النار ، اذا لم يكن عذاب فبُوُجوه. أحدها أن ذلك مما يزيدهم سروراً اذا علموا الخلاص منه ؛ وثانيها أنَّ فيه مزيد همّ على أهل النار حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها ، وثالثها أنهم اذا شاهدوا ذلك العذاب على الكفار صار ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة ، ولا نقول صريحاً إن الأنبياء يدخلون النار أدباً معهم ، ولكن نقول إن الخلق جميعاً يردونها كما دلت عليه أحاديث الباب ، فالعصاة يدخلونها بجرائمهم ، والأولياء والسعداء يدخلونها لشفاعتهم ، فبين الداخلين بَوْنٌ.

﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ أي كان ورودهم المذكور أمراً محتوماً لازماً قد قضى سبحانه أنه لا بد من وقوعه لا محالة بمقتضى حكمته لا بإيجاب غيره عليه قال مجاهد : مقضياً قضاء من الله . وقال عكرمة : قسماً واجباً . قالت الأشاعرة : إن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف اليه . وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله ، وأن صاحب الكبيرة مخلد ، والفاسق مخلد في النار ، بدليل أن الله بين أن الكل يردونها ، ثم بين صفة من ينجو، وهم المتقون، والفاسق لا يكون متقياً فبقي في النار أبداً .

وأجيب عن ذلك بأن المتقي هو الذي يتقي الشرك ، فصاحب الكبيرة متق ، فوجب أن يخرج من النار بعموم قوله : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ فالآية التي توهموها دليلاً لهم هي من أقوى الدلائل على فساد قولهم ، وهذا من حيث البحث وأما من حيث النص فقد وردت أحاديث تدل على إخراج المؤمن الموحد من النار وهي معروفة .

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)﴾

﴿ثم ننجي﴾ أي نخرج ﴿الذين اتقوا﴾ ما يوجب النار وهو الكفر بالله ومعاصيه وترك ما شرعه ،وما أوجب العمل به من النار فلا يخلدون بعد أن أدخلوها قرىء ننجي بالتخفيف من أنجى ؛ وقرىء بالتشديد وهما سبعيتان ﴿ونذر﴾ أي نترك ﴿الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار ، أو ظلموا غيرهم بمظلمة في النفس أو المال أو العرض ﴿فيها﴾ أي في النار ﴿جثياً﴾ على الركب جمع جاث ، وقد تقدم قريباً . قال ابن عباس جثياً باقين فيها .

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ واضحات لا يلتبس معانيها . وقيل ظاهرات الإعجاز، وقيل إنها حجج وبراهين والأول أولى ، وهي حال مؤكدة لأن آيات الله لا تكون إلاَّ واضحة، والضمير في عليهم راجع إلى الكفار الذي سبق ذكرهم في قوله﴿أئذاما مت لسوف أخرج حياً﴾، أي هؤلاء اذا قرىء عليهم القرآن تعذروا بالدنيا وقالوا : «لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أطيب من حالنا ولم يكن بالعكس : لأن الحكيم لا يليق به

أن يبين أولياءه ويعز أعداءه ، وقيل: عليهـم أي على المؤمنين والأول أظهر ، ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله : ﴿ قال الذين كفروا ﴾ للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم ، وقيل المراد بهم هنا هم المتمردون المصرون منهم ، والأغنياء المتجملون بالثياب وغيرها .

ومعنى ﴿ للذين آمنوا ﴾ قالوا لأجلهم ، وقيل هي لام التبليغ كما في قوله : ﴿ وقال لهم نبيهم ﴾ أي خاطبوهم وشافهوهم بذلك ، وبلغوا القول إليهم، يعني فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وفي منزلهم ضيق ، وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون أفخر ثيابهم .

﴿ أي الفريقين ﴾ المراد بهما المؤمنون والكافرون، كأنهم قالوا فـريقنا ﴿ خير مقاماً ﴾ أم فريقكم ؟ وقرىء بضم الميم ، وهو موضع الإقامة أو مصدر بمعناها ، وبالفتح منزلاً ومسكناً فهو غير النادي إذ هو متحدث القوم ، وقيل هو الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة ، والمعنى أي الفريقين أكبر جاهاً وأكثر أعواناً وأنصاراً .

وعن مجاهد في الآية قال : قريش تقوله لها ولأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عباس : مقامـاً المنازل ﴿ وأحسن ندياً ﴾ قـال ابن عباس : ندياً المجالس . والنَّدِيُّ والنادي مجلس القوم ومتحدثهم ومجتمعهم . ومنه قوله تعالى : ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ وقوله: ﴿ فليدع ناديه ﴾ أي أهل ناديه . وناداه جالسه في النادي ومنه دار الندوة لأن المشركـين كانـوا يتشاورون فيها في أمورهم . وقيل هو مشتق من الندى وهو الكرم لأن الكرماء يجتمعون فيه .

﴿ وكم ﴾ أي كثيراً ﴿ أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ هي الجماعة والأمة الماضية وهو مفرد لفظاً متعدد معنى ﴿ هم أحسن أثاثاً ﴾ هو المال أجمع الإبل والغنم والبقر والعبيد والمتاع .

وقيل هو متاع البيت خاصة ، وقيل هو الجديد من الفرش ، وقيل اللباس خاصة ﴿ رئياً ﴾ بمعنى المرئي ، وهو كالذِّبْحْ والطِّحْن بمعنى المذبوح والمطحون قرىء بالهمزة ، وقرىء بالياء المشددة من رأيت أي هم أحسن منظراً ، وبه قال جمهور المفسرين : وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس وحسن الأبدان وتنعمها أو مجموع الأمرين .

ومعنى القراءة الأولى معنى الثانية ، قال الجوهري : من همز جعله من المنظر من رأيت وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة، ومن لم يهمز إما أن يكون من تخفيف الهمزة أو يكون من رويت ألوانهم وجلودهم رياً أي امتلأت وحسنت ، وقد ذكر الزجاج معنى هذا ، وقرىء زياً وهو الهيئة والحسن والصورة،ويجوز أن يكون من زويت أي جمعت والزي محاسن مجموعة .

﴿ قل ﴾ أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية والكفار القائلين للمؤمنين أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً بقوله : ﴿ من كان ﴾ مستقراً ﴿ في الضلالة ﴾ أي الكفر والجهل والغفلة عن عواقب الأمور ، وهذا شرط وجوابه ﴿فليمدد له الرحمن مدّا ﴾ في الدنيا يستدرجه ، وهذا وإن كان على صيغة الأمر فالمراد به الخبر ، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة ، وأن ذلك كائن لا محالة ، لينقطع معاذير أهل الضلال ، ويقال لهم يوم القيامة﴿أو لم

نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ أو للاستدراج كقوله سبحانه : ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية ، وذكر لفظ الرحمن في هذه السورة في ستة عشر موضعاً ، وقيل المراد بالآية الدعاء بالمد والتنفيس .

قال الزجاج : تأويله أن الله جعل جزاء ضلالته أن يتركه ويمده فيها لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن المتكلم يقول أفعل ذلك وآمر به نفسي ، وقال مجاهد : معناه فليدعه الله في طغيانه ، وفي حرف أُبَيّ من كان في الضلالة فإنه يزيده الله ضلالة وطغياناً واستدراجاً بأن يطيل عمره ، ويكثر ماله ويمكنه من التصرف فيه .

﴿ حتى ﴾ حرف ابتداء وليست جارة ولا عاطفة ، قاله الكازروني والشهاب وفي زكريا أنها جارة أي فيستمرون في الطغيان الى أن يشاهدوا الموعود ﴿ إذا رأوا ﴾ يعني الذين مد لهم في الضلالة ﴿ ما يوعدون ﴾ جاء بضمير الجماعة اعتباراً لمعنى ﴿ من ﴾ كما أن قوله : ﴿ من كان في الضلالة فليمدد له ﴾ اعتباراً بلفظها ، وقيل هده غاية للمد لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد والغاية في الحقيقة هي قوله : ﴿ فسيعلمون ﴾ الآن .

﴿ إما العذاب وإما الساعة ﴾ هذا تفصيل لقوله : ﴿ ما يوعدون ﴾ أي هذا الذي يوعدون هو أحد الأمرين إما العذاب في الدنيا بالقتل والأسر كما وقع لهم يوم بدر وإما يوم القيامة وما يحل بهم حينئذ من العذاب الأخروي ، فإما حرف تفصيل وهي مانعة خلو تجوز الجمع ، والعذاب والساعة بدلان من ما .

﴿ فسيعلمون ﴾ جواب إذا أي هؤلاء القائلون أي الفريقين خير مقاماً إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوي بأيدي المؤمنين أو الأخروي

﴿ من هو شر مكاناً ﴾ من الفريقين ﴿ وأضعف جنداً ﴾ قابل به أحسن ندياً من حيث إن حسن النادي يكون باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم والمعنى فسيعلمون أهم خير؟ وهم وجندهم الشياطين في النار أم المؤمنون وهم في الجنة وعندهم ملائكة الرحمن؟ ﴿ ومن ﴾ على هذا استفهامية وهو أحد وجهين، ويجوز أن تكون موصولة بمعنى الذي ، وليس المراد أن للمفتخرين هنالك جنداً ضعفاء بل لا جند لهم أصلاً ، كما في قوله سبحانه : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ﴾ ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال :

﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا ﴾ بالإيمان ﴿ هدى ﴾ بما ينزل عليهم من الآيات،وذلك أن بعض الهدى يجر إلى البعض الآخر ، والخير يدعو الى الخير ، وقيل : المراد بالزيادة العبادة من المؤمنين ، والجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين ، وقيل الواو للعطف على جملة الشرط المحكية بالقول .

قال الزجاج : المعنى أن الله يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقيناً كما جعل جزاء الكافرين أن يمدهم في ضلالتهم .

﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أي الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية التي تبقى لصاحبها ﴿ خير عند ربك ثواباً ﴾ مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية التي افتخروا بها ﴿ وخير مرداً ﴾ هو هنا مصدر كالرد ، والمعنى وخير رداً للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التي خسروا فيها ؛ والمراد المرجع والعاقبة أي ما يرد اليه ويرجع وهو الجنة وأفعل التفضيل للتهكم بهم على سبيل المشاكلة للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلاً ، ثم أردف سبحانه مقالة هؤلاء المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال :

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾

﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا ﴾ استفهام تعجيب أي أخبرني بقصة هذا الكافر يعني « عاص بن وائل » واذكر حديثه عقب حديث أولئك ، وإنما استعملوا : أرأيت بمعنى أخبر لأن رؤية الشيء من أسباب صحة الخبر عنه ، والآيات تعم كل آية ، ومن جملتها آية البعث والفاء للعطف على مقدر أي أنظرت فرأيت واللام في ﴿ وقال لأوتين ﴾ هي الموطئة للقسم كأنه قال: والله لأوتين في الآخرة ﴿ مالاً وولداً ﴾ وهذا من شدة تعنته بكفره أي انظر إلى حال هذا الكافر ، وتعجب من كلامه وَتَأَلِّيه على الله مع كفره به وتكذيبه بآياته .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما في الآية من حديث خباب بن الأرتّ قال : كنت رجلاً قيناً وكان لي علي العاص بن وائل[1] دين فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقلت والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث قال : فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد فأعطيك فأنزل الله فيه هذه الآية .

وقرىء وُلْداً بضم الواو وبفتحها قيل هما لغتان معناهما واحد يقال ولد وولد كما يقال : عدم وعدم ، وقيل بالضم للجمع وبالفتح للواحد، وقد ذهب

(١) هو أبو سيدنا عمرو فهو جد عبد الله بن عمرو أحد العبادلة إهـ منه .

الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله : ﴿ لأوتين مالاً وولداً﴾ أنه يؤتى ذلك في الدنيا ، وقال جماعة في الجنة ، قيل والمعنى ان أقمت على دين آبائي لأوتين ، وقيل المعنى لو كنت على باطل لما أوتيت مالاً وولداً ، ثم أجاب الله سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله فقال :

﴿ أطلع الغيب ﴾ بفتح الهمزة الاستفهامية وأطلع متعد بنفسه ؛ كقوله : اطلع الجبل ، قال المغرب : وليس متعدياً بعلى كما توهمه بعضهم ، حتى يكون من الحذف والإيصال لكن في القاموس اطلع عليه فكأنه يتعدى ولا يتعدى ، يقال اطلع الجبل اذا أرتقى الى أعلاه ، والمعنى أَعَلِمَ ما غاب عنه حتى يعلم أنه في الجنة .

﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ بذلك أي بأن يؤتى ما قاله فإنه لا يتوصل الى هذا العلم الا بإحدى هاتين الطريقتين ؛ وقيل المعنى أنظر في اللوح المحفوظ ؟ أم اتخذ عند الله عهداً ؟ وقيل المعنى أم قال لا إله الا الله فأرحمه بها ويرجو بها ؟ قاله ابن عباس ، وقيل المعنى أم قدم عملاً صالحاً فهو يرجوه ؟ .

﴿ كلا ﴾ حرف ردع وزجر أي ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد ولفظة : (كَلَّا) فيها للنحاة ستة مذاهب:

أحدها : وهو مذهب جمهور البصريين كالخليل وسيبويه وأبي الحسن والأخفش وأبي العباس المبرد أنها حرف ردع وزجر وهذا معنى لائق بها حيث وقعت في القرآن وما أحسن ما جاءت في هذه الآية زجرت وردعت ذلك القائل .

والثاني : وهو مذهب النضر بن شميل أنها حرف تصديق بمعنى نعم فتكون جواباً ولا بد حينئذ من أن يتقدمها شيء لفظاً أو تقديراً وقد تستعمل في القسم .

والثالث : وهو مذهب الكسائي وأبي بكر بن الأنباري ونصر بن يوسف وابن واصل أنها بمعنى حقاً .

والرابع : وهو مذهب أبي عبد الله الباهلي أنها رد لما قبلها ، وهذا قريب من معنى الردع .

الخامس : أنها صلة في الكلام بمعنى أي كذا ، قيل وفيه نظر فإن أي حرف جواب ، ولكنه مختص بالقسم .

السادس : أنها حرف استفتاح ، وهو قول أبي حاتم ، قال السمين : ولتقرير هذه المذاهب موضع هو أليق بها قد حققتها بحمد الله فيه . انتهى . .

وذكرت ﴿ كلا ﴾ في القرآن في النصف الثاني فقط ، وذكرت في خمس عشرة سورة منه كلها مكية ، وجملة ما ذكرت ثلاثة وثلاثون مرة ، ترجع الى أقسام ثلاثة ، قسم يجوز الوقف عليها ، وعلى ما قبلها فيبتدأ بها وهذا باتفاق .

وقسم اختلف فيه هل يجوز الوقف عليها أو يتعين على ما قبلها .

وقسم لا يجوز الوقف عليها باتفاق .

فالقسم الأول : خمسة مواضع **اللتان** في هذه السورة ، **واللتان** في سورة الشعراء **وواحدة** في سورة سبأ .

والقسم الثاني : تسعة ، **واحدة** في سورة المؤمنين **واثنتان** في سورة سأل سائل **واثنتان** في سورة المدثر . الأولى والثالثة **والأولى** في سورة القيامة ؛ **والثانية** في سورة ويل للمطففين ، **والأولى** في سورة الفجر **والتي** في سورة ويل لكل .

والقسم الثالث : هو التسع عشرة الباقية ذكره عز بن جماعة .

﴿ سنكتب ﴾ أي سنحفظ عليه ﴿ ما يقول ﴾ فنجازيه به في الآخرة أو سنظهر له ما يقول ونعلمه أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته ﴿ ونمد له من العذاب مداً ﴾ أي نزيده عذاباً فوق عذابه مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، أو نطول له من العذاب ما يستحقه ، وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ أي نميته فنرثه المال والولد الذي

يقول إنه يؤتاه والمعنى مسمى ما يقول ومصداقه ، قاله أبو السعود ، وقيل المعنى نحرمه ما تمناه في الآخرة ونعطيه غيره من المسلمين قاله القرطبي .

﴿ ويأتينا ﴾ يوم القيامة ﴿ فرداً ﴾ لا مال له ولا ولد ولا عشيرة ، بل نسلبه ذلك فكيف يطمع في أن نعطيه ، وقيل المراد بما يقول نفس القول لا مسماه والمعنى انما يقول هذا القول ما دام حياً ، فإذا أَمَتْنَاه حُلْنا بينه وبين أن يقوله ، ويأتينا رافضاً له ، منفرداً عنه ، والأول أولى .

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ﴾ حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا يستحقون وَتَأَلَّوْا على الله سبحانه من اتخاذهم الآلهة من دون الله لأجل أن يتعززوا بذلك .

وقال أبو السعود : حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لضد ما يرجون ترتبه عليها إثر حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعها لنقيض مضمونها . وقال الهروي : معناه ليكونوا لهم أعواناً . وقال الفراء ؛ ليكونوا لهم شفعاء عند الله في الآخرة ، وقيل معناه ليتعززوا بهم من عذاب الله ويمتنعوا بها .

﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا ؛ والضمير في الفعل إما للآلهة ، أي ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها الله سبحانه لأنها عند أن عبدوها جمادات لا تعقل ذلك ، وإما للمشركين ، أي سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام . ويدل على الوجه الأول قوله تعالى : ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ وقوله : ﴿ فالقوا اليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ ويدل على الوجه الثاني قوله تعالى : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ .

قرىء كُلًّا بضم الكاف والتنوين ، وهي بمعنى جميعاً ، وبالفتح مصدر أي كل هذا الرأي كلا والأصوب أنها حرف ردع وزجر والمعنى تكون هذه الآلهة التي ظنوها عزاً لهم ضداً عليهم ، أي ضداً للعز،وضد العز الذل ، هذا على الوجه الأول . وأما على الوجه الثاني فيكون المشركون للآلهة ضداً وأعداء

يكفرون بها بعد أن كانوا يعبدونها ويحبونها ويؤمنون بها .

قال ابن عباس : عليهم ضداً أعواناً وحسرة ، وإنما وحد الضد وإن كان خبراً عن جمع لأحد وجهين إما لأنه مصدر في الأصل ، والمصادر موحدة مذكرة ، وإما لأنه مفرد في معنى الجمع .

﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ﴾ ذكر الزجاج في معنى هذا وجهين : أحدهما أن معناه خلينا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم منهم ولم نعذهم ، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ الوجه الثاني : أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم كما قال : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً ﴾ فمعنى الإرسال هنا التسليط ، ومن ذلك قوله سبحانه لإبليس : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ .

ويؤيد الوجه الثاني تمام الآية وهو قولـه : ﴿ تؤزهم أزاً ﴾ فإن الأز والأزيز والهز والهزيز والاستفزاز أخوات معنـاها التحـريك والتهييـج وشدة الإزعاج فأخبر الله سبحانه أن الشياطين تحرك الكافرين وتهيجهم وتغريهم وتغريهم على المعاصي بالتسويلات وتحبيب الشهوات ، وذلك هو التسليط لها عليهم .

وقيل معنى الأز الاستعجال وهو مقارب لما ذكرنا لأن الاستعجال تحريك وتهييج واستفزاز وإزعاج ، وسياق هذه الآية لتعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم من حالهم وللتنبيه على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم ، والجملة حالية من الشياطين ، أو من الكافرين أو منهما أو مستأنفة ، كأنه قيل ماذا تفعل الشياطين بهم ؟ .

قال ابن عباس : تؤزهم أزاً تغويهم إغواء،وتحرض المشركين على محمد وأصحابه وقال : تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله ، وفي الآية دليل على أن الله مدبر لجميع الكائنات ﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ بأن تطلب من الله إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم للحق وتمردهم عن داعي الله سبحانه حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهر الأرض من فسادهم .

ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله : ﴿ إنما نعد لهم عداً ﴾ يعني نعد الأيام والليالي والشهور والسنين من أعمارهم الى انتهاء آجالهم فلا نهمل ما يقع منهم بل نضبطه عليهم حتى نؤاخذهم به، وقيل نعد أنفاسهم وقيل خطواتهم وقيل لحظاتهم وقيل الساعات.

وقال قطرب : نعد أعمالهم ، وقيل المعنى لا تعجل عليهم إنما نؤخرهم ليزدادوا إثماً . قال الشهاب : إن العد كناية عن القلة ، ولا ينافي هذا ما مر من أنه يمد لمن كان في الضلالة لأنه بالنسبة لظاهر الحال عندهم وهو قليل باعتبار عاقبته وعند العد . ثم لما قرر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكريه أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذ فقال :

﴿ يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفداً ﴾ أي اذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم يوم إلخ. ومعنى الحشر الى الرحمن حشرهم إلى جنته ودار كرامته ، كقوله : إني ذاهب إلى ربي ، والوفد جمع وافد كالركب جمع راكب والصحب جمع صاحب يقال وفد يفد وفداً إذا خرج إلى ملك أو أمر خطير . كذا قال الجوهري . وعن ابن عباس قال : وفداً ركباناً .

وعن أبي هريرة قال : على الإبل. وعن علي قال : على نوق . وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق ، راغبين وراهبين ، اثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا » والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً[1] .

وقيل يركبون من أول خروجهم من القبور . وهو ظاهر الآية . وقيل من منصرفهم من الموقف ، وعلى كلا القولين فيستمرون راكبين ، حتى يقرعون باب الجنة .

(١) مسلم ٢٨٦١ ـ البخاري ٢٤٥٠ .

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾

﴿ ونسوق المجرمين ﴾ أي الكافرين بكفرهم كما تساق البهائم ﴿إلى جهنم ورداً ﴾ مشاة عطاشاً ، والسوق الحث على السير، والورد العطاش ، قاله الأخفش وغيره وبه قال ابن عباس وأبو هريرة. وقال الفراء وابن الأعرابي : هم المشاة . وقال الأزهري : هم المشاة العطاش كالإبل ترد الماء . وقيل ورداً أي للورد ، كقولك جئتك إكراماً أي للاكرام . وقيل أفراداً . قيل ولا تناقض بين هذه الأقوال فهم يساقون مشاة عطاشاً أفراداً . وأصل الورد الجماعة التي ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك ، والورد الماء الذي يورد ، وقيل يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نَعَمٌ عطاش تساق إلى الماء .

﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ جملة مستأنفة لبيان بعض ما يكون في ذلك اليوم من الأمور ؛ والضمير راجع إلى الفريقين . وقيل للمتقين خاصة وقيل للمجرمين خاصة والأول أولى ، والمعنى أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم . وقيل لا يملك غيرهم أن يشفع لهم . والأول أولى .

﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ هذا الاستثناء متصل على الوجه الأول ، أي لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من تحلى واستأهل واستعد لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم ، بأن يكون مؤمناً متقياً ، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله .

وقيل معناه أن الله أمره بذلك ، كقولهم : عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا

أمره به وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله ويبرأ من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله . وعنه قال : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » وقيل غير ذلك .

وأما على الوجه الثاني فالاستثناء منقطع لأن التقدير لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهم المسلمون والأول أوجه ، وبه جزم البيضاوي كالكشاف . وقيل متصل على هذا الوجه أيضاً ، والتقدير لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من كان منهم مسلماً ، ودلت الآية على حصول الشفاعة لأهل الكبائر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرني ، ومن سرني فقد اتخذ عند الرحمن عهداً فلا تمسه النار ، إن الله لا يخلف الميعاد » .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله (ﷺ) « من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً ، جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منها شيئاً فليس له عند الله عهد إن شاء رحمه وإن شاء عذبه » .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ قرىء بفتح الواو وضمها كما تقدم ، والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى . ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله ﴿ لقد جئتم شيئاً إدّاً ﴾ فيه التفات من الغيبة الى الخطاب ، وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء ، والإد كما قال الجوهري : الداهية والأمر الفظيع ، وكذلك الإدة، وجمع الإدة إِدَد؛ يقال أدت فلاناً الداهية تَؤُدُّه بالضم وَتَئِدُّه بالكسر وَتَأَدُّه بالفتح إذا دهته وقرىء بالفتح ، وقرأ الجمهور بالكسر ، وقرىء آداً مثل ماداً ، وهي مأخوذة من الثقل ، يقال آده الحمل يؤوده إذا أثقله .

قال الواحدي : إدّاً أي عظيماً في قول الجميع ، وبه قال ابن عباس . والمعنى قلتم قولاً منكراً عظيماً ، وقيل الإِدُّ العجب والإِدَّة الشدة والمعنى متقارب . والتركيب يدور على الشدة والثقل .

﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ قرىء بالتحتية وبالفوقية ، وقرىء يتفطرون من الانفطار ، واختاره أبو عبيد لقوله : ﴿إذا السماء انفطرت﴾ وقوله: ﴿ السماء منفطر به ﴾ وقرأ ابن مسعود يتصدعن ؛ والانفطار والتفطر التشقق .

﴿ وتنشق الأرض ﴾ كرر الفعل للتأكيد لأن يتفطرن وتنشق معناهما واحد أي تخسف بهم .

﴿ وتخر ﴾ أي تسقط وتنهدم ﴿ الجبال هداً ﴾ قال ابن عباس : هداً هدماً . لأن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه لعظمة الله سبحانه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك ، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين . وانتصاب (هداً) على أنه مصدر مؤكد لأن الخُرُور في معناه ، أو هو مصدر لفعل مقدر ، أي وَتنهدُّ هداً أو على الحال أي مهدودة أو على أنه مفعول له أي لأنها تنهد .

قال الهروي : هدني الأمر وهد ركني أي كسرني وبلغ مني ، قال الجوهري : هد البناء يهده هداً كسره وضعضعه ؛ وَهَدَّته المصيبة أوهنت ركنه ، وانْهَدَّ الجبل أي انكسر ، والْهَدُّ صوت وَقْعِ الحائط كما قال ابن الأعرابي .

﴿ أن ﴾ أي لأن ﴿ دعوا ﴾ أو من أجل أن جعلوا ﴿ للرحمن ولداً ﴾ وقال الكسائي : هو بتقدير الخافض ، وقيل في محل رفع على أنه فاعل هداً ، أي هدها دعاء الولد ، والدعاء بمعنى التسمية ، أي سموا للرحمن ولداً ، أو بمعنى النسبة ، أي نسبوا له ولداً ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ ما ينبغي ﴾ أو لا يصلح ﴿ للرحمن ﴾ ولا يليق به ﴿ أن يتخذ ولداً ﴾ لاستحالة ذلك عليه لأن الولد يقتضي الجنسية والحدوث .

إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾

﴿ إن كل من في السموات والأرض ﴾ أي ما كل من فيهما ﴿ إلا ﴾ وهو ﴿ آتي الرحمن ﴾ وَحِّد آتي وآتيه الآتي حملاً على لفظ ﴿ كل ﴾ وهو اسم فاعل من أتى وهو مستقبل ، أي يأتيه يوم القيامة ﴿ عبداً ﴾ مقراً بالعبودية خاضعاً ذليلاً منهم عزير وعيسى ، كما قال ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ أي صاغرين ، والمعنى أن الخلق كلهم عبيده ، فكيف يكون واحد منهم ولداً له ؟ وقرىء آت على الأصل ﴿ لقد أحصاهم ﴾ أي حصرهم بعلمه، وَعَلِمَ عَدَدَهم وأحاط بهم ﴿ وعدهم عداً ﴾ أي عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وأيامهم وآثارهم بعد أن حضرهم ، فلا يخفى عليه أحد منهم ولا شيء من أمورهم .

﴿ وكلهم ﴾ أي كل واحد منهم تحت قهره وقدرته وتدبيره ﴿ آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ أي وحيداً ولا ناصراً له ولا مال معه ، كما قال سبحانه ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ . ثم ذكر الله سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصهم به بعد ذكره لقبائح الكافرين فقال :

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ الجمهور من السبعة وغيرهم على ضم الواو ، وقرىء بكسرها وفتحها ، أي حباً في قلوب عباده يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التي توجب ذلك ، كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب ، وهذا الجعل في الدنيا، والسين للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل وأنه مجعول من بعد نزول الآية ، لأن المؤمنين كانوا

بمكة حال نزول هذه الآية وكانوا ممقوتين حينئذ بين الكفرة فوعدهم الله تعالى بذلك إذا ظهر الإسلام فألف الله تعالى بين قلوب المؤمنين ، ووضع فيها المحبة، أو في القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤوس الأشهاد فينزع ما في صدورهم من الغل .

وعن ابن عباس قال : نزلت في علي بن أبي طالب ، والمعنى محبة في قلوب المؤمنين . وعن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ : « قل اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي عندك وداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة » فأنزل الله الآية في عليّ . أخرجه ابن مردويه والديلمي .

وعن ابن عباس قال : محبة في الناس في الدنيا ، وعن علي قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية ما هو؟ قال : «المحبة الصادقة في صدور المؤمنين» .

وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل أني قد أحببت فلاناً فأحبه ، فينادى في السماء ، ثم ينزل المحبة في أهل الأرض ، فذلك قوله : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ واذا أبغض الله عبداً نادى جبريل أني قد أبغضت فلاناً ، فينادي في أهل السماء ثم ينزل البغضاء في الأرض » والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة[1].

ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن ، خصوصاً هذه السورة لاشتمالها على التوحيد والنبوة وبيان حال المعاندين فقال :

﴿ فإنما يسرناه ﴾ أي القرآن بإنزالنا له ﴿ بلسانك ﴾ أي على لغتك

---

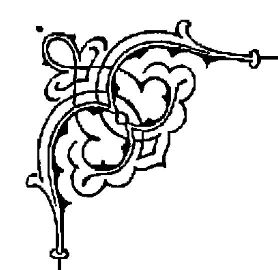
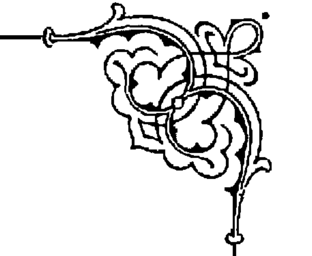
(١) مسلم ٢٦٣٧ ـ البخاري ١٥١٥ .

العربية ؛ وفصلناه وسهلناه والباء بمعنى على والفاء لتعليل كلام يساق فإليه النظم الكريم كأنه قيل بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر به فإنما يسرناه ، الآية ، ثم علل ما ذكره من التيسير فقال : ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أي المتلبسين بالتقوى المتصفين بها ﴿ وتنذر به قوماً لدّاً ﴾ ولو أنزلناه بغيرها لم يتيسر التبشير ولا الإنذار لعدم فهم المخاطبين لغير العربية ، واللُّدّ جمع الألد وهو الشديد الخصومة ، ومنه قوله تعالى (ألد الخصام) وقال أبو عبيدة : الألد الذي لا يقبل الحق ، ويدعي الباطل ، وقيل اللُّدُّ الصُّمُّ وقيل الظَّلَمَة، وقال ابن عباس : لُدّاً فجاراً ، وعن الحسن قال : صماً يعني عن الحق.

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ أي أمة وجماعة من الناس ؛ وفي هذا وعد لرسول الله (ﷺ) بهلاك الكافرين ووعيد لهم وتخويف وإنذار .

﴿ هل تحس منهم من أحد ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها أي هل تشعر بأحد من القرون أو تراه أو تجد أو تعلم،والإحساس الادراك بالحاسة والحواس خمس والحس والحسيس الصوت الخفي ﴿ أو تسمع لهم ركزاً ﴾ الركز : الخفاء والصوت الخفي ومنه ركز الرمح ، إذا غيب طرفه في الأرض وقال اليزيدي وأبو عبيدة : الركز ما لا يفهم من صوت أو حركة ، وقال سعيد ابن جبير : هل ترى منهم من أحد ركزاً صوتاً ، وبه قال ابن عباس .

والمعنى لما أتاهم عذابنا لم يبق شخص يُرى ولا صوت يسمع ، يعني هلكوا كلهم ، قال الحسن: بادوا جميعاً فلم يبق منهم عين ولا أثر ، يعني هكذا هؤلاء إن أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك ، فَلْيَهُنْ عليك أمرهم ، والله أعلم بالصواب .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة طه

(آياتها مائة وخمس وثلاثون آية أو أربعون واثنتان)

قال القرطبي : مكية في قول الجميع . وبه قال ابن عباس وابن الزبير . وقال السيوطي في الاتقان : استثنى منها (فاصبر على ما يقولون .)

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل القرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرأون منه شيئا الا سورة طه ويس فانهم يقرأون بهما في الجنة » وعن أنس بن مالك فذكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته وخباب . وقراءتهما طه . وكان ذلك سبب أسلام عمر والقصة مشهورة في كتب السير .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

﴿ طه ﴾ قد اختلف أهل العلم في معنى هذه الكلمة على أقوال :

الأول : أنها من المتشابه الذي لا يفهم المراد به .

والثاني : أنها بمعنى يا رجل في لغة عكل ، وفي لغة عك[1] ، قال الكلبي : لو قلت لرجل من عك يا رجل لم يجب حتى تقول طه ، وقيل إنها في لغة عك بمعنى يا حبيبي. وقال قطرب : هي كذلك في لغة طيء، أي بمعنى يا رجل ، وكذا قال الحسن وعكرمة ، وقيل هي كذلك في اللغة السريانية حكاه المهدوي ، وحكى ابن جرير أنها كذلك في اللغة النبطية ، وبه قال السدي وسعيد بن جبير ، وحكي عن عكرمة أنها كذلك في لغة الحبشة ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى في تلك اللغات كلها إذا صح النقل .

الثالث : أنها اسم من أسماء الله سبحانه .

الرابع : أنها اسم للنبي صلى الله عليه وسلم .

الخامس : أنها اسم للسورة .

---

(١) عك قبيلة من قبائل العرب إ هـ خازن .

السادس : أنها حروف مقطعة كل واحد منها على معنى ، ثم اختلفوا في هذه المعاني التي تدل عليها هذه الحروف ، على أقوال كلها متكلفة متعسفة .

السابع : أن معناها طوبى لمن أهتدى .

الثامن : أن معناها طأ الأرض يا محمد قال ابن الأنباري : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج الى التروح ، فقيل له : طـأ الأرض أي لا تتعب حتى تحتاج الى التروح .

وحكى القاضي عياض في الشفاء عن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى فأنزل الله طه يعني طأ الأرض يا محمد ، وعن الحسن البصري أنه قرأ : طه ، على وزن دع أمر بالوطء والأصل طأ فقلبت الهمزة هاء .

التاسع : أنه قسم أقسم الله بطوله وهدايته ، وعن أكثر المفسرين أن معناها يا رجل يريد النبي صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة ومجاهد وابن عباس غير أن بعضهم يقول : إنها بلسان الحبشة والنبطية والسريانية ويقول الكلبي . هي بلغة عك كما مر .

قال ابن الأنباري : ولغة قريش وافقت تلك اللغة في هذا المعنى لأن الله سبحانه لم يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بلسان غير قريش انتهى وإذا تقرر أنها لهـذا المعنى في لغة من لغـات العرب كـانت ظاهـرة المعنى ، واضحة الدلالة ؛ خارجة عن فواتح السور ، التي قدمنا بيان كونها من المتشابه في فاتحة سورة البقرة وهكذا اذا كانت لهذا المعنى في لغة من لغات العجم ، واستعملتها العرب في كلامها في ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التي استعملتها العرب الموجودة في الكتاب العزيز ، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة

العرب ، قال النسفي : وما روي أن معناه يا رجل فإن صح فظاهر وإلا فالحق ما هو المذكور في سورة البقرة ، انتهى ولذا قال المحلى والله أعلم بمراده بذلك .

﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب، والشقاء يجيء في معنى التعب وشائع فيه .

قال ابن كيسان : وأصل الشقاء في اللغة التعب والعناء، ولعله عدل اليه للإشعار بأنه أنزل عليه ليسعد والمعنى ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا إذ ما عليك إلا أن تبلغ ، فهو كقوله سبحانه : ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ .

قال النحاس : بعض النحاة يقول هـذه اللام في لتشقى لام النفي وبعضهم يقول لام الجحود ، وقال ابن كيسان : هي لام الخفض وهذا التفسير للآية على قول من قال إن طه كسائر فواتح السور التي ذكرت تعديداً لأسماء الحروف، وإن جعلت اسماً للسورة كان قوله ما أنزلنا الخ خبراً عنها .

وأما على أن معناها يا رجل أو بمعنى الأمر بوطء الأرض فتكون الجملة مستأنفة أيضاً مسوقة لصرفه (ﷺ) عما كان عليه من المبالغة في العبادة .

وعن ابن عباس قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما أنزل عليه الوحي كان يقوم على صدر قدميه إذا صلى فأنزل الله طه ، الآية ، وعنه قال: قالوا: لقد شقي هذا الرجل بربه فأنزل الله هذه الآية ، وعنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل لئلا ينام فأنزل الله هذه الآية ، وعن علي كان يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت هذه الآية وحسن السيوطي إسناده.

وانتصاب ﴿ إلا تذكرة ﴾ على أنه مفعول له لأنزلنا ، كقولك : ما ضربتك للتأديب إلا اشفاقاً عليك ، وقال الزجاج : هو بدل لتشقى ، أي ما أنزلناه الا تذكرة ، وأنكره أبو علي الفارسي من جهة أن التذكرة ليست الشقاء ، قال : وانما هو منصوب على المصدرية أي أنزلناه لتذكر به تذكرة أو على المفعول من أجله أي ما انزلنا عليك القرآن لتشقى به ما أنزلناه الا للتذكرة ، وقيل الاستثناء منقطع لأن التذكرة ليست من جنس الشقاء المنفي اي لكن أنزلناه عظة .

﴿ لمن يخشى ﴾ أي لمن خاف الله أو لمن يؤول أمره الى الخشية أو لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالإنزال.أو لمن علم الله أنه يخشى بالتخويف منه فإنه المنتفع ، وكأنه يشير إلى ان اللام في لمن للعاقبة ﴿ تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلي ﴾ أي أنزلناه تنزيلاً ، أو بدل من تذكرة ، أو منصوب على المدح أو يخشى تنزيلاً من الله أو على الحال وبالرفع على معنى هذا تنزيل وتخصيص خلق الأرض والسموات لكونها أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عز وجل ، والعلى جمع العليا أي المرتفعة كجمع كبرى وصغرى على كُبَر وصُغَر ، وفي الآية إخبار لعباده عن كمال عظمته سبحانه وعظيم جلاله .

﴿ الرحمن على العرش ﴾ هو في اللغة السرير ، وقيل هو ما علا فأظل وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه ﴿ استوى ﴾ استواء يليق به ، قال ثعلب : الاستواء الإقبال على الشيء . وكذا قال الزجاج والفراء ، وقيل هو كناية عن الملك والعز والسلطان ، وأما استوى بمعنى استقر ، فقد رواه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات بروايات كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها .

وعن مالك : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ؛ قال البغوي : أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم به إلى الله عز

وجل ، وعن الثوري والأوزاعي والليث وابن عيينة وابن المبارك وغيرهم في أمثال هذه الآيات التي جاءت في الصفات أقروها كما جاءت بلا كيف وفيه مذهبان .

الأول : القطع بكونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة وعدم الخوض في تأويلها وبه قال الخازن واختاره .

الثاني : الخوض فيه على التفصيل ، وفيه قولان:

الأول: العرش في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملك ، فإذا استقام له ملكه ، واطرد أمره ونفذ حكمه قالوا استوى على عرشه واستوى على سرير ملكه قاله القفال ، قال الخازن : والذي قاله حق وصواب والمراد منه نفاذ القدرة وجريان المشيئة ، ويدل على صحة هذا قوله في سورة يونس . (ثم استوى على العرش يدبر الأمر) فقوله يدبر الأمر جرى مجرى التفسير لقوله : ثم استوى على العرش .

الثاني : أن يكون استوى بمعنى استولى ، وهذا مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين ، واحتجوا عليه بقول الشاعر .

قد استوى بشر على عراق   من غير سيف ودم مهراق

ورد هذا بأن العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى ، وإنما يقال استوى فلان على كذا إذا لم يكن في ملكه ، ثم ملكه واستولى عليه ، والله تعالى لم يزل مالكاً للأشياء كلها ومستولياً عليها ، فأي تخصيص للعرش هنا دون غيره من المخلوقات ؟ وقال أبو الحسن الأشعري : المعنى أن الله مستو على عرشه وأنه فوق الأشياء بائن منها ولا تحله ولا يحلها ولا يماسها ولا يشبهها .

وعن ابن الأعرابي : جاءه رجل فقال : ما معنى هذه الآية ؟ قال : إنه مستو على عرشه كما أخبر فقال الرجل إنما معنى قوله : استوى استولى فقال له

ابن الأعرابي : ما يدريك العرب لا تقول استوى فلان على الشيء ، حتى يكون له فيه مضاد فأيها غلب ؟ قيل لمن غلب قد استولى عليه والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر ، لا كما يظنه البشر ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة الأعراف وفيه رسائل مستقلة وكتب مفردة للحفاظ والمحدثين ونزاع قديم بين المتقدمين والمتأخرين .

والحق ما ذهب اليه سلف الأمة وأئمتها من إمرار الصفات على ظاهرها من غير تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تحريف ولا تشبيه ولا تأويل ، والذي ذهب اليه أبو الحسن الأشعري أنه سبحانه مستو على عرشه بغير حدّ ولا كيف وإلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم والمجتهدين الأربعة وأهل الحديث والأثر ، الذين يمرون الصفات كما وردت من دون تحريف ولا تعطيل ولا تأويل والبحث في تحقيق هذا يطول جداً وليس هذا موضع بسط ذلك رداً وتعقباً وقد أوضحنا ذلك إيضاحاً شافياً في رسائلنا (الانتقال الرجيح) و (هداية السائل) و (بغية الرائد)[1] وغيرها فليرجع اليها قاله الشوكاني .

﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ﴾ من الموجودات ؛ وقيل يعني الهواء ﴿ وما تحت الثرى ﴾ هو في اللغة التراب الندي فإن لم يكن ندياً فهو تراب ولا يقال له حينئذ ثرى ، أي ما تحت التراب النديّ من شيء ، والمراد الأرضون السبع لأنها تحته .

قال الواحدي : والمفسرون يقولون : إنه سبحانه أراد الثرى الذي تحت الصخرة التي عليها الثور الذي تحت الأرض ، ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله سبحانه . قال قتادة : الثرى كل شيء مبتل .

---

(١) يسر الله لنا طبعها.

وأخرج أبو يعلى عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل ما تحت هذه الأرض ؟ قال : الماء، قيل فما تحت الماء ؟ قال : ظلمة ، قيل فما تحت الظلمة ؟ قال : الهواء قيل فما تحت الهواء ، قال : الثرى ، قيل فما تحت الثرى ، قال : انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه .

﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ الجهر بالقول هو رفع الصوت به،والسر ما حدَّث به الإنسان غيره وأسره إليه ، والأخفى من السر هو ما حدّث به الإنسان نفسه وأخطره بباله ، والمعنى إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن ذلك فإنه يعلم السر وما هو أخفى من السر فلا حاجة لك الى الجهر بالقول ، وفي هذا معنى النهي عن الجهر كقوله سبحانه : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ﴾ وقيل السر ما أسر الإنسان في نفسه ، والأخفى منه هو ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه . وبه قال ابن عباس ، وزاد فإنه يعلم ذلك كله فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد ؛ وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة ، وهو كقوله : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ .

وقيل السر ما أضمره الإنسان في نفسه والأخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد، وقيل السر سر الخلائق ، والأخفى منه سر الله عز وجل ، وأنكر ذلك ابن جرير وقال : إن الأخفى ما ليس في سر الإنسان وسيكون في نفسه . وعن ابن عباس أيضاً قال : السر ما علمته أنت ، وأخفى ما قذف الله في قلبك مما لم تعلمه، وفي لفظ : يعلم ما تسر في نفسك ويعلم ما تعمل غداً .

وفي الآية تنبيه على أن الذكر والدعاء والجهر فيهما ليس لإعلام الله تعالى وإسماعه ، بل لغرض آخر كتصوير النفس بالذكر ورسوخها فيه ودفع الشواغل والوساس، ومنعها عن الاشتغال بغيره ، وهضمها بالتضرع والجؤار

ثم ذكر أن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه المتنزه عن الشريك المستحق لتسميته بالأسماء الحسنى فقال :

﴿ الله ﴾ أي الموصوف بهذه الصفات الكمالية الله، وجملة ﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستأنفة لبيان اختصاص الإلهية به سبحانه أي لا إله في الوجود إلا هو وهكذا جملة ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ مبينة لاستحقاقه تعالى لها وهي التسعة والتسعون ، التي بها ورد الحديث الصحيح ، وقد تقدم بيانها في سورة الأعراف ؛ والحسنى تأنيث الأحسن فهي اسم تفضيل يوصف به الواحد من المؤنث والجمع من المذكر ثم قرر سبحانه أمر التوحيد الذي اليه انتهى مساق الحديث ، بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة والخبر الغريب فقال :

﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ الاستفهام للتقرير ؛ ومعناه أليس قد أتاك ؟ وقيل معناه قد أتاك ، وقال الكلبي : لم يكن قد أتاه حديث موسى إذ ذاك ، وفي سياق هذه القصة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها وأن ذلك شأن الأنبياء قبله ، وأنه أمر مستمر فيها بينهم كابراً عن كابر ، والمراد بالحديث القصة الواقعة لموسى .

﴿إذ رأى ناراً ﴾ أي اذكر وقت رؤيته ناراً ، وقيل أي حين رأى ناراً كان كيت كيت ، وكانت رؤيته للنار في ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد لما خرج مسافراً الى أمه بعد استئذانه لشعيب وكانت ليلة الجمعة .

﴿ فقال لأهله امكثوا ﴾ المراد بالأهل هنا امرأته ، وهي بنت شعيب واسمها صفورا ، وقيل صفوريا ، وقيل صفورة واسم أختها ليا ، وقيل شرقا وقيل عبدا واختلف في التي تزوجها هل هي الصغرى أو الكبرى ، والجمع لظاهر لفظ الأهل ، أو للتفخيم ، وقيل المراد بهم المرأة والولد والخادم ،

والمعنى أقيموا مكانكم ، وذلك في مسيرة من مدين طالباً مصر، ولما قضى الأجل الذي جعله عليه شعيب وبينها وبين مصر ثمان مراحل ، وعبر بالمكث دون الإقامة لأنها تقتضي الدوام والمكث ليس كذلك .

﴿إني آنست ناراً﴾ أي أبصرت يقال آنست الصوت سمعته وآنست الرجل أبصرته ، وقيل الإيناس الإبصار البَيِّن، ومنه إنسان العين لأنه يبصر به الأشياء وقيل هو الوجدان وقيل الاحساس فهو أعم من الإبصار وقيل الإيناس مختص بـإبصار ما يؤنس ، والجملة تعليل للأمر بالمكث ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى متوقعين بني الأمر على الرجاء فقال :

﴿ لعلّي ﴾ لعدم الجزم بوفاء الوعد ﴿ آتيكم ﴾ أجيئكم ﴿ منها ﴾ أي من النار ﴿ بقبس ﴾ هو الجذوة والشعلة من النار في رأس عود أو قصبة أو فتيلة ونحوها وهو فَعَل بمعنى مفعول كالقَبَض والنَّقَض بمعنى المقبوض والمنقوض وكذا المقياس يقال قبست منه ناراً أقبس قبساً فأَقْبَسَني أي أعطاني وكذا اقْتَبَسْتُ، قال اليزيدي : أَقْبَسْتُ الرجلَ علما وَقَبَسْتُهُ ناراً ففرقوا بينهما هذا قول المبرد ، فإن كنت طلبتها له قلت : أقبسته ، وقال الكسائي : أقبسته ناراً وعلماً سواء قال : وقبسته أيضاً فيهما .

﴿ أو ﴾ لمنع الخلو وهو الظاهر دون الجمع ﴿ أجد على النار ﴾ وحرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان اليها كما قال سيبويه ﴿ هدى ﴾ أي هادياً يهديني الى الطريق ، ويدلني عليها ، قاله ابن عباس وكان أخطأها لظلمة الليل ، قال الفراء : أراد هادياً ، فذكره بلفظ المصدر ، أو عبر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف أي ذا هدى ولعله لم يقل قوماً يهدونني كما في الكشاف إذ لا دليل على فوق الواحد .

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

﴿فلما أتاها﴾ أي النار التي أنسها ﴿نودي﴾ من الشجرة كما هو مصرح بذلك في سورة القصص أي من جهتها وناحيتها .

قيل كانت الشجرة سمرة خضراء وقيل كانت من عوسج وقيل كانت العليق وقيل شجرة من العناب والله أعلم بما كان .

وقيل لم يكن الذي رآه ناراً ، بل كان نوراً وذكر بلفظ النار ، لأن موسى حسبه ناراً ، وقيل هي النار بعينها ، وهي إحدى حجب الرب سبحانه ، ويدل له ما روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حجابه النار ، لو كشفها لأهلكت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه »[1] أخرجه مسلم .

﴿يا موسى﴾ أي نودي من الشجرة ، فقيل يا موسى وهذا أول الكلمات بينه وبين الله تعالى ، وسيأتي آخرها وهو قوله : ﴿أن العذاب على من كذب وتولى﴾ ؛ وهذا بالنسبة لهذه الواقعة ، وهذه الحالة وإلا فله مكالمات أخر قاله سليمان الجمل ولما نودي موسى ، قال : من المتكلم فقال الله تعالى :

---

(١) مسلم ١٧٩ .

﴿ إني أنا ربك ﴾ فعرف أنه كلام الله تعالى وليس هذا النداء والخطاب هو الذي وقع فيه الصعقة ودك الجبل كما تقدم ذكره في سورة الأعراف ، بل هذا غيره ؛ إذ هـذا أول بدء رسالته ، وذاك إنما كان بعد غرق فرعون حين أعطاه الله التوراة.

﴿ فاخلع نعليك ﴾ أمره الله سبحانه بخلع نعليه تعظيماً ، لأن الحفوة أبلغ في التواضع وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب . وقيل معناه انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادي المقدس ، والأول أولى ، قيل ومن ثَمَّ طاف السلف بالكعبة حافين .

قال النسفي : والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعـة وتعظيم لهـا ، فخلعهما وألقاهما من وراء الوادي انتهى ، وقيل لأنهما كانا من جلد حمار ميت أو من جلد مدبوغ ، قاله علي وابن مسعود ، وروي عن السدي وقتادة ، وقيل معنى الخلع لهما تفريغ القلب من الأهل والمال وهو من بدع التفاسير ، ثم علل سبحانه الأمر بالخلع فقال :

﴿ إنك بالـواد المقدس ﴾ أي المـطهر ، والمبـارك والقدس الـطهارة ، والأرض المقدسة المطهرة ، سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين ﴿ طوى ﴾ اسم للوادي ، قال الجوهري : هو اسم موضع بالشام يكسر طاؤه ويضم ويصرف ولا يصرف ، فمن صرفه وجعله اسم واد ومكان جعـله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة ، وقيل طوى كثني من الطي مصدر لنودي أو للمقدس ، أي نودي نداءين أو قدس مرة بعد أخرى ، قال ابن عباس : يعني الأرض المقدسة وذلك أنه مر بواديها ليلاً فطوى، يقال طويت وادي كذا وكذا ، وقيل طوى واد مستدير عميق ، مثل المطوي في استدارته .

﴿وأنا اخترتك﴾ بالافراد وقرىء إنَّا اخْتَرْنَاكَ بالجمـع ، قال النحـاس : والأول أولى لأنها أشبه بالخط وأولى بنسق الكلام ، لقوله: ﴿ يا موسى إني أنا ربك ﴾

والمعنى أصطفيتك بالنبوة والرسالة ، فنبأه وأرسله في ذلك الوقت وفي ذلك المكان ، وكان عمره حينئذ أربعين سنة.

﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ إليك مني أو للوحي ، وفيه نهاية الهيبة والجلال له كأنه قال لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له .

﴿ إنني أنا الله لا إلّـه إلا أنا ﴾ ثم أمره بالعبادة فقال: ﴿فاعبدني ﴾ لأن اختصاص الإلّهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبـادة ﴿ وأقم الصلاة ﴾ خصها بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة وعلل الأمر بإقامة الصلاة بقوله : ﴿ لـذكري ﴾ أي لتذكرني، فإن الذكر الكامل لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة ، أو المعنى لتذكرني فيهما لاشتمالهما على الأذكار أو لذكري إياك أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري ، أو لأمري بها في الكتاب وذكري إياها ، أو لتكون ذاكراً إلى غير ناس ، وقيل لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة ، أو المعنى أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة وقيل لذكر صلاتي .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾»[1] .

وأخرج الترمذي وابن ماجة وابن حبان وغيرهم من حديث أبي هريرة قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾»[2] . وكان ابن شهاب يقرؤها للذكرى ، وقيل المعنى لأذكرك بالمدح في عليين ، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول . وقيل لإخلاص ذكري وطلب وجهي ، ولا ترائي فيها ، ولا تقصد بها غرضاً آخر .

---

(١) مسلم ٦٨٤ ـ البخاري ٣٨٤ .

(٢) الترمذي كتاب الصلاة الباب ١٦ ـ ١٧ ـ ابن ماجة كتاب الصلاة الباب ١٠ .

﴿ إن الساعة ﴾ أي التي هي وقت الحساب والعقاب ﴿ آتية ﴾ أي كائنة وحاصلة لا محالة فاعمل الخير من عبادة الله والصلاة ، وهذا تعليل لما قبله من الأمر ﴿ أكاد ﴾ أي أريد ، قاله الأخفش . وقيل صلة ﴿ أخفيها ﴾ قال الواحدي : قال أكثر المفسرين : أخفيها من نفسي ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . وقال المبرد وقطرب : هذا على عادة مخاطبة العرب ، يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء : كتمته حتى من نفسي ، أي لم أطلع عليه أحداً .

ومعنى الآية أن الله تعالى بالغ في اخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف ؛ وكذلك المعنى في إخفاء وقت الموت على الإنسان ليكون على حذر ، تقديم الْوَجَل في كل وقت.

وقد روي عن سعيد بن جبير أنه قرأ أخفيها بفتح الهمزة ، ومعناه أظهرها ، قال النحاس : وأجود من هذا ما روي عنه أنه قرأها بضم الهمزة ، قال الفراء : معناه على الفتح أكاد أظهرها من خفيت الشيء اذا أظهرته ، أخفيه .

قال القرطبي : قال بعض اللغويين يجوز أن يكون أخفيها بضم الألف معناه أظهرها ، لأنه يقال خفيت الشيء وأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والاظهار ، قال أبو عبيدة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد ، قال النحاس وهذا أحسن ، وليس المعنى على أظهرها ولا سيما وأخفيها قراءة شاذة ، فكيف ترد القراءة الصحيحة الشائعة ، وقال ابن الانباري : في الآية تفسير آخر ، وهو أن الكلام ينقطع على ﴿ أكاد ﴾ وبعده مضمر ، أي أكاد آتي بها ، ووقع الابتداء بأخفيها الى آخره ، واختار هذا النحاس .

وقال أبو علي الفارسي : هو من باب السلب وليس من الأضداد ، ومعنى أخفيها أزيل عنها خفاءها وهو سترها ، ومن هذا قولهم اشكيته أي أزلت شكواه وعن الأخفش أن كاد زائدة للتأكيد ، قال : ومثله اذا أخرج يده لم يكد يراها ، قال والمعنى أقارب ذلك لأنك اذا قلت كاد زيد يقوم جاز أن

يكون قام : وأن يكون لم يقم ، ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه الآية على هذا .

﴿لتجزىٰ كل نفس بما تسعى﴾ أي بسعيها ، والسعي وإن كان ظاهراً في الأفعال فهو ههنا يعم الأفعال ، والتُّروك للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخود به .

﴿ فلا يصدنك عنها ﴾ أي لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة والتصديق بها أو عن ذكرها ومراقبتها وهذا أولى وأليق بشأن موسى عليه السلام ، وإن كان النهي بطريق التهييج والإلهاب.

وقيل الضمير للصلاة بعيد وهو ﴿ من لا يؤمن بها ﴾ من الكفرة ، وهذا النهي وإن كان للكافر بحسب الظاهر فهو في الحقيقة نهي له صلى الله عليه وسلم عن الانصداد أو عن إظهار اللين للكافرين ، فهو من باب لا أريتك ههنا ، كما هو معروف .

﴿ واتبع هواه ﴾ أي هوى نفسه بالانهماك في اللذات الحسية الفانية ، وفي إنكار الساعة ﴿ فتردى ﴾ أي فتهلك لأن انصدادك عنها لصد الكافرين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له .

﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ قال الزجاج والفراء : إن تلك اسم ناقص ، وُصِلَتْ بيمينك أي ما التي بيمينك . وروي عن الفراء أنه قال : تلك بمعنى هذه ولو قال ما ذلك لجاز ، أي ما ذلك الشيء ، وبالأول قال الكوفيون . قال الزجاج : ومعنى السؤال عن العصا التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها والتأمل لها ، قال الفراء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى هي عصاي لتثبيت الحجة عليه بعدما اعترف ، وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل . وقيل السؤال للتوطين لئلا يهول انقلابها حية ، أو للإيناس ورفع الهيبة للمكالمة .

﴿ قال هي عصاي ﴾ وقرىء عصي على لغة هذيل قال ابن عباس :

أعطاه ملك من الملائكة إذ توجه إلى مدين فكانت تضيء له بالليل ويضرب بها الأرض فيخرج له النبات ، ويهش بها على غنمه ورق الشجر . وعن قتادة : كانت تضيء له بالليل ، وكانت عصا آدم عليه السلام ورثها شعيب وأعطاها لموسى بعد أن زوَّجه ابنته . قيل وكان لها شعبتان وفي أسفلها سنان ولها محجن واسمها تبعة ﴿ أتوكأ ﴾ أي أتحامل ﴿ عليها ﴾ في المشي وأعتمدها عند الإعياء والوقوف على قطيع الغنم وعند الوثوب والنهوض للقيام ، ومنه الاتكاء .

﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ هش بالعصا يهش هشاً إذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق ، أي أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمي ؛ قاله عكرمة. وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف .

وقرأ النخعي أهس بالسين المهملة ، وهو زجر الغنم ، وكذا قرأ عكرمة ، وقيل هما لغتان بمعنى واحد ، ولما ذكر تفصيل منافع العصا عقبه بالإجمال فقال : ﴿ ولي فيها مآرب ﴾ أي حوائج ﴿ أخرى ﴾ قاله مجاهد وقتادة ، واحدها مأرُبة مثلث الراء ، كذا قال ابن الأعرابي وقطرب ، والقياس أُخَر، وإنما قال أخرى رداً إلى الجماعة أو لنسق الأخرى ، ولما ذكر بعضها شكراً أجمل الباقي حياء من التطويل أو ليسأل عنها الملك العلام فيزيد في الإكرام ويتلذذ بالخطاب .

وقد تعرض قوم لتعداد منافع العصا فذكروا من ذلك أشياء ، منها قول بعض العرب :

عصاي أركزها لصلاتي وأعدها لعداتي وأسوق بها دابتي وأقوى بها على سفري وأعتمد عليها في مشيتي ليتسع خطوي ، وأثب بها النهر وتؤمنني العثر وألقي عليها كسائي فتقيني الحر وتدفيني من القر وتدني إلى ما بعد مني، وهي تحمل سفرتي وعلاقة أدواتي، أعصي[١] بها عند الضراب وأقرع بها الأبواب وأقي بها عقور الكلاب ، وتنوب عن الرمح في الطعان وعن السيف عند منازلة الأقران ورثتها عن أبي وأورثها بعدي بني. أ هـ .

(١) يقال عصى بالسيف يعْصي إذا ضرب به، أ.هـ صحاح.

وقال الشوكاني : قد وقفت على مصنف في مجلد لطيف في منافع العصا لبعض المتأخرين . وذكر فيه أخباراً وأشعاراً وفوائد لطيفة ونكتاً رشيقة، وقد جمع الله سبحانه لموسى في عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام ما أمن به من كيد السحرة ومعرة المعاندين ، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته ، وكان ابن مسعود صاحب عصاة النبي صلى الله عليه وسلم وعنزته ؛ وكان يخطب بالقضيب وكذلك الخلفاء من بعده ، وكان عادة العرب العرباء أخذ العصا والاعتماد عليها عند الكلام وفي المحافل والخطب .

وقال بعضهم : إمساك العصا سنة الأنبياء وزينة الصلحاء وسلاح على الأعداء وعون الضعفاء وغم المنافقين وزيادة في الطاعات .

ويقال اذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان ويخشع منه المنافق والفاجر وتكون قبلته اذا صلى وقوته اذا أعيا .

﴿ قال ألقها يا موسى ﴾ هذه جملة مستأنفة أمره سبحانه بإلقائها ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة ﴿ فألقاها ﴾ أي طرحها موسى على الأرض ﴿ فإذا هي حية تسعى ﴾ ولم تكن قبل ذلك حية ، فمرت بشجرة فأكلتها ومرت بصخرة فابتلعتها ، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها قاله ابن عباس ، وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى ، أي تمشي بسرعة وخفة على بطنها .

قيل كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان فماً وباقيها جسم حية تنتقل من مكان إلى مكان وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفظاعة منظرها ، وقال في موضع آخر كأنها جان . وهي الحية الصغيرة الجسم الخفيفة ، وقال في موضع آخر كأنها ثعبان ، وهو أكبر ما يكون من الحيات ، ووجه الجمع أن الحية اسم جامع للكبير والصغير والذكر والأنثى .

وقيل كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان . وقيل سماها جاناً تارة نظراً للمبدأ وثعباناً مرة باعتبار المنتهى ، وحية تارة أخرى باعتبار الاسم الذي يعم الحالين فلما رآها كذلك خاف وفزع وولى مدبراً ولم يعقب فنودي أن يا موسى .

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

و ﴿ قال ﴾ سبحانه عند ذلك ﴿ خذها ولا تخف ﴾ منها ﴿ سنعيدها سيرتها ﴾ أي حالتها ﴿ الأولى ﴾ قال ابن عباس : فلم يأخذها ، ثم نودي الثانية أن خذها ولا تخف فلم يأخذها ، فقيل له في الثالثة إنك من الآمنين فأخذها .

قال الأخفش والزجاج : التقدير إلى سيرتها مثل واختار موسى قومه . قال : ويجوز أن يكون مصدراً لأن معنى سنعيدها سنسيرها ، أو سائرة أو مسيرة ، والمعنى سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التي هي العصوية ، والأولى تأنيث الأول ، والسيرة الحالة التي يكون عليها الإنسان غريزية أو مكتسبة ، وهي في الأصل فِعْلة من السير كالرِّكْبَة من الركوب ، ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة والهيئة.

قيل إنه لما قيل له لا تخف طابت نفسه حتى بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده في فمها ويأخذ بلحييها، قال المحلي وأرى ذلك موسى لئلا يجزع إذا انقلبت حية لدى فرعون.

﴿ واضمم يدك ﴾ اليمنى بمعنى الكف لا بمعنى حقيقتها ، وهي الأصابع إلى المنكب ﴿ إلى جناحك ﴾ قال الفراء والزجاج : جناح الإنسان عضده .

وبه قال مجاهد وقال إلى بمعنى تحت وقال قطرب : جنبه، وعبر بالجناح عن الجنب لأنه في محل الجناح . وقال مقاتل : إلى بمعنى مع ، أي مع جناحك الأيسر تحت العضد إلى الأبط .

وجواب الأمر ﴿ تخرج ﴾ يدك خلاف ما كانت عليه من الأدمة حال كونها ﴿ بيضاء ﴾ نيرة مشرقة كائنة .

﴿ من غير سوء ﴾ أي عيب كنى به عن البرص ، ويسمى هذا عند أهل البيان الاحتراس ، وهو أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد ، وذلك أن البياض قد يراد به البرص والبهق ، فأتى بقوله : ﴿ من غير سوء ﴾ نفياً لذلك .

والمعنى تخرج بيضاء ساطعاً نورها تضيء بالليل والنهار كضوء الشمس ، تغشي البصر من غير برص ، وبه قال ابن عباس .

﴿ آية ﴾ أي معجزة ﴿ أخرى ﴾ غير العصا . وقال الأخفش : انها بدل من بيضاء ، قال النحاس . وهو قول حسن ، وقال الزجاج : المعنى آتيناك أو نؤتيك آية أخرى ، لأنه لما قال : ﴿ تخرج بيضاء ﴾ دل على أنه قد آتاه آية أخرى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله :

﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ قيل والتقدير فعلنا ذلك لنريك ، والكبرى معناها العظمى ، أي لنريك بهاتين الآيتين يعني اليد والعصا بعض آياتنا الكبرى على رسالتك فلا يلزم أن تكون اليد هي الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا ، فيرد على ذلك أنه لم يكن في اليد إلا تغير اللون فقط بخلاف العصا فإن فيها مع تغير اللون الزيادة في الحجم وخلق الحياة والقدرة على الأمور الخارقة ومن قال هي اليد قال لأنها لم تعارض أصلاً ، وأما العصا فقد عارضها السحرة ، والأول أولى .

ثم صرح سبحانه بالغرض المقصود من هذه المعجزات فقال : ﴿ اذهب ﴾ رسولاً ﴿إلى فرعون ﴾ ومن معه بهاتين الآيتين : العصا واليد ،

وانظر رسالته لبني إسرائيل من أين تؤخذ ، قال بعضهم : تؤخذ من قوله : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ أي للنبوة والرسالة ، وخصه بالذكر لأن قومه تبع له ، ثم علل ذلك بقوله .

﴿إنه طغى ﴾ أي عصى وتمرد وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحد في كفره إلى ادعاء الإلهية .

﴿ قال رب اشرح لي صدري ﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا قال موسى ، ومعنى شرح الصدر توسيعه ، تضرع عليه السلام إلى ربه وأظهر عجزه بقوله : « ويضيق صدري ولا ينطلق لساني» ﴿ ويسر لي أمري ﴾ أي سهل عليّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون ، والتيسير معناه التسهيل .

قال الزمخشري : فإن قلت ﴿ لي ﴾ من قوله : ﴿ اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ ما جدواه ، والكلام منتظم بدونه ؟ قلت قد أبهم الكلام أولاً فقال : اشرح لي ويسر لي ، فعلم أن ثم مشروحاً وميسراً ، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح لصدره والتيسير لأمره ، ويقال يسرت له كذا ومنه هذه الآية وتيسرته لكذا ، ومنه فسنيسره لليسرى .

﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ يعني العجمة التي كانت فيه من أثر الجمرة التي ألقاها في فيه وهو طفل ، أي أطلق عن لساني العقدة التي فيه ، قيل أذهب الله سبحانه تلك العقدة جميعها بدليل قوله : ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ وقيل لم تذهب كلها لأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية ، بل سأل حل عقدة تمنع الإفهام بدليل قوله من لساني ، أي كائنة من عقد لساني ، ويؤيد ذلك قوله هو أفصح مني لساناً ، وقوله حكاية عن فرعون ولا يكاد يبين .

وجواب الأمر قوله : ﴿ يفقهوا قولي ﴾ أي لكي يفهموا كلامي عند تبليغ الرسالة ، والفقه في كلام العرب الفهم ، ثم خص به علم الشريعة ، والعالم به فقيه . قاله الجوهري .

﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي ﴾ أي معيناً وظهيراً ، والوزير الموازر

كالأكيل المواكل لأنه يحمل عن السلطان وزره أي ثقله . قال الزجاج : واشتقاقه في اللغة من الوزر وهو الملجأ الذي يعتصم به لينجي من الهلكة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كلا لا وزر ﴾ والوزير الذي يعتمد الملك على رأيه في الأمور ونلتجىء اليه . وقال الأصمعي : هو مشتق من الموازرة وهي المعاونة ، نقله الزمخشري عن الأصمعي ﴿ هارون أخي ﴾ وكان أكبر من موسى وأفصح لساناً وأجمل وأوسم ، وكان موسى آدم أقنى جعداً .

﴿ اشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ على صيغة الدعاء أي يا رب أحكم به قوتي واجعله شريكي في أمر الرسالة ، والأزر القوة ، يقال آزره أي قواه ، وقيل الظهر أي اشدد به ظهري ، وقرىء أشدد بهمزة قطع وأشركه بضم الهمزة ، أي أشدد أنا به أزري وأشركه أنا في أمري .

قال ابن عباس : نبيء هرون ساعتئذ حين نبيء موسى .

﴿ كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ هذا الذكر والتسبيح هما الغاية من الدعاء المتقدم ، والمراد التسبيح هنا باللسان . وقيل المراد به الصلاة ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ هو المبصر والعالم بخفيات الأمور وهو المراد هنا ، أي إنك كنت بنا عالماً في صغرنا فأحسنت إلينا فأحسن أيضاً كذلك الآن . ثم أخبره الله سبحانه بأنه قد أجاب ذلك الدعاء .

﴿ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ أي أعطيت ما سألته منا عليك ، والسؤل المسؤول ، أي المطلوب ، كقولك خبز بمعنى مخبوز ، ومسؤوله هو قوله رب اشرح لي ؛ وزيادة قوله يا موسى لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل .

﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾ كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه ، والمن الإحسان والإفضال، والمعنى ولقد أحسنا اليك قبل هذه المرة وهي حفظ الله سبحانه له من شر الأعداء كما بينه سبحانه هنا ، وأخرى تأنيث آخر بمعنى غير ، وحاصل ما ذكره من المنن عليه من غير سؤال ثمانية .

إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ (٣٩) إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ (٤٠) وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١) ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى (٤٢) ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣)

الأولى : قوله: ﴿ إذ أوحينا الى أمك ما يوحى ﴾ الى قوله : ﴿ عدو له ﴾ أي مننا ذلك الوقت وقت الإيحاء ، والمراد به إما مجرد الإلهام لأمه واسمها يوحانذ ، قاله السيوطي في شرح النقابة ؛ أو في النوم بأن أراها ذلك ، أو على لسان نبي أو على لسان ملك لا على طريق النبوة ، كالوحي إلى مريم ، أو بإخبار الأنبياء المتقدمين بذلك وانتهى الخبر اليها ؛ والمراد بما يوحى ما سيأتي من الأمر لها أبهمه أولاً وفسره ثانياً تفخيماً لشأنه بقوله :

﴿ أن ﴾ مفسرة لأن الوحي فيه معنى القول ، أو بأن ﴿ اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم ﴾ القذف هنا الطرح ، أي اطرحيه في البحر ، واليم البحر والنهر الكبير . قال الفراء : هذا أمر وفيه المجاراة ، أي اقذفيه ، والتابوت الصندوق.

﴿ فليلقه اليم بالساحل ﴾ الأمر للبحر مبني على تنزيله منزلة من يفهم ويميز لما كان إلقاؤه بالساحل أمراً واجب الوقوع ، وهذا أمر معناه الخبر وانما

جيء به بصيغة الأمر مبالغة ، إذ الأمر أقطع الأفعال وآكدها ، والساحل هو شط البحر ، سمي ساحلاً لأن الماء سحله قال ابن دريد : والمراد هنا ما يلي الساحل من البحر لا نفس الساحل ، والضمائر كلها لموسى لا للتابوت ، وإن كان قد ألقي معه ، لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا وبعده له قال السدي : اليم هو النيل .

﴿ يأخذه عدو لي وعدو له ﴾ جواب الأمر بالإلقاء أو القذف ، والمراد بالعدو فرعون ، فإن أم موسى لما ألقته في البحر ، وهو النيل المعروف : وكان يخرج منه نهر الى دار فرعون ، فساقه الله في ذلك النهر الى داره ؛ فأخذ التابوت فوجد موسى فيه . وقيل إن البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون فأمر من يأخذه . وقيل وجدته ابنة فرعون ، والأول أولى ، والمنة الثانية قوله :

﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ أي ألقى الله على موسى محبة عظيمة كائنة من الله تعالى في قلوب عباده لا يراه أحد إلا أحبه وقيل جعل عليه سبحة من جمال لا يراه أحد من الناس إلا أحبه وقال ابن جرير : المعنى وألقيت عليك رحمتي وقيل المعنى أحببتك ؛ ومن أحبه الله أحبه الناس ، والقلوبُ لا محالة . قال ابن عباس : كل من رآه ألقيت عليه منه محبة ، وعن سلمة بن كهيل قال : حببتك إلى عبادي ، والمنة الثالثة قوله :

﴿ ولتصنع على عيني ﴾ أي ولتربّى وتغذّى بمرأى مني ، ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الإنسان الشيء بعينه إذا اعتنى به . قاله الزمخشري والعين هنا بمعنى الرعاية مجاز مرسل من اطلاق السبب على المسبب ، يقال صنع الرجل جاريته اذا رباها ، وصنع فرسه اذا داوم على علفه والقيام عليه ، وتفسير (على عيني) بمرأى مني صحيح . قال النحاس : وذلك معروف في اللغة ولكن لا يكون في هذا تخصيص لموسى فإن جميع الأشياء بمرأى من الله . وقال أبو عبيدة : وابن الانباري : إن المعنى لتغذى على محبتي وإرادتي ، تقول أتخذ الأشياء على عيني أي على محبتي قال ابن الانباري : العين في هذه الآية يقصد

بها قصد الإرادة والاختيار : من قول العرب : عدا فلان على عيني أي على المحبة مني ، قيل أي فعلت ذلك لتصنع.

وقيل أي ولتصنع على عيني قدرنا مشي أختك ، والعين أيضاً من ألفاظ الصفات فلا تُؤَوَّل وَتُجْزىٰ على ظاهرها وهو الأولى ، وقرىء ولتصنع بإسكان اللام على الأمر وقرىء بفتح التاء والمعنى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي ، وعلى عين مني ، وقال الزمخشري قريباً منه .

﴿ إذ تمشي أختك ﴾ وكانت شقيقته واسمها مريم وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿ فتقول هل أدلكم على من يكفله ﴾ وذلك أنها خرجت متعرفة لخبره فوجدت فرعون وامرأته آسية يطلبان له مرضعة فقالت لهما هذا القول أي هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه ويربيه ويكمل له رضاعه ؟ وكانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر ؛ وقيل أربعة قبل إلقائه في اليم، فقالا لها ومن هو؟ قالت أمي ، فقالا : هل لها لبن ، قالت نعم ابن اخي هرون أكبر من موسى بسنة ، وقيل بأكثر فجاءت الأم فقبل ثديها وكان لا يقبل ثدي مرضعة غيرها وهذا هو معنى: ﴿ فرجعناك الى أمك ﴾ .

وفي مصحف أبيّ فرددناك وهذه هي المنة الرابعة.

﴿ كي تقر عينها ﴾ بلقائك قال الجوهري : قررت به عيناً قرة وقروراً ورجل قرير العين وقد قرت عينه تقر وتقر نقيض سخنت ، والمراد بقرة العين السرور برجوع ولدها اليها بعد أن طرحته في البحر وعظم فراقه عليها ﴿ ولا تحزن ﴾ حيئنذ أي لا يحصل لها ما يكدر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب ، ولو أراد الحزن بالسبب الذي قرت عنها بزواله لقدم نفي الحزن على قرة العين فيحمل هذا النفي على ما يحصل بسبب يطرأ بعد ذلك ، ويمكن أن يقال إن الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعين ، قال البيضاوي : ولا تحزن أنت يا موسى على فراقها وفقد إشفاقها وهو تعسف .

والمنة الخامسة قوله : ﴿ وقتلت نفساً ﴾ المراد بالنفس هنا نفس القبطي الذي وكزه موسى فقضى عليه واسمه ﴿ قاب قان ﴾ وكان طباخاً لفرعون وكان قتله له خطأ وكان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ، وقيل ثلاثين سنة ﴿ فنجيناك من الغم ﴾ أي الغم الحاصل معك من قتله خوفاً من العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو منهما جميعاً،وقيل من جهة فرعون لا من جهة قتله لأنه كان كافراً وأيضاً قتله له كان خطأ،وقيل الغم هو القتل بلغة قريش وما أبعده هذا .

والمنة السادسة قوله : ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ الفتنة تكون بمعنى المحنة وبمعنى الأمر الشاق ، وكل ما يبتلى به الإنسان، والفتون مصدر كالثبور والسكون والكفور أي اختبرناك اختباراً وابتليناك ابتلاء أو فتوناً من الابتلاء على أنه جمع فَتْن أو فِتْنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز في حجزة ، وبدور في بدرة أي خلصناك مرة بعد مرة مما وقعت فيه من المحن التي سبق ذكرها قبل أن نصطفيك لرسالتنا أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ثم إلقاءه في البحر في التابوت ، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه ، ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ؛ ثم تناوله الجمرة بدل الجوهر ، ثم قتله القبطي وخروجه إلى مدين خائفاً .

وقد أخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أثراً طويلاً في تفسير هذه الآية فمن أحب استيفاء ذلك فلينظر في كتاب التفسير من سنن النسائي ولعل المقصود بذكر تنجيته من الغم الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو الامتنان عليه بصنع الله سبحانه وتقوية قلبه عند ملاقاة ما سيقع له من ذلك مع فرعون وبني إسرائيل .

والمنة السابعة قوله : ﴿ فلبثت سنين في أهل مدين ﴾ قال الفراء : تقدير الكلام وفتناك فتوناً فخرجت الى أهل مدين فلبثت سنين ومثل هذا الحذف

كثير في التنزيل ، وكذا في كلام العرب ، فانهم يحذفون كثيراً من الكلام إذا كان المعنى معروفاً،ومدين هي بلد شعيب ، وكانت على ثمان مراحل من مصر هرب اليها موسى فأقام بها عشرين سنة وهي أتم الأجلين وقيل أقام عند شعيب ثمانية وعشرين سنة ، منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب ، ومنها ثماني عشرة سنة بقي فيها عنده حتى ولد له .

﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ أي في وقت سبق في قضائي وعلمي وقدري أن أكلمك وأجعلك نبياً أو على ميقات ومقدار من الزمان يوحي فيه إلى الأنبياء قاله ابن عباس ، وهو رأس أربعين سنة ، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به قاله مجاهد وقتادة قال الشاعر :

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

وكلمة ثم المفيدة للتراخي للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدة وذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق وتفرق غنمه ونحو ذلك،وعلى بمعنى مع .

﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ بالرسالة والاصطناع اتخاذ الصنعة وهو الخير تسديه إلى إنسان ، والمعنى اصطنعتك لوحيي ورسالتي لتنصرف على إرادتي ، قال الزجاج : تأويله اخترتك لإقامة حجتي وجعلتك بيني وبين خلقي وصرت بالتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتجبت عليهم، قيل وهو تمثيل لما خَوَّله الله سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصه وهذه هي المنة الثامنة.

قال أبو السعود : وفي قوله يا موسى تشريف له عليه السلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الأخرى التي وقعت قبل المرة المحكية أولاً وقوله ﴿ اصطنعتك لنفسي﴾ تذكير لقوله : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ وتمهيد لإرساله إلى فرعون مؤيداً بأخيه انتهى .

﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ أي وليذهب أخوك حسبما طلبت وهو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع ، وفيه اختصار لما ذكر المذهوب اليه في قوله اذهبا إلى فرعون وحذفه هنا .

﴿ بآياتي ﴾ أي بمعجزاتي التي جعلتها لك آية وهي اليد والعصا فقط وعليه أكثر المفسرين وقيل هي التسع الآيات وفيه نظر والباء للمصاحبة أي مصحوبين بها متمسكين بها في اجراء أحكام الرسالة وإكمال أمر الدعوة وليست المتعدية إذ ليس المراد مجرد ذهابهما وإيصالها إلى فرعون .

﴿ ولا تنيا ﴾ أي لا تضعفا ولا تفترا يقال ونى ينى وَنْياً إذا ضعف وتوانى في الأمر توانياً لم يبادر إلى ضبطه ولم يهتم به فهو متوان أي غير مهتم ولا محتفل .

﴿ في ذكري ﴾ قال الفراء هذا وعن ذكري سواء ، والمعنى لا تقتصرا عن ذكري بالإحسان إليكما والإنعام عليكما ، ومن ذكر النعمة شكرها ، وقيل المعنى لا تبطيا في تبليغ رسالتي ، وفي قراءة ابن مسعود لا تهنا في ذكري .

﴿ اذهبا إلى فرعون ﴾ هذا أمر لهما جميعاً بالذهاب وموسى حاضر وهرون غائب بل كان في ذلك الوقت بمصر تغليباً لموسى ، لأنه الأصل في أداء الرسالة وكذا الحال في صيغة النهي المذكورة وعلل الأمر بالذهاب بقوله : ﴿ إنه طغى ﴾ أي جاوز الحد في الكفر والتمرد ، بادعائه الربوبية ، وخص موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم وجمعهما هنا تشريفاً لموسى بإفراده ، وقيل الأول أمر لموسى بالذهاب الى كل الناس ، والثاني أمر لهما بالذهاب إلى فرعون .

فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾

ثم أمرهما سبحانه بالإنة للقول لما في ذلك من التأثير في الإجابة فإن التخشين بادىء بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب في الكفر فقال : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ أي دَارِيَاه وارفقا به ، ولا تعنُفا في قولكما في رجوعه عن ذلك ؛ والقول اللين هو الذي لا خشونة فيه ؛ يقال لأن الشيء يلين ليناً ، والمراد تركهما للتعنيف كقولهما : ﴿ هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى ﴾ فإنه دعوة في صورة عرض ومشاورة ، وقيل : القول اللين هو الكنية له أي : قولا له : يا أبا الوليد ، وقيل يا أبا العباس ، وقيل يا أبا مرة ، وقيل أن يَعِدَاهُ بنعيم الدنيا والآخرة إن أجاب ، وقيل أن يعداه بشباب لا يهرم بعده وملك لا يزول إلا بالموت . قاله البيضاوي .

ثم علل الأمر بالإنة للقول له بقوله : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ أي بَاشِرَا ذلك مباشَرَةً من يرجو ويطمع فالرجاء راجع اليهما كما قاله جماعة من النحويين سيبويه وغيره ، وقد تقدم تحقيقه في غير موضع .

قال الزجاج : لعل لفظة طمع وترج فخاطبهم بما يعقلون،وقيل لعل هنا بمعنى الاستفهام ، والمعنى فانظر هل يتذكر أو يخشى ، وقيل بمعنى كي ،والتذكر النظر فيما بلغاه من الذكر وإمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سبباً في الإجابة

والخشية هي خشية عقاب الله الموعود به على لسانهما ، وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع ، وفائدة إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علم الله بأنه لا يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة وإظهار ما حدث في أضاعيف ذلك من الآيات .

﴿ قالا ربنا إننا نخاف ﴾ أسند القول إليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى تغليباً للإيذان بأصالته في كل قول وفعل ، أو قاله هرون بعد ملاقاتهما ، فحكى ذلك مع قول موسى عند نزول الآية ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ فإن هذا الخطاب قد حكي بصيغة الجمع مع أن كلاً من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم في الوجود ، فكيف باجتماعهم في الخطاب .

﴿ أن يفرط ﴾ فرعون ﴿ علينا ﴾ بفتح الياء وضم الراء أي يَعْجَل ويبادر بعقوبتنا، قاله ابن عباس ، يقال فَرَط منه أمر أي بَدَر، ومنه الفارط وهو الذي يتقدم القوم الى الماء أي يعذبنا عذاب الفارط في الذنب وهو المتقدم فيه ، كذا قال المبرد ، وقال أيضاً : فرط منه أمر وأفرط أسرف وفرط ترك وقرىء يُفْرَط بضم الياء وفتح الراء أي يحمله حامل على التسرع إلينا،وقرأت طائفة من الإفراط أي يشتط في أذيتنا أي فلا يصبر إلى تمام الدعوة واظهار المعجزة .

﴿ أو أن يطغى ﴾ أي يعتدي قاله ابن عباس وإظهار كلمة ﴿ أن ﴾ مع استقامة المعنى بدونها لإظهار كمال الاعتناء بالأمر والإشعار بتحقق الخوف من كل منهما ﴿ قال ﴾ تعالى ﴿ لا تخافا ﴾ ما توهمتماه من الأمرين ثم علل ذلك بقوله : ﴿إنني معكما ﴾ بالنصر لكما والمعونة على فرعون ﴿ أسمع وأرى ﴾ أي أدرك ما يجري بينكما وبينه بحيث لا يخفى علي منه خافية ، ولست بغافل عنكما فأفعل في كل حال ما يليق بكما من دفع ضرر وجلب نفع ، وعن ابن جريج قال : أسمع ما يقول وأرى ما يجاوبكما به فأوحي إليكما فتُجَاوِبَاه.

وعن ابن مسعود قال : لما بعث الله موسى إلى فرعون قال : رب أي شيء أقول قال: قل هيا شرا هيا ، قال الأعشى : تفسير ذلك الحي قبل كل شيء ، والحي بعد كل شيء وجود السيوطي اسناده، وسَبَقَه إلى تجويد إسناده ابن كثير في تفسيره ، ثم أمرهما بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعد أمرهما بالذهاب إليه فلا تكرار فقال : ﴿ فأتياه فقولا ﴾ أَمَرَهُمَا أن يقولا ست جمل.

الأولى قوله : ﴿ إنّا رسولا ربك ﴾ أرسلنا اليك ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل﴾ أي خل عنهم وأطلقهم من الأسر والقسر ﴿ ولا تعذبهم ﴾ بالبقاء على ما كانوا عليه ، وقد كانوا عند فرعون في عذاب شديد ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم . ويكلفهم من العمل ما لا يطيقونه من الحفر والبناء وحمل الثقيل .

﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ قيل هي العصا واليد . وقيل إن فرعون قال لهما وما هي ؟ فأدخل موسى يده في جيب قميصه ثم أخرجها ولها شعاع كشعاع الشمس ، فعجب فرعون من ذلك ، ولم يره موسى العصا إلا يوم الزينة .

قال الزمخشري : وهذه الجملة جارية من الجملة الأولى مجرى البيان والتفسير ، لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي مجيء الآية ، وإنما وحد بآية ولم يثن معه آيتان لأن المراد تثبيت الدعوى ببرهانها ، فكأنه قيل قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة .

﴿ والسلام ﴾ أي السلامة من العذاب ﴿ على من اتبع الهدى ﴾ قال الزجاج : أي من اتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل ومن عذابه وليس بتحية . قال : والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب ، قال الفراء : السلام على من اتبع ولمن اتبع سواء .

والجملة السادسة قوله : ﴿ إنا قد أوحي إلينا﴾ من جهة الله سبحانه ﴿ أن العذاب على من كذب ﴾ ما جئنا به ﴿ وتولى ﴾ أعرض عنه ، والمراد بالعذاب الهلاك والدمار في الدنيا والخلود في النار ، والمراد بالتكذيب التكذيب بآيات الله وبرسله والتولي الإعراض عن قبولها والإيمان بها . قال قتادة : كذب كتاب الله وتولى عن طاعته فأتياه وقالا جميع ما ذكر وسارعا الى الامتثال من غير تلعثم .

﴿ قال ﴾ فرعون لهما ﴿ فمن ربكما يا موسى ؟ ﴾ فأضاف الرب إليهما لما أن المُرْسِل لا بد أن يكون رباً للرسول أو لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل ، ولم يضفه إلى نفسه لعدم تصديقه لهما ولجحده للربوبية وغاية عتوه ونهاية طغيانه، وخص موسى بالنداء لكونه الأصل في الرسالة . وقيل لمطابقة رؤوس الآي والأول أولى .

﴿ قال ﴾ موسى مجيباً له : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ﴾ الذي هو عليه متميز به عن غيره ؛ قرىء بفتح اللام على أنه فعل وبسكون اللام ، والمعنى أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق بالمنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش والرجل للمشي واللسان للنطق والعين للنظر والأذن للسمع ، كذا قال الضحاك وغيره . قال الحسن وقتادة : أعطى كل شيء صلاحه وهداه لما يصلحه . وقال مجاهد : المعنى لم يخلق خلق الإنسان في خلق البهائم ، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً . ومنه قول الشاعر :

وله في كل شيء خلقه وكذلك الله ما شاء فعل

وقال الفراء : المعنى خلق للرجل المرأة ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث أو المعنى أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، ومعنى ﴿ ثم

هدى ﴾ أنه سبحانه هداهم الى طريق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شيء فيما خلق له ، أو المعنى أعطى كل شيء خلقه الله سبحانه ولم يخله من عطائه .

قال ابن عباس : خلق لكل شيء زوجة ثم هدى ، قال هداه لَمْنْكَحِهِ ومطعمه ومشربه ومسكنه ، ولما سمع فرعون ما احتج به موسى في ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية وشاهَد ما نَظَمَه في سلك الاستدلال من البرهان النير كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف ولا بد لهما من خالق وهاد ، وذلك الخالق والهادي هو الله سبحانه لا رب غيره ، خاف أن يظهر للناس أحقية ما قاله موسى وبطلان خرافاته ، أراد أن يصرف موسى عن سننه إلى ما لا يعنيه من الأمور التي لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات لأجل أن يرى قومه أن عنده معرفة .

﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ كقوم نوح وهود ولوط وصالح في عبادتهم الأوثان فإنها لم تُقِرّ بالرب ، بل عبدت الأوثان ونحوها من المخلوقات . ومعنى البال الحال والشأن ، أي ما حالهم وما شأنهم وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة . فأجابه موسى و﴿ قال علمها عند ربي ﴾ أي ان هذا الذي سألت عنه ليس مما نحن بصدده ، بل هو من علم الغيب الذي استأثر الله به لا تعلمه أنت ولا أنا وإن العلم بأحوالهم لا تعلق له بمنصب الرسالة ﴿ في كتاب ﴾ أي أنها مثبتة في اللوح المحفوظ . قال الزجاج : المعنى أن أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها يوم القيامة والتقدير علم أعمالها عند ربي في كتاب .

وأعلم أن فرعون لما سأل موسى عن الإلّه وكان ذلك مما سبيله الاستدلال أجابه موسى بأوجز عبارة وأحسن معنى ، ولما سأله عن القرون الأولى ، وكان ذلك مما سبيله الإخبار ولم يأته خبر في ذلك وكله إلى عالم

الغيوب . قاله الكرخي ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ اختلف في معناه على أقوال :

الأول : انه ابتداء كلام مستأنف تنزيه لله سبحانه عن هاتين الصفتين ، وقد تم الكلام عند قوله في كتاب . قاله الزجاج قال : ومعنى لا يضل لا يهلك ، من قوله تعالى : ﴿ أئذا ضللنا في الأرض ﴾ ، ولا ينسى شيئاً من الأشياء فقد نزهه عن الهلاك والنسيان .

الثاني: أن معنى لا يضل لا يخطىء . قاله ابن عباس .

الثالث: أن معناه لا يغيب . قال ابن الأعرابي : أصل الضلال الغيبوبة .

الرابع: أن المعنى لا يحتاج إلى كتاب ولا يضل عنه علم شيء من الأشياء ولا ينسى ما علمه منها . حكي هذا عن الزجاج أيضاً . قال النحاس : وهو أشبهها بالمعنى ولا يخفى أنه كقول ابن الأعرابي .

الخامس: أن المعنى لا يذهب شيء عن علمه ولا ينسى ، أي بعدما علم ، وهذا كالرابع .

السادس: أن اللفظ الأول إشارة إلى كونه عالماً بكل المعلومات . والثاني دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد ، وهو إشارة إلى نفي التغير .

السابع: أن هاتين الجملتين صفة للكتاب ، والمعنى أن الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له .

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي مهدها مهداً أو ذات مهد ، وهو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش ، وقرىء مهاداً . قال النحاس : والجمع أولى من المصدر لأن هذا الموضع ليس موضع مصدر إلا على حذف المضاف . وقيل مهاد مفرد كالفراش أو جمع معناه الفراش ؛ فالمهاد جمع المهد ، أي جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم ، وهذا من جملة كلام موسى في جواب فرعون عن سؤاله الأول فهو مرتبط بقوله ثم هدى ، لكنه ذكر في خلال كلامه على سبيل الاعتراض على سؤال فرعون الثاني وجوابه.

﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ السلك إدخال الشيء في الشيء ، والمعنى أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها وسهلها لكم، وَوَسَّطَها بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها . وفي آية أخرى ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون ﴾ .

ثم قال سبحانه تتميماً لما وصفه به موسى ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ هو ماء المطر . قيل الى هنا انتهى كلام موسى، وما بعده وهو ﴿فأخرجنا به ﴾ من كلام الله سبحانه . قاله ابن عطية وتبعه المحلى وفيه بعد . وقيل: هو من

الكلام المحكي عن موسى ، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته ، ونوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ، ويجاب عنه بأن الكلام كله محكي عن واحد وهو موسى ، والحاكي للجميع هو الله سبحانه . والمعنى فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث ، والمعالجة .

﴿ أزواجاً من نبات شتى ﴾ أي ضروباً وأشباهاً من أصناف النبات المختلفة الألوان والطعوم والروائح والمنافع ، فمنها ما هو للناس ، ومنها ما هو للدواب ، سميت بذلك لازدواجها ، واقتران بعضها ببعض .

والنبات مصدر سمي به النابت ، فاستوى فيه الواحد والجمع ، وشتى جمع شتيت وزنه فَعْلَى وألفه للتأنيث .

وقال الأخفش : التقدير أزواجاً شتى من نبات ، يقال أمر شَتٌّ، أي متفرق وَشَتَّ الأمر شتاً يَشِتُّ شتاً وشتاتاً تفرق واشْتَتَّ مثله ، والشتيت المتفرق ، وشتّان اسم فعل ماض بمعنى افترق ، ولذلك لا يكتفي بواحد ، قاله السمين ، قال ابن عباس : شيء مختلف .

﴿كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ أي قائلين لهم ذلك والأمر للإباحة وتذكير النعمة والجملة حال ، يقال رعت الماشية الكلأ ورعاها صاحبها رعاية ، أي أسامها وسرحها ، يجيىء لازماً ومتعدياً ، والانعام جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم . والمعنى مُعِدِّيها لانتفاعكم بالأكل والعلف آذنين فيه .

﴿إن في ذلك ﴾ الإشارة إلى ما تقدم ذكره في هذه الآيات ﴿ لآيات ﴾ أي لعبر ﴿ لأولي النهى ﴾ جمع نُهْيَة وهي العقل ، وسمي به لأنه ينهي صاحبه عن ارتكاب القبائح ، وقيل: إنه اسم مفرد وهو مصدر كالهدى والسرى ، قاله

أبو علي وخص ذوي النهى لأنهم الذين يُنْتَهى إلى رأيهم . وقال ابن عباس : لأولي الحجى والعقل وعنه لأولي التقى ، وهذا كله من موسى احتجاج على فرعون في إثبات الصانع جواباً لقوله : فمن ربكما يا موسى ؟ .

﴿ منها ﴾ أي من الأرض المذكورة سابقاً ﴿ خلقناكم ﴾ قال الزجاج وغيره : يعني أن آدم خلق من الأرض وأولاده منه ، فعلى هذا يكون خلق كل إنسان غير آدم من الأرض بوسائط عديدة بقدر ما بينه وبين آدم . وقيل المعنى أن كل نطفة مخلوقة من تراب في ضمن خلق آدم ، لأن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه وعلى هذا يدل ظاهر القرآن .

﴿ وفيها ﴾ أي في الأرض ﴿ نعيدكم ﴾ بعد الموت فتدفنون فيها وتتفرق أجزاؤكم حتى تصير من جنس الأرض ، وجاء بـ ﴿ في ﴾ دون إلى للدلالة على الاستقرار ﴿ ومنها ﴾ أي من الأرض ﴿نخرجكم ﴾ كما أخرجناكم عند ابتداء خلقكم ﴿ تارة ﴾ أي مرة ﴿ أخرى ﴾ بالبعث والنشور وتأليف الأجسام ورد الأرواح اليها على ما كانت عليه قبل الموت .

عن عطاء الخراساني قال : إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة ، وذلك قوله : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾ .

وأخرج أحمد والحاكم عن أبي أمامة قال : لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾، بسم الله ؛ وفي سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله »[1] .

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٧٩ .

وفي حديث في السنن أنه أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر وقال : « منها خلقناكم ـ ثم أخرى ـ وقال : وفيها نعيدكم ـ ثم أخرى ـ وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

﴿ ولقد أريناه ﴾ الرؤية بصرية أي أَبْصَرْنا فرعون وَعَرَّفْناه ﴿ آياتنا كلها ﴾ المراد بها الآيات التسع المذكورة في قوله ولقد آتينا موسى تسع آيات ، على أن الاضافة للعهد ، وهي العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وطمس الأموال والشد على القلوب .

وقال أبو السعود : هي العصا واليد وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الأمور التي كل منها آية بينة لقوم يعقلون انتهى ، وهذا مبني على أن هذا إخبار عما وقع له مع فرعون في أول دعائه له ، وليس كذلك بل هذا إخبار عن جملة ما وقع له في مدة دعائه له ، وهي عشرون سنة ؛ وأن هذا من جملة الكلام المُعْتَرَض به في أثناء القصة ، وقيل : المراد جميع الآيات التي جاء بها موسى والتي جاء بها غيره من الأنبياء وأن موسى قد كان عرفه جميع معجزاته ؛ ومعجزات سائر الأنبياء ، والأول أولى ، وقيل المراد بها حجج الله سبحانه الدالة على توحيده .

﴿ فكذب ﴾ فرعون بها أو بموسى ، وزعم أنها سحر ﴿ وأبى ﴾ عليه أن يجيبه إلى الإيمان وأن يوحد الله ، وهذا يدل على أن كفر فرعون كفر عناد لأنه رأى الآيات وكذب بها كما في قوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ .

﴿ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا ؟ ﴾ مستأنفة مرتبة على جواب موسى ؛ والهمزة للإنكار لما جاء به موسى من الآيات أي جئت يا موسى لتوهم الناس بأنك نبي يجب عليهم اتباعك ، والإيمان بما جئت به حتى تتوصل بذلك الإيهام الذي هو شعبة من السحر الى أن تَغْلِب على أرضنا ، يعني مصر وتخرجنا منها ، ويكون لك الملك فيها وإنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض

لتنفير قومه عن إجابة موسى فإنه إذا وقع في أذهانهم وتقرر في أفهامهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين في معجزاته ولا ملتفتين إلى ما يدعو اليه من الخير .

﴿ بسحرك يا موسى ﴾ فيه دليل على أنه خاف منه خوفاً شديداً والا فأي ساحر يقدر أن يخرج ملكاً من أرضه ﴿ فلنأتينك بسحر مثله ﴾ أي والله لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر في الغرابة ، حتى يتبين للناس أن الذي جئت به سحر يقدر على مثله ساحر .

﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً ﴾ هو مصدر أي وعداً ، وقيل اسم مكان أي اجعل لنا يوماً معلوماً أو مكاناً معلوماً أو أجلاً وميقاتاً ، قال الجوهري : الميعاد المواعدة والوقت والموضع وكذلك الموعد ، قال القشيري وأبو البقاء ، والأظهر أنه مصدر ولهذا قال .

﴿ لا نخلفه ﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد ولا نجاوزه ، وقرىء بالرفع على أنه صفة لموعد أي لا نخلف ذلك الموعد ، وقرىء بالجزم على أنه جواب الأمر ، والاخلاف أن تعد شيئاً ولا تنجزه ﴿ نحن ﴾ توكيد مصحح للعطف على الضمير المرفوع المستتر في نخلفه.

﴿ ولا أنت ﴾ فوض تعيين الموعد إلى موسى إظهاراً لكمال اقتداره على الإتيان به بمثل ما أتي به موسى ﴿ مكاناً ﴾ منصوب باجعل على أنه مفعول فيه وأطال الكلام على نصبه السمين ﴿ سوى ﴾ بضم السين وبكسرها وهما قراءتان سبعيتان وكسر السين هي اللغة العالية الفصيحة ، والمراد مكاناً مستوياً ، وقيل مكاناً منصفاً عدلاً بيننا وبينك ، قال سيبويه يقال : سوى وسوى أي عدل يعني عدلاً بين المكانين .

قال أبو عبيدة والقتيبي : معناه مكاناً وسطاً بين الفريقين ، لأن المسافة من الوسط الى الطرفين مستوية ، وقيل معناه سوى هذا المكان وفيه بعد .

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾

ثم واعده موسى لوقت معلوم و ﴿ قال موعدكم ﴾ أي زمان الوعد ﴿ يوم الزينة ﴾ أو وعدكم وعد يوم الزينة وقرىء يوم بالنصب أي في يوم الزينة إنجاز موعدنا ، قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي : كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه ؛ وقال سعيد بن جبير : كان ذلك يوم عاشوراء ، وبه قال ابن عباس ، وعن ابن عمر نحوه .

وقال الضحاك : يوم السبت ، وقيل يوم النيروز ، وقيل يوم كسر الخليج . وانما جعل الميعاد زماناً بعد أن طلب منه فرعون أن يكون مكاناً سوى ، لأن يوم الزينة يدل على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم ، وانما خص عليه السلام ذلك اليوم ليكون ظهور الحق وزهوق الباطل في يوم مشهور على رؤوس الأشهاد ، ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد ، ولما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم ، ولإظهار كمال قوته، وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم .

﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ يعني وقت الضحى ذلك اليوم الذي هو عبارة من ارتفاع الشمس ، والمراد بالناس أهل مصر ، والمعنى يحشرون الى العيد وقت الضحى نهاراً وينظرون في أمر موسى وفرعون جهاراً ليكون أبعد من الريبة وأبين لكشف الحق وليشيع في جميع أهل الوبر والمدر .

قال الفراء : اذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى ، فذلك الموعد قال : وجرت عادتهم بحشر الناس في ذلك اليوم ، وقرىء يحشر على البناء للمفعول وللفاعل أي وأن يحشر الله الناس ، وقرىء بالنون ؛ وبالفوقية أي وأن تحشر أنت يا فرعون، والضحى قال الجوهري: ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ، ثم بعده الضحى وهو حين تشرق الشمس،وخص الضحى لأنه أول النهار فإذا امتد الأمر بينهما كان في النهار متسع .

﴿ فتولى فرعون ﴾ أي انصرف من ذلك المقام والمجلس ليهيىء ما يحتاج اليه مما تواعدا عليه ، وقيل معنى تولى أعرض عن الحق ، والأول أولى: ﴿ فجمع كيده ﴾ أي جمع ما يكيد به سحره وحيلته ، والمراد أنه جمع السحرة ، قيل كانوا اثنين من القبط وسبعين من بني إسرائيل، وقيل أربعمائة وقيل اثنى عشر الفاً ، وقيل أربعة عشر ألفاً ، وقال ابن المنذر : كانوا ثمانين ألفاً ، وقيل غير ذلك مع كل واحد حبل وعصا .

﴿ثم أتى ﴾ فرعون الموعد الذي تواعدا اليه مع جمعه الذي جمعه وأتى موسى أيضاً ﴿ قال لهم موسى ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر .

﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ﴾ دعا عليهم بالويل ونهاهم عن افتراء الكذب بإشراك أحد معه بادعاء كون ما ظهر على يدي سحراً ، قال الزجاج : التقدير ألزمهم الله ويلاً ، أو هو نداء كقوله : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ .

﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ عظيم السحت الاستئصال يقال سحت وأسحت بمعنى وأصله استقصاء الشعر قرىء من السحت ، وهي لغة نجد وبني تميم ، وقرىء من سحت وهي لغة الحجاز ، قال ابن عباس : يسحتكم يهلككم ، وقال قتادة : يستأصلكم ؛ وقال أبو صالح : فيذبحكم .

﴿ وقد خاب من افترى ﴾ أي قد خسر وهلك من كذب على الله أيّ

كذب كان ﴿ فتنازعوا ﴾ أي السحرة ﴿ أمرهم بينهم ﴾ لما سمعوا كلام موسى تناظروا وتشاوروا في أمر موسى وأخيه وتجاذبوا أطراف الكلام في ذلك أي هل هما ساحران أو رسولان ؟ ﴿ وأسروا النجوى ﴾ أي من موسى وكانت نجواهم هي قولهم الآتي : إن هذان لساحران .

وقيل إنهم تناجوا فيما بينهم ، فقالوا إن كان ما جاء به موسى سحراً فسنغلبه وإن كان من عند الله فسيكون له أمر .

وقيل الذي أسروه أنه إذا غلبهم اتبعوه ، قاله الفراء والزجاج ، وقيل الذي أسروه أنهم لما سمعوا قول موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً قالوا: ما هذا بقول ساحر ، والنجوى المناجاة يكون اسماً ومصدراً .

﴿ قالوا ﴾ لأنفسهم أي قال بعضهم لبعض سراً ، وحاصل ما قالوه ست جمل أولها قولهم : ﴿ ان هذان لساحران ﴾ وآخرها قولهم : ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ وقرىء إن هذين وروي هذا عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة ، وبها قرأ الحسن والنخعي وغيرهما من التابعين وهذه موافقة للإعراب الظاهر مخالفة لرسم المصحف فإنه مكتوب بالألف ، وقرىء إن هذان بتخفيف ان على أنها نافية ، وهذه موافقة للرسم وللإعراب.

وقرأ أهل المدينة والكوفة إنَّ هذان بتشديد إن وبالألف فوافقوا الرسم وخالفوا الإعراب الظاهر .

وقد تكلم جماعة من أهل العلم في توجيه هذه القراءة وقد استوفى ذلك ابن الأنباري والنحاس ، فقيل إنها لغة بني الحرث بن كعب ومراد وخثعم وكنانة يجعلون رفع المثنى ونصبه وجره بالألف أي في أحواله الثلاث، وبه صرح سيبويه والأخفش وابو زيد والكسائي والفراء .

وقيل: إن بمعنى نعم ههنا قاله عاصم ، قال النحاس : رأيت الزجاج

والأخفش يذهبان إليه، وقال الزجاج المعنى إن هذان لهما ساحران وأنكره أبو علي الفارسي وأبو الفتح وابن جني ، وقيل ان الألف في هذا مشبهة بالألف في يفعلان فلم تغير ، وقيل إنه هذان لساحران ، وبه قال قدماء النحاة ، وقال ابن كيسان : إنه لما كان يقال . هذا بالألف في الرفع والنصب والجر على حال واحدة ، وكانت التثنية لا تغير الواحد أجريت مجرى الواحد ، فثبتت الألف في الرفع والنصب والجر ، وقيل تقديره ما هذان إلا ساحران فهذه أقوال تتضمن توجيه هذه القراءة بوجه تصح به وتخرج به عن الخطأ وبذلك يندفع ما روي عن عثمان وعائشة أنه غلط من الكاتب للمصحف .

وحاصل القرآت السبعية التي في هذا التركيب أربعة واحدة لأبي عمرو ، وهي التي بالياء ، والثانية ألف بعدها نون مشددة ومخففة من ان ، والأخريان تخفيف النون التي في هذان مع تشديد النون من ان وتخفيفها ، وإثبات كل من الياء والألف في النطق وإن كان قراءة سبعية صحيحة متواترة لكنه مشكل من حيث مخالفته لخط المصحف الإمام فإنه ليس فيه ياء ولا ألف فإن رسمه كما في السمين هذن من غير ألف ولا ياء ، ثم قال : وكم جاء في الرسم أشياء خارجة عن القياس ، وقد نصوا على أنه لا نُجَوِّز القراءة بها فليكن هذا الموضع مما خرج عن القياس .

﴿ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ﴾ وهي أرض مصر ﴿ بسحرهما ﴾ الذي أظهراه ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ قال الكسائي : أي بسنتكم، والمثلى نعت ، كقولك : امرأة كبرى تقول العرب فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم ، قال الفراء : العرب تقول هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم ونحوه في القاموس والمثلى تأنيث الأمثل وهو الأفضل يقال : فلان أمثل قومه أي أفضلهم وهم الأماثل وانما أتت باعتبار التعبير بالطريقة وإلا فباعتبار المعنى كأن يقال أماثل، والمعنى أنهما إن يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم أو يذهبا بمذهبكم الذي هو أمثل المذاهب .

قال ابن عباس : يقول أمثلكم وهم بنو إسرائيل وقال علي : أي يصرف وجوه الناس اليهما .

﴿فأجمعوا كيدكم ﴾ الفاء فصيحة ، أي إذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين فأجمعوا ، والإجماع الإحكام والعزم على الشيء . قاله الفراء ، تقول أجمعت على الخروج مثل أزمعت . وقال الزجاج : معناه ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعاً عليه بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم .

﴿ ثم ائتوا صفاً ﴾ أي مصطفين مجتمعين ليكون أنظم لأمرهم وأشهد لهيبتهم وأدخل في استجلاب الخشية ، وهذا قول جمهور المفسرين . وقال أبو عبيدة : الصف المجمع ، ويسمى المصلى الصف . قال الزجاج : وعلى هذا معناه : ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم ، يقال أتيت الصف بمعنى أتيت المصلى . فعلى التفسير الأول نصب صفاً على الحال ، وعلى الثاني على المفعولية ، قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى « ثم ائتوا والناس مصطفون » فيكون مصدراً في موضع الحال ولذلك لم يجمع .

﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ أي فاز من غلب ، يقال استعلى عليه إذا غلبه ؛ وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض ، وقيل : من قول فرعون لهم ، وهذه جملة معترضة .

﴿ قالوا يا موسى ﴾ اختر أحد الأمرين ، كذا قدره الزمخشري ، وهذا تفسير معنى ﴿ إما أن تلقي ﴾ ما تلقيه أو التقدير الأمر إما إلقاؤك أول أو إلقاؤنا ، كذا قدره الزمخشري ، أو إلقاؤك أول ، ويدل عليه قوله :

﴿ وإما أن نكون ﴾ نحن ﴿ أول من ألقى﴾ ما يلقيه ، واختاره المحلى ، أو أول من يفعل الإلقاء والمراد إلقاء العصا على الأرض ، وكانت السحرة معهم عصيّ ، وكان موسى قد ألقى عصاه يوم دخل على فرعون ، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول ، وهذا منهم استعمال أدب حسن معه ، وكأنه تعالى ألهمهم ذلك وقد وصلت اليهم بركته .

قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

وعلم موسى اختيار إلقائهم أولاً حتى (قال) لهم (بل ألقوا) أنتم أولاً ، وانما أمرهم بذلك لتكون معجزته أظهر اذا ألقوا ما معهم فيصير آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين ، ثم يلقي هو عصاه فتبتلع ذلك ويظهر سلطانه . وقيل: إنما بَتَّ عليه السلام لهم القول مقابلة للأدب بأحسن من أدبهم ، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم.

فألقوا ﴿ فإذا حبالهم ﴾ الفاء فصيحة ، يقال إذاً هذه هي المفاجئة ، والتحقيق أنها إذاً الكائنة بمعنى الوقت للطالبة ناصباً لها ، وقد يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة ﴿ وعصيهم ﴾ بكسر العين اتباعاً لكسرة الصاد ، وقرىء بضمها وهي لغة بني تميم .

﴿ يخيل اليه من سحرهم ﴾ بالتحتية على البناء للمفعول ، وقرىء تخيل بالفوقية لأن العصي والحبال مؤنثة ، وقرىء نخيل بالنون على ان الله سبحانه هو المخيل لذلك ، وقرىء بالتحتية مبنياً للفاعل على ان المخيل هو الكيد .

وقيل المخيل هو ﴿أنها تسعى ﴾ أي يخيل إليه سعيها ، ذكر معناه الزجاج ، وقال ومن قرأ بالفوقية جعل أن في موضع نصب ، أي تخيل اليه ذات سعي . يقال خيل إليه إذا شبه له ، وأدخل عليه التهمة والشبهة ، وذلك أنهم لطخوها وطلوها بالزئبق فلما أصابها حر الشمس ارتعشت واهتزت

واضطربت، فخيل إليه أنها تتحرك .

﴿ فأوجس ﴾ أي أحس وقيل وجد وقيل أضمر وقيل خاف ﴿ في نفسه خيفة موسى ﴾ وذلك لما يُعْرَض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه ، وقيل خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه ، أو لعله كان مأموراً بأن لا يفعل شيئاً إلا بالوحي ، فلما تأخر نزول الوحي في ذلك المحفل بقي في الخجل . قاله ابن عادل وقيل إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم في العصا ، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا ، فأذهب الله سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشره به بقوله :

﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ أي المستعلي عليهم بالظفر والغلبة ، والجملة تعليل للنهي عن الخوف ، وفيه إشارة الى أن لهم علواً وغلبة بالنسبة إلى سائر الناس ، ولذلك أوجس منهم خيفة فرد ذلك بأنواع من المبالغة ، أحدها ذكر كلمة التوكيد وهي ﴿إنَّ﴾ وثانيها تكرير الضمير ، وثالثها لام التعريف ، ورابعها لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة ، وهذا يكفي فيه ظن العلو في أمرهم لا أن الأعلى لمجرد الزيادة ، لأنه لم يكن للسحرة علو حتى يكون هو أعلى منهم كما قيل. قاله الكرخي .

﴿ وألق ما في يمينك ﴾ يعني العصا ، وإنما أبهمها تعظيماً وتفخيماً ، أي لا تحتفل بهذه الأجرام فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها ، وهذه على كثرتها أقل شيء عندها ، فألقها ولا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، وجاز أنه يكون الإبهام للتصغير أي وألق العُوَيْد الفريد الصغير الجرم ، الذي بيدك فإنه بقدرة الله تعالى : ﴿ تلقف ﴾ على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها .

قرىء تلقف بسكون اللام من لقفه إذا ابتلعه بسرعة ، وقرىء بالرفع على تقدير فإنها تلقف . وقال الزجاج : القراءة بالجزم جواب الأمر ، ويجوز الرفع على معنى الحال كأنه قال ألقها متلقفة ﴿ ما صنعوا ﴾ من الحبال والعصيّ .

﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ﴾ أي جنسه ، أي أن الذي صنعوه كيد

ساحر ، أو أن صنعهم كيد ساحر وقرىء سِحْر، وإضافة الكيد إلى السحر على الاتساع من غير تقدير ، أو بتقدير ذي سحر وقيل غير ذلك .

﴿ ولا يفلح ﴾ ولا يسعد ﴿ الساحر ﴾ أي جنس الساحر ﴿ حيث أتى ﴾ أي حيث كان وأين توجه وأقبل ، وهذا من تمام التعليل .

﴿ فألقى السحرة ﴾ أي فألقى ذلك الأمر الذي شاهدوه من موسى والعصى إياهم ﴿ سجداً ﴾ لله تعالى ، وذلك لأنهم كانوا في أعلى طبقات السحر ، فلما رأوا ما فعله موسى خارجاً عن صناعتهم ، عرفوا أنه ليس من السحر البتة ، وقد مر تحقيق هذا في سورة الأعراف .

قال صاحب الكشاف : سبحان الله ما أعجب أمرهم، قد أُلقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين؛ وقيل إنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب ﴿ قالوا آمنا برب هرون وموسى ﴾ إنما قدم هرون على موسى هنا في حكاية كلامهم ، وأخر في الشعراء رعاية لفواصل الآي وعناية بتوافق رؤوسها ؛ ولأن الواو لا توجب ترتيباً .

قال عكرمة : إن سحرة فرعون كانوا تسعمائة ، فقالوا لفرعون : إن يكن هذان ساحرين فإنا نغلبهما فإنه لا أسحر منا ، وإن كانا من رب العالمين فإنه لا طاقة لنا برب العالمين ، فلما كان من أمرهم أن خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة ، فعندها قالوا هذا القول ، وقالوا أيضاً : ﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات﴾ إلى قوله : ﴿ والله خير وأبقى﴾ .

﴿ قال ﴾ فرعون ﴿ آمنتم له ﴾ يقال آمن له وبه ، فمن الأول قوله ﴿فآمن له لوط﴾ ،ومن الثاني قوله في الاعراف :﴿آمنتم به﴾ . قيل :إن الفعل هنا متضمن معنى الاتباع ، وقرىء على الاستفهام التوبيخي أي كيف آمنتم به ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ اي من غير إذن مني لكم بذلك .

﴿إنه﴾ اي أن موسى ﴿لكبيركم﴾ اي أسحركم وأعلاكم درجة في صناعة السحر ، فلا عبرة بما أظهرتموه، أو معلمكم واستاذكم ، كما يدل عليه قوله : ﴿الذي علمكم السحر﴾ يعني إنكم تلامذته في السحر ، فاصطلحتم وتواطأتم معه على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجاً لأمره وتفخيماً لشأنه .

قال الكسائي : الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال : جئت من عند كبيري . وقال محمد بن اسحاق : إنه لعظيم السحر . قال الواحدي : الكبير في اللغة الرئيس . ولهذا يقال للمعلم الكبير، أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا ، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى ولا كان رئيساً لهم ولا بينه وبينهم مواصلة .

﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم﴾ أي والله لأفعلن بكم ذلك ، والتقطيع للأيدي والأرجل ﴿من خلاف﴾ هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، لأن كل واحد من العضوين يخالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل ، وهذا يمين وذاك شمال ، أي لأقطعنها مختلفات ، ومن لابتداء الغاية ، كأن القطع ابتدىء من مخالفة العضو للعضو .

﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي على جذوعها ؛ كقوله : ﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾ أي عليه ، وانما آثر كلمة ﴿في﴾ للدلالة على استقرارهم عليها ؛ كاستقرار المظروف في الظرف ، وهذا هو المشهور ، وخص النخل لطول جذوعها ؛ وقيل إنه نقر جذوع النخل حتى جوفها ووضعهم فيها فماتوا جوعاً وعطشاً ، وهذا على الحقيقة كما أن الأول على المجاز وهو الأولى .

﴿ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾ أراد لتعلمن هل أنا أشد عذاباً لكم على إيمانكم به أم موسى ؟ ومعنى أبقى أدوم، وهو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء ، ويمكن أن يريد العذاب الذي توعدهم به موسى إن لم يؤمنوا ، وقيل إشارة الى أن إيمانهم لم يكن ناشئاً عن مشاهدة المعجزة بل كان من خوفهم من موسى حيث رأوا ما وقع من عصاه .

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)﴾

﴿ قالوا ﴾ غير مكترثين بوعيده لهم ﴿ لن نؤثرك ﴾ أي لن نختارك ﴿ على ما جاءنا ﴾ به موسى أو جاءنا من عند الله على يده ﴿ من البينات ﴾ أي من المعجزات الواضحات من عند الله سبحانه كاليد والعصا ، وقيل : إنهم أرادوا بالبينات ما رأوه في سجودهم من المنازل المعدة في الجنة ، وأنما نسب المجيء إليهم وإن كانت البينات جاءت لهم ولغيرهم ، لأنهم كانوا أعرف بالسحر من غيرهم ، وقد علموا أن ما جاءهم به موسى ليس من السحر ، فكانوا على جلية من العلم بالمعجز وغيره . وغيرهم كالمقلد وأيضاً كانوا هم المنتفعين بها .

﴿ و ﴾ لن نختارك على ﴿ الذي فطرنا ﴾ أي خلقنا والواو للعطف، وإنما أخروا ذكر الباري تعالى لأنه من باب الترقي من الأدنى الى الأعلى ، وقيل إنها واو القسم والموصول مقسم به وجوابه محذوف ، أي وحق الذي ، أو والله الذي فطرنا لا نؤثرك على الحق ، وهذان الوجهان في تفسير الآية ذكرهما الفراء والزجاج والسمين .

﴿ فاقض ما انت قاض ﴾ هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم لأقطعن أيديكم الخ . والمعنى فاصنع ما أنت صانعه من القتل والصلب ؛ واحكم ما أنت حاكم به . قال المفسرون : وليس في القرآن أن فرعون فعل بالسحرة ما

هددهم به ، ولم يثبت في الأخبار أيضاً . قاله أبو السعود . وفي بعض التفاسير أنه فعله بهم كما مر .

﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ تعليل لعدم المبالاة المستفادة من قولهم : لن نؤثرك ومن الأمر بالقضاء ، أي إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه في هذه الدنيا وما لنا من رغبة فيها ولا رهبة من عذابها . والمعنى إنما سلطانك علينا ونفوذ أمرك فينا في هذه الحياة الدنيا ولا سبيل لك علينا فيما بعدها فسيزول عن قريب قال الفراء : ما بمعنى الذي ، أي أن الذي تقضيه هو هذه الحياة الدنيا ، فقضاؤك وحكمك منحصر في ذلك .

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ التي سلفت منا من الكفر وغيره ﴿ و ﴾ يغفر لنا ﴿ ما ﴾ أي الذي ﴿ أكرهتنا عليه من ﴾ عمل ﴿ السحر ﴾ في معارضة موسى فـ﴿ ما ﴾ في محل نصب على المفعولية ، وقيل ما نافية ، قال النحاس : والأول أولى ، ويجوز أن تكون في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف ، أي وما أكرهتنا عليه من السحر محطوط وموضوع عنا ، أو لا يؤاخذنا به ربنا . قال ابن عباس : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل فأمر أن يعلموا السحر فتعلموا ، وقال علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض ، فهم من الذين آمنوا بموسى ، وقالوا هذا القول :

﴿ والله خير﴾ منك ثواباً ﴿ وأبقى ﴾ منك عذاباً . قال محمد بن كعب القرظي : خير منك إن أطيع وأبقى منك عذاباً إن عصي، وهذا رد لقوله : ﴿ ولتعلمن أينا ﴾ الخ حيث كان مراده نفسه .

﴿ إنه ﴾ أي الشأن ﴿ من يأت ربه مجرماً ﴾ هو المتلبس بالكفر والمعاصي ، المائت عليها ﴿ فإن له جهنم لا يموت فيها ﴾ فيستريح ﴿ولا يحيى ﴾ حياة تنفعه قال المبرد : لا يموت ميتة مريحة ولا يحيى حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحي ويبلغ به حالة الموت في المكروه ، إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم ، والعرب تقول : فلان لا حي ولا ميت ، إذا كان غير منتفع بحياته ، وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى ، وهذه الآية من جملة ما حكاه الله

سبحانه من قول السحرة . وقيل هو ابتداء كلام ، وهذا هو الأظهر . قاله النسفي .

أخرج أحمد ومسلم وابن أبي حاتم وغيرهم عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فأتى على هذه الآية فقال : « أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة ثم يقوم الشفعاء فيشفعون ، فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت القثاء في حميل السيل »[١] .

﴿ ومن يأته ﴾ أي ومن يأت ربه ﴿ مؤمناً ﴾ أي مصدقاً به ﴿ قد عمل الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ أي الطاعات ومات على الإيمان وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان المجرد عن العمل الصالح في استتباع الثواب ، لأن ما نيط من الأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا الثواب مطلقاً ﴿ فأولئك ﴾ الإشارة إلى من باعتبار معناه ﴿ لهم الدرجات العلى ﴾ أي المنازل الرفيعة التي قصرت دونها الصفات ، والعلى جمع علياء مؤنث أعلى .

﴿ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ﴾ بيان للدرجات ، وعدن علم للإقامة كما سبق ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين دائمين ، فيه مراعاة لمعنى من ﴿ وذلك ﴾ أي ما تقدم لهم من الأجر ﴿ جزاء من تزكى ﴾ أي من تطهر من الكفر والذنوب والمعاصي الموجبة للنار .

وأخرج أبو داود وابن مردويه عن أبي سعيد قال ، قال رسول الله (ﷺ) : « إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعِمَا »[٢] ؛ وفي الصحيحين بلفظ « إن أهل عليين ليرون من فوقهم ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء »[٣] .

---

(١) مسلم ١٨٥ ـ وأحمد بن حنبل ١١/٣ .
(٢) صحيح الجامع الصغير ٢٠٢٦ .
(٣) مسلم ٢٨٣١ ـ البخاري ١٥٤٠ .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى ﴾ هذا شروع في إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوهم ، وقد تقدم في البقرة والأعراف ، وفي يونس، واللام في لقد هي الموطئة للقسم ، وفي ذلك من التأكيد ما لا يخفى ﴿ أن أسر بعبادي ﴾ أي أسر بهم ليلاً من مصر إلى البحر ، وقد تقدم هذا مستوفى .

﴿ فاضرب ﴾ أي اجعل ﴿ لهم طريقاً ﴾ واشرعه ، وقيل طريقاً مفعول به على سبيل المجاز بأن يكون المعنى اضرب البحر لينفلق لهم فيصير طريقاً لهم فعلى هذا تصح نسبة الضرب الى الطريق ؛ والمراد بالطريق جنسه ، فإن الطرق كانت اثنتي عشرة بعدد أسباط بني إسرائيل ﴿ في البحر يبساً ﴾ أي يابساً وصف به الفاعل مبالغة ، وذلك أن الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق ، ومرت عليه الصَّبا فجففته حتى لم يكن فيها ماء ولا طين قاله محمد بن كعب ومجاهد ، وقرىء بسكون الباء مخففاً من يَبْساً المحرك وهو مصدر أو جمع يابس كصحب وصاحب وصف به الواحد مبالغة .

﴿ ولا تخاف دركاً ﴾ أي آمناً من أن يدرككم العدوّ من ورائكم، والدرك اللحاق بهم من فرعون وجنوده ، وبه قال ابن عباس قرأ الجمهور لا تخاف وهي أرجح لعدم الجزم في قوله سبحانه : ﴿ ولا تخشى ﴾ أي من فرعون أو من البحر أن يغرقك ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده ﴾ اتبع هنا مطاوع اتبع يقال :

أتبعتهم إذا تبعتهم وذلك إذا سبقوك فلحقته ، فالمعنى تبعهم فرعون ومعه جنوده ، وقيل الباء زائدة والأصل أتبعهم جنوده أي أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه ، وقرىء فاتّبعهم بالتشديد أي لحقهم بجنوده وهو معهم ، كما يقال ركب الأمير بسيفه أي معه سيفه وقيل سائقاً جنوده معه .

﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ أي علاهم وأصابهم منه ما غمرهم من الأمر الهائل الذي لا يقادر قدره ، ولا يبلغ كنهه ، وقال السمين : هذا من باب الاختصار وجوامع الكلم أي ما يقل لفظها ويكثر معناها ، والتكرير للتعظيم والتهويل ؛ كما في قوله : ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ وقيل غشيهم ما سمعت قصته ؛ وقال ابن الأنباري : غشيهم البعض الذي غشيهم لأنه لم يغشهم كل ماء البحر بل الذي غشيهم بعضه ، فهذه العبارة للدلالة على الذي أغرقهم بعض الماء ، والأول أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم .

وقرىء ﴿ فغشاهم من اليم ما غشاهم ﴾ أي غطاهم ما غطاهم من الغرق وسترهم ما لم يعلم كنهه إلا الله سبحانه فغرق فرعون وجنوده ونجا موسى وقومه .

﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ هذا إخبار عن حاله قبل الغرق أي أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى طريق النجاة لأنه قدر أن موسى وقومه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون في طريق يابسة وبين أيديهم البحر وفي قوله : ﴿ وما هدى ﴾ تأكيد وتقرير لإضلاله لأن المضل قد يرشد من يضله في بعض الأمور وفيه تكذيب لفرعون في قوله : وما أهديكم الا سبيل الرشاد .

﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ﴾ ذكر سبحانه ما أنعم به على بني إسرائيل بعد إنجائهم، وفي هذا الترتيب غاية الحسن حيث قدم تذكير نعمة الإنجاء ثم النعمة الدينية ثم الدنيوية والتقدير : قلنا لهم بعد إنجائهم يا بني إسرائيل ويجوز أن يكون خطاباً لليهود المعاصرين لنبينا صلى الله عليه وسلم لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء، والمراد بعدوهم هنا فرعون وجنوده ، وذلك بإغراقه وإغراق قومه في البحر بمرأى من بني اسرائيل .

﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ انتصاب جانب على أنه مفعول به لا على الظرفية لأنه مكان معين غير مبهم ، وإنما تنتصب الأمكنة على الظرفية اذا كانت مبهمة ، قال مكي : وهذا أصل لا خلاف فيه .

قال النحاس : والمعنى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لنكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام ، وقيل وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور فالوعد كان لموسى وإنما خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم فهو من المجاز العقلي .

وقرىء ﴿ ووعدناكم ﴾ لأن الوعد إنما هو من الله لموسى خاصة والمواعدة لا تكون الا من اثنين ، وقد قدمنا في البقرة هـذا المعنى ، والأيمن صفة للجانب،والمراد يمين الشخص لأن الجبل ليس له يمين ولا شمال ، فإذا قيل خذ عن يمين الجبل فمعناه عن يمينك من الجبل

﴿ ونزلنا عليكم ﴾ أي في التيه ﴿ المن والسلوى ﴾ قد تقدم تفسير المن بالترنجبين والسلوى بالسمان وأوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه ، وقال أبـو السعود : المن هو شيء حلو أبيض مثل الثلج كان ينزل من الفجر الى طلوع الشمس لكل إنسان صاع ويبعث الـريـح الجنوب عليهم السماني فيذبح الرجل منهم ما يكفيه .

﴿ كلوا ﴾ أي قلنا لهم : كلوا ﴿ من طيبات ما رزقناكم ﴾ أي المنعم به عليكم المراد بالطيبات المستلذات ، وقيل الحلال ، على الخلاف المشهور في ذلك ﴿ ولا تطغوا فيه ﴾ الطغيان التجاوز أي لا تتجاوزوا ما هو جائز الى ما لا يجوز كالسرف والبطر والمنع عن المستحق .

وقيل :المعنى لا تجحدوا نبي الله فتكونوا طاغين ، وقيل: لا تكفروا نعمة الله ولا تنسوا شكرها ،وقيـل:لا تعصوا المنعم أي لا تحملنكم السعة والعافية على المعصية ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعاني ، فإن كل واحد منها يصدق عليه أنه طغيان .

﴿ فيحل ﴾ بكسر الحاء أي يجب ﴿ عليكم غضبي ﴾ أي يلزمكم وبضمها بمعنى ينزل بكم وهو مأخوذ من حلول الدين أي حضور وقت أدائه ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ قرىء بكسر اللام الأولى وبضمها وهما لغتان .

قال الفراء : الكسر أحب اليّ من الضم لأن الضم من الحلول بمعنى الوقوع ويحل بالكسر يجب وجاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع وذكر نحو هذا أبو عبيدة وغيره، وَهَوَى بمعنى هلك ، قال الزجاج : فقد هوى أي صار الى الهاوية وهي قعر النار من هوى يهوي هوياً : أي سقط من علو الى سفل وهوى فلان أي مات ، وقال ابن عباس : هوى أي شقي .

﴿وإني لغفار لمن تاب ﴾ من الذنوب التي أعظمها الشرك بالله أو من الشرك قاله ابن عباس ﴿ وآمن ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وقال ابن عباس : وحد الله ﴿ وعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ مما ندب اليه الشرع وحسنه ، وقال ابن عباس : أدى الفرائض وظاهر اللفظ يشمل الفرض والنفل .

﴿ ثم اهتدى ﴾ أي استقام واستمر على ذلك حتى يموت ، قاله الزجاج وغيره وقال سعيد بن جبير : لزم السنة والجماعة ، وعن ابن عباس قال : من تاب من الذنب وآمن من الشرك وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه ثم اهتدى أي علم أن لعمله ثواباً وعلى تركه عقاباً يجزى عليه ، وقيل تعلم العلم ليهتدي به ، وقيل لم يشك في إيمانه والأول أرجح مما بعده، و﴿ثم﴾ إما للتراخي باعتبار الانتهاء لبعده عن أول الاهتداء أو الدلالة على بعد ما بين المرتبتين فإن المداومة أعظم وأعلى من الشروع .

والإيضاح أن المراد الاستمرار على تلك الطريقة إذ المهتدي في الحال لا يكفيه ذلك في الفوز بالنجاة ، حتى يستمر عليه في المستقبل ويموت عليه ، قاله الكرخي .

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾

﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ ﴾ هذا حكاية لما جرى بين الله سبحانه ، وبين موسى عند موافاته الميقات. والسؤال وقع من الله لكنه ليس لاستدعاء المعرفة بل إما لتعريف غيره أو لتبكيته أو لتنبيهه كما صرح به الراغب وظاهره أنه ليس بمجاز كما يقول التلميذ سألني الأستاذ عن كذا ليعرف فهمي ونحو ذلك ، قال المفسرون : كانت المواعدة أن يوافي موسى وجماعة من وجوه قومه فسار موسى بهم ، ثم عجل من بينهم شوقاً الى ربه فقال الله تعالى له : ما الذي حملك على العجلة حتى تركت قومك وخرجت من بينهم ؟ والمراد بهم جملة بني إسرائيل فإن موسى كان قد أمر هرون أن يسير بهم على أثره ويلحقونه في مكان المناجاة ، فأجاب موسى عن ذلك .

و ﴿قال هم أولاء على أثري ﴾ أي بالقرب مني تابعون لأثري واصلون بعدي ليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة ، وقيل لم يرد أنهم يسيرون خلفه ؛ بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده إليهم. بنو تميم يقولون أولى مقصورة وأهل الحجاز أولاء ممدودة ؛ قاله عيسى بن عمرو ، وقرىء إثر بكسر الهمز وإسكان الثاء وبفتحهما وهما لغتان .

ثم قال مصرحاً بسبب ما سأله الله عنه ، فقال : ﴿ وعجلت إليك رب

لترضى ﴾ عني بمسارعتي إلى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عني بذلك،وفيه دليل على جواز الاجتهاد ، والمعنى عجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير اليه لترضى عني يقال رجل عجل وعجول بين العجلة والعجلة خلاف البطء .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : تعجل موسى إلى ربه فرأى في ظل العرش رجلاً فعجب له فقال : من هذا يا رب ؟ قال لا أحدثك من هو لكن سأخبرك بثلاث فيه كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يعق والديه ولا يمشي بالنميمة .

﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك ﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا ؟ قال الله أي ابتليناهم واختبرناهم وألقيناهم في فتنة ومحنة ، قال ابن الأنباري : صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا غير اثني عشر ألفاً وهذه الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً ، وهذا الاخبار من الله تعالى عنها قيل إنه كان وقت سؤاله بقوله : وما أعجلك الخ فهو أول حضوره الميقات وفي ذلك الوقت لم تكن الفتنة وقعت لهم كما علمت فيكون هذا الإخبار فيه تجوز من إطلاق الماضي على المستقبل على حد ﴿ أتى أمر الله ﴾ وقيل إنه كان بعد تمام الأربعين أو في العشر الأخير منها .

قال الشهاب: وعليه الجمهور وعليه فيكون الإخبار حقيقاً لا تجوز فيه.

﴿ وأضلهم السامري ﴾ أي دعاهم الى الضلالة وكان من قوم يعبدون البقر فدخل في دين بني إسرائيل في الظاهر وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر وكان من قبيلة تعرف بالسامرة ، وقيل كان من القبط ، وقيل كان علجاً من علوج كرمان رفع الى مصر ، وكان جاراً لموسى وآمن به واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً ، فقال لمن معه من بني إسرائيل إنما تخلف موسى عن الميعاد الذي بينكم وبينه لما صار معكم من الحلي ، وهي حرام عليكم وأمرهم بإلقائها في

النار وكان من أمر العجل ما كان .

﴿ فرجع موسى الى قومه ﴾ قيل وكان الرجوع إلى قومه بعدما استوفى أربعين يوماً ذا القعدة وعشر ذي الحجة وأخذ التوراة ، روي أنه لما رجع موسى سمع الصياح والضجيج وكانوا يرقصون حول العجل ، فقال للسبعين الذين كانوا معه : هذا صوت الفتنة .

وفي القرطبي : وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي عن جماعة يجتمعون ويكثرون من ذكر الله وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم يضربون بالقضيب على شيء من الطبل ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه ويحضرون شيئاً يأكلونه ، فهل الحضور معهم جائز أم لا ؟ .

فأجاب : يرحمك الله ، مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلا جسداً له خوار ، فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل . وأما الطبل فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى ؛ وإنما كان مجلس النبي مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم . وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين. إ هـ .

﴿ غضبان أسفاً ﴾ الأسَفِ الشديد الغضب ، وقيل الحزين ، وقد مضى في الأعراف بيان هذا مستوفى ﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي ، والوعد الحسن وعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته . وقيل وعدهم أن يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم ، وكانت ألف سورة كل سورة ألف آية ، يحمل أسفارها سبعون جملاً ، ولا وعد أحسن من ذلك . قاله النسفي ، وقيل

وعدهم النصر والظفر . وقيل هو قوله : ﴿ وإني لغفار لمن تاب ﴾ الآية .

﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أي أوعدكم ذلك فطال عليكم الزمان فنسيتم ﴿ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴾ أي يلزمكم أو ينزل عليكم ، والغضب العقوبة والنقمة . والمعنى أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله عليكم بإرادتكم واختياركم .

﴿ فأخلفتم موعدي ﴾ أي موعدكم إياي ، فالمصدر مضاف إلى المفعول لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع اليهم من الطور . وقيل وعدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات فتوقفوا وتركوا المجيء بعده ، وهذا ترتيب على كل واحد من شقي الترديد على سبيل البدل .

فأجابوه و﴿قالوا ما أخلفنا موعدك ﴾ الذي وعدناك ﴿ بملكنا ﴾ بفتح الميم وقرىء بكسرها ؛ واختار هذه القراءة ابو عبيد وابو حاتم لأنها على اللغة العالية الفصيحة ، وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكاً ، والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، أي بملكنا أمورنا، أو بملكنا الصواب ، بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا ، وكنا مضطرين إلى الخطأ ، أي سوَّل لنا السامري ما سوّل . وغلب على عقولنا .

قال ابن عباس : بملكنا أي بأمرنا . وقال قتادة ، بطاقتنا ، وعن السدي مثله ، وقيل باختيارنا ، وذلك أن المرء إذا وقع في الفتنة لم يملك نفسه ، وقرىء بملكنا بضم الميم . والمعنى بسلطاننا ، قاله الحسن ، أي لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك وقيل: إن الفتح والكسر والضم كلها لغات سبعية في مصدر ملكت الشيء .

﴿ ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم ﴾ قرىء حملنا بضم الحاء وتشديد الميم وقرىء بفتح الحاء والميم مخففة ، واختارها أبو عبيد وأبو حاتم لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم وما حملوها كرهاً ، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة .

وقيل هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل .

وسميت أوزاراً أي آثاماً لأنه لا يحل لهم أخذها ولا تحل لهم الغنائم في شريعتهم ، والأوزار في الأصل الأثقال كما صرح به أهل اللغة ، والمراد بالزينة هنا الحلى ﴿ فقذفناها ﴾ أي طرحناها في النار طلباً للخلاص من إثمها ، وقيل المعنى طرحناها إلى السامري لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه .

﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ أي فمثل ذلك القذف ألقاها السامري ، قيل إنه قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى . إنما احتبس عنكم لأجل ما عندكم من الحلى فجمعوه ودفعوه إليه فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول ، وهو جبريل .

﴿ فأخرج لهم ﴾ السامري من الحفرة ، وهذا من كلامه تعالى : ﴿ عجلاً ﴾ صاغه من الحلى في ثلاثة أيام ﴿ جسداً ﴾ أي حال كونها جسداً أي صائرة جسداً ، أي دماً ولحماً ، والجسد جمعه أجساد .

قال في البارع : لا يقال الجسد إلا للحيوان العاقل ، وهو الانسان والملائكة والجن ، ولا يقال لغيره جسد إلا للزعفران ، وللدم إذا يبس أيضاً جسد وجاسد والمعنى أخرج لهم عجلاً ذا جثة على التشبيه بالعاقل .

﴿ له خوار ﴾ صوت يسمع ، أي يخور كما يخور الحي من العجول ، والخوار صوت البقر ؛ وقيل خواره كان بالريح لأنه كان عمل فيه خروقاً فإذا دخلت الريح في جوفه خار ، ولم تكن فيه حياة .

﴿ فقالوا ﴾ أي السامري ومن وافقه بادىء الرأي ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾ أي فضل موسى ولم يعلم مكان إلهه هذا ، وذهب يطلبه في الطور ، وهذا يقتضي أنهم جعلوا العجل إلهاً يعبدونه لذاته ، لا لتقريبه لهم من الله تعالى . وقيل المعنى فنسي موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم . قاله ابن عباس وقيل الناسي هو السامري ؛ أي ترك السامري ما أمر به موسى من الإيمان وضل كذا قال ابن الاعرابي .

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾

﴿ أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولاً ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أي أفلا يعتبرون ويتفكرون في هذا العجل لا يرد عليهم جواباً ، ولا يكلمهم اذا كلموه ؛ فكيف يتهمون أنه إلٰه وهو عاجز عن المكالمة ، و﴿أن﴾ مخففة ويرجع بالرفع في قراءة العامة ، وقرىء بالنصب وفيه ضعف ، والرؤية على الأول علمية ، وعلى الثاني بصرية .

﴿ ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً ، ولا أن يجلب إليهم نفعاً .

﴿ ولقد قال لهم هارون ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، وجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التي قبلها من الإنكار عليهم والتوبيخ لهم ؛ أي والله لقد نصح لهم هرون ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم ﴿ يا قوم إنما فتنتم به ﴾ أي وقعتم في الفتنة بسبب العجل وابتليتم به وضللتم عن طريق

الحق لأجله . قيل ومعنى القصر المستفاد من إنما هو أن العجل صار سبباً لفتنتهم لا لرشادهم ، وليس معناه أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره .

﴿وإن ربكم الرحمن﴾ لا العجل ؛ خص هذا الموضع باسم الرحمن تنبيهاً على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو الرحمن ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون ﴿فاتبعوني﴾ في أمري لكم بعبادة الله ، ولا تتبعوا السامري في أمره لكم بعبادة العجل .

﴿ وأطيعوا أمري ﴾ لا أمره ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين ﴾ اجابوا هارون عن قوله المتقدم بهذا الجواب المتضمن لعصيانه وعدم قبول ما دعاهم اليه من الخير ، وحذرهم عنه من الشر ؛ أي لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾ فينظر هل يقرنا على عبادته أو ينهانا عنها ؟ فجعلوا هذا غاية لعكوفهم لكن لا على طريق الوعد بل بطريق التعلل والتسويف فعند ذلك اعتزلهم هرون في اثنى عشر الفاً من المنكرين لما فعله السامري .

أخرج الحاكم وصححه عن عليّ قال : لما تعجل موسى إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلى بني إسرائيل فضربه عجلاً ، ثم ألقى القبضة في جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار ، فقال لهم السامري : هذا إلهكم وإله موسى ، فقال لهم هارون : يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ؟ فلما أن رجع موسى أخذ برأس أخيه فقال له هارون ما قال ، فقال موسى للسامري ما خطبك ؟ قال قبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وكذلك سوّلت لي نفسي ، فعمد موسى إلى العجل فوضع موسى عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر ، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب ، فقالوا لموسى ما توبتنا ؟ قال يقتل بعضكم بعضاً ، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه ولا يبالي بمن قتل حتى

قتل منهم سبعون ألفاً ، فأوحى الله إلى موسى : مرهم فليرفعوا أيديهم فقد غفرت لمن قتل وتبت على من بقي ، والحكايات لهذه القصة كثيرة جداً .

﴿ قال يا هارون ما منعك ﴾ جملة مستأنفة ، والمعنى أن موسى لما وصل اليهم أخذ بشعور رأس أخيه هارون وبلحيته ، وقال ما منعك من اتباعي واللحوق بي عند أن وقعوا في هذه الضلالة ودخلوا في الفتنة ؟ .

وقيل المعنى ما منعك من اتباعي في الإنكار عليهم ؟ وقيل معناه هلا قاتلتهم إذ قد علمت أني لو كنت بينهم لقاتلتهم ؟ وقيل معناه هلا فارقتهم ؟ .

﴿إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ ﴾ أي أيُّ شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعي ، ومن أن تلحقني وتأتيني في الجبل فتخبرني بما فعلوا ، وهذه الياء من ياءات الزوائد فحقها أن تحذف في الرسم كما هي كذلك في مصحف الامام ولا زائدة للتوكيد .

﴿ أفعصيت ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ ، والمعنى كيف خالفت ﴿ أمري ﴾ لك بالقيام لله ومنابذة من خالف دينه ، وأقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً ؟ وقيل: المراد بقوله : ﴿ أمري ﴾ هو قوله الذي حكى الله عنه . وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ، فلما أقام معهم ولم يبالغ في الإنكار عليهم نسبه الى عصيانه ومخالفة أمره ، وبه قال ابن جرير والقرطبي .

﴿ قال ﴾ هارون ﴿ يا ابن أم ﴾ بفتح الميم وبكسرها ، وعلى كل من القراءتين أراد أمي لكن على الأولى حذفت الألف المنقلبة عن الياء اكتفاء عنها بالفتحة ، وعلى الثانية حذفت الياء اكتفاء عنها بالكسرة ، ونسبه الى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور استعطافاً له وترقيقاً لقلبه ؛ فليس ذكرها لكونه أخاه من أمه فقط كما قيل ، فإن الحق إنه كان شقيقه .

﴿ لا تأخذ بلحيتي ﴾ وكان أخذها بشماله ﴿ ولا برأسي ﴾ وكان أخذ شعره بيمينه غضباً ، والمعنى ولا بشعر رأسي وكان قد أخذ بذؤابتيـه، أي لا تفعل هذا بي عقوبة منك لي فإن لي عذراً هو ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ أي خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم إن يتفرقوا فتقول لي إنك فرقت جماعتهم وتغضب عليّ ، وذلك لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة ممن لم يعبد العجل وتخلف مع السامري عند العجل آخرون ، وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم .

﴿ ولم ترقب قولي ﴾ أي تقول لم تعمل بوصيتي لك فيهم وتحفظها ، ومراده بوصية موسى له قوله هو : اخلفني في قومي وأصلح . قال ابو عبيدة : معناه ولم تنتظر عهدي وقدومي لأنك أمرتني ان اكـون معهم . وقال ابن جريج : لم تنتظر قولي ما أنا صانع .

وقال ابن عباس : لم تحفظ قومي ،والياء في﴿قولي﴾واقعة على موسى ، وقيل واقعة عـلى هارون ، لَـكِـنْ المفسـرون على الاحتمـال الأول كالسمـين والبيضاوي والخازن والخطيب فكلهم اقتصروا على ذلك .

والمعنى على الثاني وخشيت عدم تأملك في القول حتى تفهم عذري ، فاعتذر هارون إلى موسى ههنا بهذا ، واعتذر إليه في الأعـراف بما حكاه الله عنه هنالك حيث قال : إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني .

ثم ترك موسى الكلام مع أخـيه وخاطب السامري ﴿ قال فما خطبك ﴾ أي ما شأنك الداعي؟ وما الذي حملك على ما صنعت ﴿ يا سامري ، قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أي رأيت ما لم يروا وعلمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفطنوا له وأراد بذلك أنه رأى جبريل على فرس الحياة فألقى في ذهنه أن يقبض قبضة من أثره ، وأن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حياً .

وقرىء لم تبصروا بالفوقية على الخطاب وبالتحتية وهي أولى لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب موسى بذلك ويدعي لنفسه أنه علم ما لم يعلم به موسى يقال بَصُر بالشيء أي علمه وأبصره أي نظر اليه . كذا قال الزجاج ، وقيل هما بمعنى علمه والعامة على ضم الصاد ، وقرىء بالكسر وهي لغة .

﴿ فقبضت قبضة ﴾ بالضاد المعجمة فيهما ، وقرىء بالصاد المهملة فيهما ، والفرق بينهما ان ما بالمعجمة هو الأخذ بجميع الكف ، وما بالمهملة بأطراف الأصابع والقبضة بضم القاف القدر المقبوض .

قال الجوهري : هي ما قبضت عليه من شيء .قال وربما جاء بالفتح وقد قرىء قبضة بضم القاف وفتحها ومعنى الفتح المرة من القبض ثم أطلقت على المقبوض وهو معنى القبضة بضم القاف .

﴿ من أثر الرسول ﴾ أي من المحل الذي وقع عليه حافر فرس جبريل أي الملك الذي أرسل اليك ليذهب بك الى الطور للمناجاة وأخذ التوراة ولعل ذكره بعنوان الرسالة للإشعار بوقوفه على ما لم يقف عليه القوم ، وللتنبيه على وقت أخذ القبضة .

﴿ فنبذتها ﴾ أي فطرحتها في الحلى المذابة المسبوكة على صورة العجل فَخَارَ ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك التسويل ﴿ سوّلت ﴾ أي زينت ﴿ لي نفسي ﴾ قاله الأخفش ، وقيل حدثتني نفسي أن أفعله ففعلته اتباعاً لهواي ، وهو اعتراف بالخطأ واعتذار فلما سمع موسى منه ذلك .

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿قال فاذهب﴾ من بيننا ﴿فإن لك في الحياة﴾ أي ما دمت حياً وما عشت ﴿أن تقول﴾ لمن رأيته ﴿لا مساس﴾ أي لا تقربني وهو مأخوذ من المماسة أي لا يَمَسُّك أحد ولا تَمَسُّ أحداً ، لكن لا بحسب الاختيار منك بل بموجب الاضطرار الملجىء إلى ذلك ، لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينفي السامري عن قومه وأمر بني اسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له ولا شيء أوحش منها ولا أعظم في الدنيا .

ويقال إن قومه باقية فيهم تلك الحالة إلى اليوم ، قيل إنه لما قال له موسى ذلك هرب فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش ولا يجد أحداً من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لا مساس لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ، قال الجوهري في الصحاح ، وأما قول العرب : لا مَسَاس مثل قطام فإنما بني على الكسر لأنه معدول عن المصدر وهو المس إ هـ .

ولا مساس مصدر ماس[1] كقتال من قاتل فهو يقتضي المشاركة وهو مبني مع لا الجنسية ؛ والمراد به النهي أي لا تمسني ولا أمسك وحاصل ما قيل في معنى لا مساس ثلاثة أوجه .

(١) وأصلها قبل الإدغام : ماسس .

الأول: أنه حرم عليه مماسة الناس وكـان اذا مسه أحـد حم الماس والممسوس فلذلك كان يصيح إذا رأى أحداً : لا مساس .

والثاني: أن المراد منع الناس من مخالطته ، واعترض بأن الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول هو لا مساس ، وانما يقال له ذلك وأجيب بأن المراد الحكاية أي أجعلك يا سامري بحيث اذا أخبرت عن حالك قلت لا مساس .

الثالث: أن المراد انقطاع نسله وأن يخبر بأنه لا يتمكن من مماسة المرأة قاله أبو مسلم وهو ضعيف جداً ويقال: إن موسى هم بقتل السامري ، فقال الله تعالى لا تقتله فإنه سخي نقله القرطبي ؛ وهذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وان لا يخالطوا قاله الكرخي ، ثم ذكر حاله في الآخرة فقال :

﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ بفتح اللام وبالفوقية مبنياً للمفعول أي لن يخلفك الله ذلك الموعد وهو يوم القيامة والموعد مصدر أي إن لك وعداً لعذابك وهو كائن لا محالة ، قال الزجاج : أي يكافئك الله على ما فعلت في القيامة والله لا يخلف الميعاد ، وقرىء لن تخلفه بكسر اللام وله معنيان أحدهما ستأتيه ولن تغيب عنه ولا مذهب لك عنه ولن تجده مخلفاً ، كما تقول أحمدته أي وجدته محموداً ، والثاني على التهديد أي لا بد لك أن تصير اليه ، ولن يخلف الله موعده الذي وعدك بل توافيه وسيصل اليك ، ولن تستطيع الروغان ولا الحيدة عنه ، وقرىء لن نخلفه بالنون أي لن يخلفه الله .

﴿ وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أصله ظللت ، وقرىء بكسر الظاء أي دمت وأقمت على عبادته ، قاله ابن عباس والعاكف الملازم .

﴿ لنحرقنه﴾ بالنار قرىء بضم النون وتشديد الراء من حرقه يحرقه وقرىء بتخفيف الراء من أحرقه يحرقه ، ومن حرقت الشيء أحرقه حرقاً ، إذا بردته وحككت بعضه ببعض أي لنبردنه بالمبارد ، ويقال للمبرد المحرق والقراءة الأولى أولى ، ومعناها الإحراق بالنار، وكذلك معنى الثانية ، وقد جمع بين هذه

الثلاث القراآت بأنه أحرق؛ ثم برد بالمبرد ، وفي قراءة ابن مسعود لنذبحنه ثم لنحرقنه واللام هي الموطئة للقسم .

﴿ ثم لننسفنه في اليم نسفاً ﴾ قال ابن عباس . أي لنذرينه في هواء البحر بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر، والمقصود من ذلك زيادة عقوبته وإظهار غباوة المفتنين به لمن له أدنى نظر، والنسف نقض الشيء لتذهب به الريح ، وقرىء بضم السين وبكسرها وهما لغتان ، والمِنْسَف ما ينسف به الطعام وهو شيء منصوب الصدر أعلاه مرتفع والنسافة ما يسقط منه ، والنسف التفرقة والتذرية ، وقيل قلع الشيء من أصله،واليّم البحر قاله ابن عباس ، وقال عليّ : النهر .

﴿ إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ﴾ لا هذا العجل الذي فتنكم به السامري استئناف مسوق لتحقيق الحق إثر إبطال الباطل ﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ أي وسع علمه كل شيء ، وقرىء وسع مشددة ، قال قتادة : وسع ملأ ، وهذا آخر قصة موسى في هذه السورة المبتدأة بقوله : ﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ الخ .

﴿ كذلك ﴾ كلام مستأنف خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم تسلية له وتبصرة بأحوال من تقدم وتكثيراً لمعجزاته وتذكيراً للمستبصرين من أمته ؛ أي كما قصصنا عليك خبر موسى :

﴿ نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ أي من أخبار الحوادث الماضية في الأمم الخالية لتكون تسلية لك ، ودلالة على صدقك ومن للتبعيض أي بعض أخبار ذلك .

﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ منطوياً ومشتملاً على هذه القصص والأخبار والمراد بالذكر القرآن قاله ابن زيد ، وسمي ذكراً لما فيه من الموجبات للتذكر والاعتبار ، وقيل المراد بالذكر الشرف كقوله : ﴿ وانه لذكر لك ولقومك ﴾ ثم توعد سبحانه المعرضين عن هذا الذكر فقال :

﴿ من أعرض عنه ﴾ فلم يؤمن به ولا عمل بما فيه ، وقيل عن الله سبحانه ﴿ فإنه ﴾ أي المعرض عنه ﴿ يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ أي إثماً عظيماً وعقوبة ثقيلة بسبب إعراضه ﴿ خالدين فيه ﴾ أي في عذاب الوزر ، والمعنى أنهم مقيمون في جزائه فأقيم السبب مقام المسبب ﴿ وساء لهم ﴾ اللام للبيان كما في هيت لك ﴿ يوم القيامة حملاً ﴾ أي بئس الحمل ، والمخصوص بالذم محذوف أي ساء لهم حملاً وزرهم .

﴿ يوم ﴾ أي اذكر يوم ﴿ ينفخ ﴾ قرىء بضم التحتية وبالنون مبنياً للفاعل ، وبفتح الياء على أن الفاعل هو الله أو إسرافيل ﴿ في الصور ﴾ بسكون الواو ، وقرىء بفتحها جمع صورة ، والأول أولى وهو قرن ينفخ فيه يدعى به الناس للمحشر ، والمراد بهذه النفخة الثانية لأنه أتبعه بقوله : ﴿ ونحشر المجرمين ﴾ المراد بهم المشركون والكافرون والعصاة المأخوذون بذنوبهم التي لم يغفرها الله لهم .

والمراد بقوله : ﴿ يومئذ ﴾ يوم النفخ في الصور ﴿ زرقاً ﴾ أي زرق العيون مع سواد الوجوه ، والزرقة الخضرة في العين كعين السنور ، والعرب تتشاءم بزرقة العين لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق ؛ والزراقة أسوأ ألوان العين ، وأبغضها الى العرب ولذلك قالوا في صفة العدو : أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين .

وقال الفراء : زرقاً أي عمياً ، وقال الأزهري : عطاشاً ، وهو قول الزجاج لأن سواد العين يتغير بالعطش الى الزرقة ،وقيل: إنه كناية عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة ، وقيل هو كناية عن شخوص البصر من شدة الحرص،والقول الأول أولى ، والجمع بين هذه الآية وبين قوله : ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم ، قال ابن عباس : فيه حالات يكونون في حال زرقاً ، وفي حال عمياً .

يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾

﴿ يتخافتون بينهم ﴾ أي يتشاورون قاله ابن عباس ، وقيل يتسارون جملة حالية أو مستأنفة لبيان ما هم فيه في ذلك اليوم ، والخَفْتُ في اللغة السكون والمخافتة والتخافت والخَفْت بوزن السبت إسرار المنطق ثم قيل لمن خفض صوته خفته، والمعنى يخفضون أصواتهم ويخفونها ويقول بعضهم لبعض سراً لما لحقهم من هول ذلك اليوم ورعبه .

﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ لبثتم ﴾ في الدنيا أو في القبور ، أو ما بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة ﴿إلا عشراً ﴾ من الليالي بأيامها لأن الشهور غررها بالليالي فتكون الأيام داخلة فيها تبعاً ، قاله في الكشاف ، والمعنى أنهم يستقصرون ويستقلون مدة مقامهم ولبثهم في الدنيا جداً ، وقيل: المراد بالعشر عشر ساعات ، ثم لما قالوا هذا قال الله سبحانه ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ فيما بينهم .

﴿إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ أي أعدلهم قولاً وأكملهم رأياً وأعلمهم عند نفسه وقال سعيد بن جبير أوفاهم عقلا ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾ واحداً ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لكونه أدل على شدة الهول لا لكونه أقرب إلى الصدق.

﴿ ويسألونك عن ﴾ حال ﴿ الجبال ﴾ قال ابن جريج : قالت قريش كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة أي على سبيل الاستهزاء فأمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال ﴿ فقل ﴾ الفاء لجواب شرط محذوف، والتقدير:

إن سألوك فقل، أو للمسارعة الى إلزام السائلين ﴿ ينسفها ربي نسفاً ﴾.

قال ابن الأعرابي وغيره: يقلعها قلعاً من أصولها ثم يصيرها رملاً تسيل سيلاً ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا، ثم كالهباء المنثور، يقال: نَسَفَت الريح التراب نسفاً من باب ضَرَب اقتلعته وفرقته واسم الآلة مِنْسَف بكسر الميم.

﴿ فيذرها ﴾ أي يترك الجبال باعتبار مواضعها أي فيذر مواضعها وأجزاءها السافلة الباقية بعد النسف وهي مقارُّها ومراكزُها، أي فيذر ما انبسط منها، وساوى مُسَطَّحُه مُسَطَّحَ أجزاء الأرض بعد نسف ما كان عليها من الجبال الشواهق، أو الضمير للأرض المدلول عليها بقرينة الحال أنها الباقية بعد نسف الجبال ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾ قال ابن الأعرابي: هو الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء وقال الفراء: القاع مستنقع الماء، والصفصف القرعاء الملساء التي لا نبات فيها، كأن أجزاءها صف واحد من كل جهة فـ﴿ صفصفاً ﴾ قريب في المعنى من ﴿ قاعاً ﴾ فهو كالتأكيد له.

قال الجوهري: القاع المستوي الصلب من الأرض والجمع أَقْوُع وَأَقْوَاع وقيعان، والظاهر - من لغة العرب - أن القاع الموضع المنكشف، والصفصف المستوى الأملس.

﴿ لا ترى فيها ﴾ الضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار، أو إلى الأرض على ما مر ﴿ عوجاً ﴾ أي انخفاضاً وهو بكسر العين التَّعَوُّجُ. قاله ابن الأعرابي ﴿ ولا أمتاً ﴾ هو التلال الصغار، والأَمْـت في اللغة المكان المرتفع، وقيل العِوج الميل والأمت الأثر مثل الشراك، وقيل العوج الوادي والأمت الرابية، وقيل الأمت النتوء اليسير، يقال مد حبله حتى ما فيه أَمْت، وقيل هما الانخفاض والارتفاع. وقيل العوج الصدوع والأمت الأكمة، وقيل الأمت الشقوق في الأرض. وقيل الآكام.

وقيل الأمت أن تغلظ في مكان، وتدق في مكان، ووصف مواضع الجبال

بالعوج بكسر العين ههنا يدفع ما يقال إن العوج بكسر العين في المعاني وبفتحها في الأعيان والمحسوسات ؛ إلا أن يقال عبر فيه بمكسور العين لكونه لشدة خفائه، كأنه صار من قبيل المعاني؛ أي لا تدركه فيها، ولو تأملته بالمقاييس الهندسية. قاله أبو السعود.

وقد تكلف لذلك صاحب الكشاف في هذا الموضع بما عنه غِنيً وفي غيره سَعة. وعن ابن عباس قال: هي الأرض الملساء التي ليس فيها رابية مرتفعة ولا انخفاض. قال البيضاوي: هي ثلاثة أحوال مترتبة فالأولان باعتبار الإحساس والثالث باعتبار المقياس، ولذلك ذكر العوج وهو يخص المعاني.

﴿ يومئذ ﴾ أي يوم نسف الجبال ﴿ يتبعون الداعي ﴾ أي يتبع الناس داعي الله إلى المحشر فيقبلون من كل أوب الى صوبه. قال الفراء: يعني بالداعي صوت الحشر، وقيل هو إسرافيل إذا نفخ في الصور، والراجح أن الداعي جبريل والنافخ إسرافيل تأمل.

﴿ لا عوج له ﴾ أي مَعْدِل لهم عن دعائه فلا يقدرون على أن يزيغوا عنه وينحرفوا منه بل يسرعون إليه، كذا قال أكثر المفسرين، وقيل لا عوج لدعائه ولا يزيغون عنه يميناً ولا شمالاً، بل يتبعونه ويأتونه سراعاً ولا يميلون إلى ناس دون ناس، وقيل لا عوج لذلك الاتباع، والأول أظهر.

وعن محمد بن كعب القرظي قال: يحشر الناس يوم القيامة في ظلمة تطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر؛ وينادي مناد فيتبع الناس الصوت يَؤُمُّونه، فذلك قول الله يومئذ ﴿ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾.

وعن أبي صالح في الآية قيل: يضع إسرافيل الصور في فيه ويقف على صخرة بيت المقدس وينادي: أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة والأوصال المتقطعة، هلمي إلى عرض الرحمن فإن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، فيقبلون من كل أوب الى صوبه لا يعدلون عنه ويستوون اليه من غير انحراف، متبعين لصوته.

﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ أي خفضت لهيبته وجلاله؛ وقيل ضعفت لعظمته، وقيل ذلت من شدة الفزع، وقيل سكنت، قاله ابن عباس، والمراد أصحاب الاصوات.

﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ هو الصوت الخفي، قاله ابن عباس ومجاهد. وقال أكثر المفسرين: هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر ووطئها، ومنه همست الإبل اذا سمع ذلك من وقع أخفافها على الأرض. وعن الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن مثله،وعن سعيد أيضاً قال: سر الحديث والظاهر أن المراد هنا كل صوت خفي، سواء كان بالقدم أو من الفم بتحريك الشفاه أو غير ذلك، ويؤيده قراءة أبي: فلا ينطقون الا همساً وهو مصدر همست الكلام، من باب ضرب إذا أخفيته والاستثناء مفرغ. وقال الزمخشري: الهمس الذكر الخفي ومنه الحروف المهموسة.

﴿ يومئذ ﴾ أي يوم يقع ما ذكرنا ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ من شافع كائناً من كان ﴿ إلا ﴾ شفاعة ﴿ من أذن له الرحمن ﴾ في أن يشفع لغيره، وبه بدأ القاضي كالكشاف لما فيه من تعظيم الشافع ، واللام للتعليل ، أي لأجله .

﴿ ورضي له قولاً ﴾ أي رضي قوله في الشفاعة، أو رضي لأجله قول الشافع،والمعنى إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له وكان له قول يرضى ، ومثل هذه الآية قوله :﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾. وقوله :﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾. وقوله :﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾. وفيه دلالة على أنه لا يشفع أحد لأحد إلا لمن يأذن الله له فيها ، فلا شفاعة الا بإذن منه سبحانه ، وهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمنين ؛ وبه صرح البغوي ؛ وهذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حق الفساق ، لأن قوله ورضي له قولاً ، يكفي في صدقه أن يكون الله تعالى قد رضي له قولاً واحداً من أقواله . والفاسق قد رضي الله من أقواله شهادة أن لا إله إلا الله فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له بعد الإذن، لأن الاستثناء من النفي إثبات. والجملة تفسير لمن يؤذن في الشفاعة له .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

وحاصل هذا التفسير أنه كل من قال في الدنيا لاإلّــه إلا الله ، أي كان مسلماً ومات على الإسلام وإن عمل السيئآت ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ من أمور الساعة والآخرة ﴿ وما خلفهم ﴾ من أمور الدنيا ، والمراد جميع الخلق . وقيل المراد بهم الذين يتبعون الداعي . وقيل الضمير للشافعين ، وقال ابن جرير : يرجع الى الملائكة أعلم الله من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها ، والعموم أولى ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ أي بالله سبحانه لا تحيط علومهم بذاته ولا بصفاته ولا بمعلوماته .

وقيل الضمير راجع الى ما في الموضعين ، فإنهم لا يعلمون جميع ذلك ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ أي ذلت وخضعت . قاله ابن الأعرابي وعن ابن عباس وقتادة مثله . وقال مجاهد : خشعت . وقال أبو العالية : خضعت ، وعن ابن عباس قال : وعنت الوجوه: الركوع والسجود ، قال الزجاج : معنى عَنَتْ في اللغة خضعت ، يقال عنا يعنو عنواً اذا خضع وذل وأعناه غيره ؛ أي أذله ، ومنه قيل للأسير عانٍ والجمع عُناة ؛ وقيل هو من العناء بمعنى التعب، وذكر الوجوه وأراد بها أصحابها، وخص الوجوه بالذكر لأن الخضوع بها يتبين وأول ما يظهر فيها ؛ ثم قسمها الى قسمين بقوله :

﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ أي خسر من حمل شيئاً من الظلم، وقيل هو الشرك، وبه قال ابن جريج وقتادة.

وقوله ﴿ ومن يعمل من ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ الطاعات ﴿ وهو ﴾

أي والحال أنه ﴿ مؤمن ﴾ بالله لأن العمل لا يقبل من غير إيمان، بل هو شرط في القبول ﴿ فلا يخاف ﴾ قرىء برفعه على النفي والاستئناف، أي فهو لا يخاف ، وقرىء بجزمه على النهي ﴿ ظلماً ﴾ يصاب به من نقص ثواب في الآخرة ﴿ ولا هضماً ﴾ هو النقص والكسر ، يقال هضمت لك من حقي أي حططته وتركته ونقصت منه ، وهذا يهضم الطعام ، أي ينقص ثقله ، وامرأة هضيم الكشح أي ضامرة البطن . ومنه أيضاً طلعها هضيم أي دقيق متراكب كأن بعضه يظلم بعضاً فينقصه حقه، ورجل هضيم ومهتضم أي مظلوم، وهضمته واهتضمته وتهضمته كله بمعنى، قيل الظلم والهضم متقاربان، وفرق القاضي الماوردي بينهما فقال: الظلم منع جميع الحق، والهضم منع بعضه.

قال قتادة : ظلماً أن يزاد في سيئاته ولا هضماً أن ينقص من حسناته ، وقيل هضماً أي غضباً ، وقيل لا يؤاخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل عنه حسنة عملها ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الإنزال.

﴿ أنزلناه ﴾ أي القرآن كله حال كونه ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي بلغة العرب ليفهموه ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر نازلاً من عند خالق القوى والقدر، وإضمار القرآن من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزاً في العقول حاضراً في الأذهان ﴿ وصرفنا ﴾ أي وبينا ﴿ فيه ﴾ ضروباً ﴿ من الوعيد ﴾ تخويفاً وتهديداً وكررنا فيه بعضاً منه ، والمراد الجنس ومن مزيدة على رأي الأخفش.

﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي كي يخافوا الله فيجتنبوا معاصيه ويحذروا عقابه ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ أي اعتباراً واتعاظاً بهلاك من تقدمهم من الأمم فيعتبرون ، وقيل ورعاً ، وقيل شرفاً وقيل طاعة وعبادة لأن الذكر يطلق عليها، وأضيف الذكر إلى القرآن ولم تضف التقوى إليه، لأن التقوى عبارة عن أن لا يفعل القبيح وذلك استمرار على العدم الأصلي فلم يحسن إسناده إلى القرآن، وأما حدوث الذكر فأمر يحدث بعد أن لم يكن فجازت إضافته اليه . قاله الكرخي .

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ لما بين سبحانه للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزه نفسه عن مماثلة مخلوقاته في شيء من الأشياء ، أي جل الله عن إلحاد الملحدين وعما يقول المشركون والمعطلون في صفاته ، فإنه المَلِك الذي بيده الثواب والعقاب، نافذ أمره ونهيه وأنه الحق ، أي ذو الحق في ملكوته وألوهيته أو الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده، أو الثابت في ذاته وصفاته. وقيل إنما وصف نفسه بالمَلِك الحق لأن ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به منه .

﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ أي بقراءته ﴿ من قبل أن يقضى ﴾ أي يتم ﴿ إليك وحيه ﴾ أي يفرغ جبريل من إبلاغه . قال المفسرون : كان النبي صلى الله عليه وسلم يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً منه على ما ينزل عليه منه، فنهاه الله عن ذلك، ومثله قوله ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ على ما يأتي إن شاء الله تعالى .

وقيل المعنى ولا تُلْقِه الى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله ، وقرىء نقضي بالنون . قال ابن عباس : لا تعجل حتى نبينه لك . وقال قتادة : لا تَتْلُه على أحد حتى نتمه لك .

وعن الحسن قال : لطم رجل امرأته فجاءت الى النبي (ﷺ) تطلب قصاصاً فجعل للنبي صلى الله عليه وسلم القصاص ، فأنزل الله : ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ ، الآية فوقف النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ ، الآية. أخرجه القربان وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .

﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ أي سَلْ في نفسك ربك زيادة العلم بكتابه وبمعانيه فإنه الموصل إلى مطلوبك دون الاستعجال فكلما أنزل عليه شيء منه زاد به علمه وما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم ، وفيه التواضع والشكر لله ، والتنبيه على عظم موقع العلم وفضله ، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدني علماً وإيماناً ويقيناً ذكره الخطيب وأقول . رب زدني علماً نافعاً وعملاً صالحاً وإيماناً كاملاً ويقيناً تاماً وعاقبة محمودة .

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تصريف الوعيد أي لقد أمرناه ووصيناه ؛ والمعهود محذوف وهو ما سيأتي من نهيه عن الأكل من الشجرة ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هذا الزمان أو قبل أكله منها .

﴿ فنسي ﴾ المراد بالنسيان هنا ترك العمل بما وقع به العهد إليه فيه ، وبه قال أكثر المفسرين كما في قوله ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أي تركناكم في العذاب فلا يشكل بوصفه بالعصيان غياً ، وقيل النسيان على حقيقته وأنه نسي ما عهد الله به اليه وسها عنه وكان آدم مأخوذاً بالنسيان في ذلك الوقت ، وان كان النسيان مرفوعاً عن هذه الأمة ، والمراد من الآية تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على القول الأول أي أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم ، وأن هؤلاء المعاصرين له إن نقضوا العهد فقد نقض أبوهم آدم ، كذا قال ابن جرير والقشيري وما اعترضه ابن عطية قائلاً يكون آدم مماثلاً للكفار الجاحدين بالله ، فليس

بشيء ، وقرىء فُنُسِّيَ بضم النون وتشديد السين مكسورة أي فنساه إبليس.

قال ابن عباس : إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي أي لقد عهدنا إلى آدم أن لا يقرب الشجرة فنسي فترك عهدي ﴿ ولم نجد ﴾ من الوجدان بمعنى العلم أو من الوجود ضد العدم ﴿ له عزماً ﴾ أي حزماً وصبراً عما نهيناه عنه أو حفظاً قاله ابن عباس ، والعزم في اللغة توطين النفس على الفعل والتصميم عليه والمضي على المعتقد في أي شيء كان ، وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على أن لا يأكل من الشجرة وصمم على ذلك فلما وسوس إليه إبليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف البشر ، وقيل العزم : الصبر كما مر أي لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة .

قال النحاس : وهو كذلك في اللغة يقال : لفلان عزم أو صبر وثبات على التحفظ عن المعاصي حتى يسلم منها ، ومنه﴿كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾،وقيل المعنى ولم نجد له عزماً على الذنب ، وبه قال ابن كيسان ، وقيل ولم نجد له رأياً معزوماً عليه ، وبه قال ابن قتيبة .

ثم شرع سبحانه في كيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه فقال : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ أي اذكر ، وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث للمبالغة لأنه إذا وقع الأمر بذكر الوقت كان ذكر ما فيه من الحوادث لازماً بطريق الأولى كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن لسر يعلمه الله وبعض خلقه .

﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾ وهو أبو الجن كان يصحب الملائكة ويعبد الله معهم فالاستثناء منقطع ، وقيل متصل ، والأول أولى ﴿ أبى ﴾ أن يسجد لآدم وقال أنا خير منه ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا ﴾ يعني إبليس ﴿ عدو لك ولزوجك ﴾ أي حواء بالمد حيث لم يسجد لك ولم ير فضلك،وسبب العداوة ما رأى من آثار نعمة الله على آدم فحسده فصار عدواً له .

﴿ فلا يخرجنكما من الجنة ﴾ أسند الخروج إليه وان كان الله تعالى هو

المخرج لأنه لما كان يوسوسه وفعل آدم ما يترتب عليه الخروج صح ذلك ﴿ فتشقى ﴾ الشقاء الشدة والعسر ويمد ويقصر يقال : شَقِيَ كرَضي شقاوة ، والمعنى فتتعب في تحصيل ما لا بد منه في المعاش وتنصب ويكونَ عيشك من كدِّ يمينك بعرق جبينك وهو الحرث والزرع والطحن والخبز ولم يقل فتشقيا لأن الكلام من أول القصة مع آدم وحده أو أن في ضمن شقاء الرجل شقاء أهله كما أن في سعادته سعادتهم لأنه القيم عليهم أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لأن الرجل هو الساعي على زوجته ، ثم علل ما يوجبه ذلك النهي بما فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام فقال :

﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ المعنى إن لك فيها تمتعاً بأنواع المعاش وتنعماً بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية، فإنه لما نُفي عنه الجوع والعري أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له وهكذا قوله : ﴿وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ فإن نفي الظمأ يستلزم حصول الرِّيِّ ووجود المسكن الذي يدفع عنه مشقة الضحو يقال : ضحى الرجل يضحي ضحواً إذا برز للشمس فأصابه حرها وعن ابن عباس قال : لا يصيبك فيها عطش ولا حر إذ ليس فيها شمس وأهلها في ظل ممدود فذكر سبحانه ههنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش ، وتعب الكد في تحصيله .

ولا ريب أن أصول المتاعب في الدنيا التي يدور عليها كفاية الإنسان هي تحصيل الشبع والري والكسوة والسكن وما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها وهو إعلام من الله سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله في الجنة هذا كله وان ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجه من الجنة إلى الدنيا فيحل به التعب والنصب بما يدفع به الجوع والعري والظمأ والضحو فالمراد على هذا بالشقاء المتقدم شقاء الدنيا كما قاله كثير من المفسرين لا شقاء الأخرى .

قال الفراء : هو أن يأكل من كد يديه ، قال الصفوي : قابل سبحانه وتعالى بين الجوع والعري والظمأ والضحو ؛ وان كان الجوع يقابل العطش ،

والعري يقابل الضحو ، لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر ، والظمأ حر الباطن والضحو حر الظاهر ، فنفى عن ساكنها ذل الظاهر والباطن وحرهما ، ذكره ابن لقيمة .

قال أبو السعود : وفصل الظمأ من الجوع مع تجانسهما وتقارنهما في الذكر عادة وكذا حال العري والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه للإشارة إلى أن نفي كل واحد من تلك الأمور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال في الجمع بين العري والضحو ولزيادة التقرير بالتنبيه على أن نفي كل واحد من هذه الأمورمقصود بالذات مذكور بالأصالة لا أن نفي بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لبعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع كل من المتجانسين انتهى .

﴿ فوسوس إليه الشيطان ﴾ قد تقدم تفسيره وما بعده في الأعراف في قوله : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ أي ألقى اليه وسوسته ، وأما وسوس له فمعناه وسوس لأجله وقال أبو البقاء : عدي بإلى لأنه بمعنى أسر ، وعدي باللام في موضع آخر لكونه بمعنى ذكر له ويكون بمعنى لأجله .

﴿ قال يا آدم ﴾ بيان لصورة الوسوسة ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد ﴾ هي الشجرة التي من أكل منها لم يمت أصلاً وبقي مخلداً .

أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، وهي شجرة الخلد»[1] ﴿ وملك لا يبلى ﴾ أي تصرف يدوم ولا يزول ولا ينقضي ولا يَبيد ولا يفنى وهو لازم الخلود .

---

(١) احمد بن حنبل ٢/٢٥٧ - ٤٠٤ - ٤١٨ - ٤٣٨ - ٤٥٢ - ٤٥٥ - ٣/١١٠ - ١٣٥ - ١٦٤ - ١٨٥ - ٢٠٧ - ٢٣٤ - مسلم ٢٨٢٦ .

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾

﴿ فأكلا ﴾ أي آدم وحواء ﴿ منها ﴾ أي من الشجرة ﴿ فبدت لهما سوءآتهما ﴾ يعني عَريًا من الثياب التي كانت عليهما بسبب تساقط حلل الجنة عنهما ، لما أكلا من الشجرة حتى ظهر لكل واحد منهما قُبله وقُبُل الآخر ودُبُره وسمي كلًّا منهما سوأة لأن انكشافه يسوء صاحبه ويحزنه .

﴿ وطفقا ﴾ طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وهو ككاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً إلا أنه للشروع في أول الأمر وكاد للْمُدنّو منه ، قال الفراء : معنى طفقا في العربية أقبلا، وقيل أخذا وجعلا ﴿ يخصفان ﴾ يلصقان ﴿ عليهما ﴾ ويلزقان لأجل سوءآتهما أي يسترهما ، فَعَلى تعليلية .

﴿ من ورق الجنة ﴾ أي من ورق التين بعضه ببعض حتى يصير طويلاً عريضاً يصلح للاستتار به ﴿ وعصى آدم ربه ﴾ أي خالف نهيه بالأكل من الشجرة فالعصيان هو المخالفة لكنه خالف بتأويل لأنه اعتقد أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً أو لأنه اعتقد أن النهي قد نسخ لما حلف له إبليس أو اعتقد أن النهي عن شجرة معينة وأن غيرها من بقية أفراد الجنس ليس منهياً عنه .

﴿ فغوى ﴾ أي فضلّ عن الصواب أو عن مطلوبه وهو الخلود بالأكل

من تلك الشجرة أي حاد عنه ولم يظفر به هذا هو الحق في تقرير هذا المقام ، وقيل فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا ، وقيل جهل موضع رشده ، وقيل بشم[١] من كثرة الأكل ، قال ابن قتيبة : أكل آدم من الشجرة التي نهى عنها باستزلال إبليس وخدعه إياه ، والقسم له بالله إنه له لمن الناصحين حتى دلاه بغرور ، ولم يكن ذنبه عن اعتقاد متقدم ونية صحيحة ، فنحن نقول عصى آدم ربه فغوى انتهى .

قال القاضي ابو بكر بن العربي : لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم .قلت لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله سبحانه في كتابه بأنه عصاه ، وكما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، قال في المدارك : وفي التصريح بقوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ والعدول عن قوله : وزل آدم ، مزجرة عظيمة وموعظة بليغة للمكلفين كافة كأنه قيل له انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم زلته بهذه الغلظة فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر فضلاً عن الكبائر ، ومما قال الشوكاني في هذا المعنى :

عصى أبو الْعَالَمَ وهو الذي ... من طينة صوره الله
وأسْجَدَ الأمْلَاكَ من أجْله ... وصيَّر الجنةَ مأواه
أغواه إبليسُ فمن ذا أنا الـ ... ـمسكينُ إنْ إبليسُ أغواه

وحديث محاجة آدم وموسى في الصحيحين عن أبي هريرة كما سيأتي ، وفيه : أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ، وقد أطال الرازي في بيان اختلاف الناس في عصمة الأنبياء في هذا المقام بما عنه غنى وفي تركه سعة وتبعه في ذلك الخازن في تفسيره فلا نطول الكلام بذكره .

﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ أي اصطفاه وقربه واختاره بالحمل على التوبة

---

(١) البشم : التخمة يقال بشمت من الطعام بالكسر أ هـ صحاح .

والتوفيق لها من جَبَى إليّ كذا فاجتبيته ، وأصل الكلمة الجمع ، قال ابن فورك : كانت المعصية هذه من آدم قبل النبوة بدليل ما في هذه الآية فإنه ذكر الاجتباء والهداية بعد أن ذكر المعصية وإذا كانت المعصية قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً ﴿ فتاب عليه ﴾ من معصيته وقبل توبته .

﴿ وهدى ﴾ أي هداه إلى الثبات والمداومة على التوبة ، فلم ينقضها أو إلى الاعتذار والاستغفار ، قيل وكانت توبة الله عليه قبل أن يتوب هو وحواء ، بقولها :﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ ، وقد مر وجه تخصيص آدم بالذكر دون حواء . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « حاج آدم موسى ، قال له : أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم بمعصيتك . قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني ، أو قدره عليّ قبل أن يخلقني ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فحج آدم موسى »[1] ﴿ قال اهبطا منها جميعاً ﴾ أي انزلا بما اشتملتها من ذريتكما من الجنة إلى الأرض والخطاب وإن كان مثنى في اللفظ لكنه في المعنى للجمع ليحصل التوفيق بين هذه الآية وآية الأعراف ، وهي قوله : قال اهبطوا ، وبالجملة خصها الله سبحانه بالهبوط لأنهما أصل البشر .

ثم عمم الخطاب لهما ولذريتهما فقال : ﴿ بعضكم ﴾ بعض الذرية ﴿ لبعض عدو ﴾ من أجل ظلم بعضهم بعضاً ، والمعنى تَعَادِيهِم في أمر المعاش ونحوه فيحدث بسبب ذلك القتال والخصام .

﴿ فإما يأتينكم مني هدى ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ فمن اتبع هداي ﴾ أي الكتاب والرسول ، وضع الظاهر موضع المضمر مع الاضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه ﴿ فلا يضل ﴾ في الدنيا ﴿ ولا يشقى ﴾ في الآخرة أخرج ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن

---

(١) مسلم ٢٦٥٢ ـ البخاري ١٦٠٤ .

مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة ، وذلك أن الله يقول : فمن اتبع . الآية[1] » وعن ابن عباس قال : أجار الله تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية .

﴿ ومن أعرض عن ذكري ﴾ أي الهدى الذاكر لي والداعي إليّ ، أو عن ديني وتلاوة كتابي والعمل بما فيه ، ولم يتبع هداي ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ أي عيشاً ضيقاً في هذه الحياة الدنيا ؛ يقال منزل ضنك وعيش ضنك أي ضيق ، في القاموس الضنك الضيق في كل شيء ، يقال ضَنُك ضَنْكاً وَضَنَاكة وضُنُوكة ضاق . وهو مصدر يستوي فيه الواحد وما فوقه والمذكر والمؤنث ، وقرىء بضم الضاد على فعلي . ومعنى الآية أن الله عز وجل جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه أن يعيش في الدنيا عيشاً هنيئاً غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه ، كما قال سبحانه ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ وجعل لمن لم يتبع هداه وأعرض عن دينه أن يعيش عيشاً ، ضيقاً ، وفي تعب ونصب ، ومع ما يصيبه في هذه الدنيا من المتاعب فهو في الآخرة أشد تعباً وأعظم ضيقاً وأكثر نصباً .

وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً معيشة ضنكاً ، قال : عذاب القبر . أخرجه البيهقي والحاكم وصححه ، ومسدد في مسنده ، ولفظ عبد الرزاق : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ولفظ ابن أبي حاتم قال : ضمة القبر ، وفي سنده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف . وقال ابن كثير : الموقوف أصح .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المعيشة الضنكى أن تسلط عليه تسع وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة » وعنه مرفوعاً قال : عذاب القبر . أخرجه البيهقي والبزار وابن المنذر وغيرهم . قال ابن كثير بعد إخراجه بإسناد جيد عن ابن

(١) ضعيف الجامع الصغير ٥٣٣٥ .

مسعود مثله موقوفاً ، ومجموع ما ذكرنا هنا يرجح تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر . وعنه قال : بالشقاء . وقيل هو الزقوم والضريع والغسلين في النار . وقيل هو الحرام والكسب الخبيث ؛ والأول أولى .

وقال ابن جبير : يسلبه القناعة حتى لا يشبع ، وقيل الحياة في المعصية وان كان في رخاء ونعمة ، قاله الرازي . أو المراد بها عيشة في جهنم ، وبما تقرر علم أنه لا يرد أن يقال . نحن نرى المعرضين عن الإيمان في خصب معيشة .

﴿ ونحشره ﴾ أي المعرض عن القرآن ﴿ يوم القيامة أعمى ﴾ أي مسلوب البصر ، وهو كقوله : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً ﴾ قال النسفي : وهو الوجه ، وقيل المراد العمى عن الحجة ، وقيل أعمى عن جهات الخير لا يهتدي إلى شيء منها .

وقال عكرمة : عمي عليه كل شيء إلا جهنم . وفي لفظ : لا يبصر إلا النار ﴿ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ في الدنيا وعند البعث ﴿ قال كذلك ﴾ أي مثل ذلك فعلت أنت أو الأمر كذلك ، ثم فسره بقوله : ﴿ أتتك آياتنا فنسيتها ﴾ أي أعرضت عنها وتركتها ولم تنظر فيها ﴿ وكذلك اليوم ﴾ أي مثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا ﴿ تنسى ﴾ أي تترك في العمى أو النار وقيل نُسُوا من الخير والبركة والرحمة ولم يُنْسَوْا من العذاب في النار .

قال الفراء : يقال إنه يخرج بصيراً من قبره فيعمى في حشره

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نجزي من أسرف ﴾ الإسراف الانهماك في الشهوات ، وقيل الشرك بالله ، قاله سفيان : ﴿ ولم يؤمن بآيات ربه ﴾ بل كذب بها ﴿ ولعذاب الآخرة أشد ﴾ أي أفظع من المعيشة الضنكى ﴿ وأبقى ﴾ أي أدوم وأثبت لأنه لا ينقطع .

﴿ أفلم يهد لهم ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ وقرىء بالنون ، والمعنى على هذا واضح والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها ﴿ كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ قال القفال : جعل كثرة ما أهلك من القرون مبيناً لهم ، قال النحاس : وهذا خطأ لأن كم استفهام فلا يعمل فيها ما قبلها .

وقال الزجاج : المعنى أفلم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكناه ، وحقيقته تدل على الهدى فالفاعل هو الهدى ، وقيل الفاعل ضمير الله أو الرسول أو القرآن، والجملة بعده تفسره .

ومعنى الآية على ما هو الظاهر : أفلم يتبين لأهل مكة خبر من أهلكنا قبلهم من القرون حال كون تلك القرون ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ ويتقلبون في ديارهم فيعتبروا بهذا الإهلاك فيرجعوا عن تكذيب الرسول أو حال كون هؤلاء يمشون في مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة ، وطلب المعيشة الى الشام وغيرها ، فيرون بلاد الأمم الماضية والقرون الخالية خاوية

خاربة من أصحاب الحجْر وثمود ، وقرى قوم لوط فإن ذلك مما يوجب اعتبارهم لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك .

﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي لعبراً ﴿لأولي النُّهى﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية ، والإشارة الى مضمون كم أهلكنا ، والنهى جمع نهية وهي العقل ، أي بذوي العقول التي تنهى أربابها عن القبيح .

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ أي الكلمة السابقة وهي وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة الى الدار الآخرة ﴿لكان﴾ عقاب ذنوبهم ﴿لزاماً﴾ أي لازماً لهم في الدنيا لا ينفك عنهم بحال ولا يتأخر ، كما لزم القرون الماضية واللزام مصدر لازم .

﴿وأجل مسمى﴾ معطوف على قوله ﴿كلمة﴾ وهو يوم القيامة أو يوم بدر ويجوز عطفه على الضمير المستتر في ﴿كان﴾ العائد إلى الأخذ المفهوم من السياق أي لكان الأخذ العاجل ، وأجل مسمى لازمين لهم ، كما كانا لازمين لعاد وثمود وفيه تعسف ظاهر .

قال ابن عباس : هذا من مقاديم الكلام ؛ يقول : لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً أي موتاً . وعن السدي نحوه ، وعن مجاهد قال : الأجل المسمى الكلمة التي سبقت .

ثم لما بين الله سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر فقال ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ من أنك ساحر كذاب شاعر كاهن ونحو ذلك من مطاعنهم الباطلة ، والمعنى لا تحتفل بهم فإن لعذابهم وقتاً مضروباً بألا يتقدم ولا يتأخر ، وأنهم معذبون لا محالة فَتَسَلَّ واصبر . وقيل هذا منسوخ بآية القتال . وقيل إنها محكمة . قال الشهاب : الفاء سببية ، والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر عنهم لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة .

﴿وسبح بحمد ربك﴾ أي متلبساً بحمده ، قال أكثر المفسرين : والمراد الصلوات الخمس كما يفيده قوله : ﴿قبل طلوع الشمس﴾ فإنه إشارة إلى

صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ فإنه إشارة إلى صلاة العصر . وفي صحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي عن عمارة بن رويبة سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها »[١] .

﴿ ومن آناء الليل ﴾ العتمة والمراد بالآناء الساعات ، وهي جمع إناء بالكسر والقصر وهو الساعة ، ومعنى ﴿ فسبح ﴾ فصلّ المغرب والعشاء ، والفاء إما عاطفة على مقدر ، أو واقعة في جواب شرط مقدر أو زائدة . قال ابن عباس : وهي الصلاة المكتوبة .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال : قال رسول الله (ﷺ) « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ، وقرأ هذه الآية[٢] .

﴿ وأطراف النهار ﴾ أي في طرفي نصفيه أي في الوقت الذي يجمع الطرفين وهو وقت الزوال فهو نهاية للنصف الأول وبداية للنصف الثاني ، والمراد صلاة الظهر لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول وأول طرف النهار الآخر . وقيل إن الإشارة إلى صلاة الظهر هي بقوله : ﴿ وقبل غروبها ﴾ لأنها هي وصلاة العصر قبل غروبها . وقيل المراد بالآية صلاة التطوع .

ولو قيل ليس في الآية إشارة الى الصلاة بل المراد التسبيح في هذه الأوقات أي قول القائل سبحان الله لم يكن ذلك بعيداً من الصواب ، والتسبيح وإن كان يطلق على الصلاة لكنه مجاز ، والحقيقة أولى إلا لقرينة تصرف ذلك الى المعنى المجازي ، وجمع الأطراف وهما طرفان لأمن الالتباس .

﴿ لعلك ترضى ﴾ أي سبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله سبحانه ما ترضي به نفسك من الثواب ، هذا على قراءة الجمهور ، وقرىء تُرْضي بضم التاء أي يرضيك ربك وَتُعْطَى ما يرضيك .

---

(١) مسلم ٦٣٤ .

(٢) مسلم ٦٣٣ ـ البخاري ٣٥٨ .

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿ ولا تمدن ﴾ أي لا تطل نظر ﴿ عينيك ﴾ بطريق الرغبة والميل ﴿ إلى ما متعنا به ﴾ أي لذذنا ، فالإمتاع والتمتيع معناه الإيقاع في اللذة ﴿ أزواجاً منهم ﴾ مدّ النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور اليه وإعجاباً به ، وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه ، وذلك أن يبادر الشيء بالنظر ثم يغض الطرف ، ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في ملابسهم ومراكبهم ، حتى قال الحسن : « لا تنظروا إلى دقدقة[1] هماليج[2] الفسقة ، ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب » وهذا لأنهم اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ، فالناظر اليها محصل لغرضهم ومغر لهم على اتخاذها ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في الحجر .

﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾ أي زينتها وبهجتها بالنبات وغيره ، وقرىء زهرة بفتح الهاء وهي نور النبات ، وذكر السمين في نصبه تسعة أوجه . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله « ﷺ » قال : « إن أخوف ما أخاف عليك ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا ، قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : بركات الأرض » .

---

(١) الدقدقة حكاية أصوات حوافر الدواب مثل الطقطقة . إ هـ صحاح .

(٢) الهملاج من البراذين واحد الهماليج ومشيها الهملجة فارسي معرب إ هـ صحاح .

﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالة ابتلاء منا لهم ، كقوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ﴾ وقيل لنعذبهم في الآخرة ، وقيل لنشدد عليهم في التكليف ، وقيل أزيد لهم النعمة فيزيدوا بذلك كفراً وطغياناً ﴿ ورزق ربك ﴾ أي ثواب الله في الجنة وما ادخر لصالحي عباده في الآخرة ﴿ خير ﴾ مما رزقهم في الدنيا على كل حال ، وأيضاً فإن ذلك لا ينقطع وهذا ينقطع وهو معنى ﴿ وأبقى ﴾ وقيل المراد بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها ، والأول أولى لأن الخيرية المحققة والدوام الذي لا ينقطع إنما يتحققان في الرزق الأخروي لا الدنيوي وإن كان حلالاً طيباً ، قال تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ .

عن أبي رافع قال : أضاف النبي « ﷺ » ضيفاً ولم يكن عند النبي ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن بعنا أو أسلفنا دقيقاً إلى هلال رجب ، فقال : لا إلا بِرَهْن، فأتيت النبي « ﷺ » فأخبرته ، فقال : « أما والله إني لأمين في السماء أَمين في الأرض ، ولئن أسلفني أو باعني لَأديت إليه ، اذهب بدرعي الحديد ، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ، كأنه يعزيه عن الدنيا . أخرجه البزار وأبو يعلى وابن أبي شيبة وغيرهم[1] .

﴿ وأْمر أهلك ﴾ المراد بهم أهل بيته ، وقيل جميع أمته ولم يذكر ههنا الأمر من الله له ﴿ بالصلاة ﴾ بل قصر الأمر على أهله إما لكون إقامته لها أمراً معلوماً أو لكون أمره بها قد تقدم في قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ الخ ، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمراً له ؛ ولهذا قال : « واصطبر عليها » أي اصبر على محافظة الصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ولا تشتغل عنها بشيء من أمور الدنيا .

وقيل اصبر عليها فعلاً ، فإن الوعظ بلسان الفعل أبلغ منه بلسان

---

(١) صحيح الجامع الصغير ١٣٤٩ .

القول . أخرج ابن النجار وابن عساكر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت هذه الآية كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيء إلى باب عليّ صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: « الصلاة رحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

وأخرج أحمد والبيهقي وغيرهما عن ثابت قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله : « يا أهلاه صلوا صلوا » قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة .

وعن عبدالله بن سلام ، قال السيوطي : بسند صحيح قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وقرأ ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾ الآية : وكان عروة بن الزبير إذا رأى ما عند السلاطين قرأ هذه الآية ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم الله ، وكان بكر بن عبدالله المزني إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا فصلوا ، بهذا أمر الله رسوله ، وعن مالك بن دينار مثله .

﴿لا نسألك رزقاً﴾ أي لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك وتشتغل بذلك عن الصلاة ﴿ نحن نرزقك ﴾ ونرزقهم ﴿ والعاقبة ﴾ المحمودة وهي الجنة ﴿ للتقوى ﴾ أي لأهل التقوى على حذف المضاف ، كما قال الأخفش وفيه دليل على أن التقوى هي ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير .

﴿ وقالوا ﴾ أي قال كفار مكة ﴿ لولا ﴾ هلا ﴿ يأتينا ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ بآية من ﴾ آيات ﴿ ربه ﴾ كما كان يأتي بها مَنْ قَبْله من الأنبياء ؟ وذلك كالناقة والعصا أو المعنى هلا يأتينا بآية من الآيات التي قد اقترحناها عليه ؟ .

فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : ﴿ أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ يريد بها التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة وفيها التصريح بنبوته والتبشير به ، وذلك يكفي ، فإن هذه الكتب المنزلة هم

معترفون بصدقها وصحتها وفيها ما يدفع إنكارهم لنبوته ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم ، وقيل المعنى أو لم يأتهم إهلاكنا للأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات التي اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم .

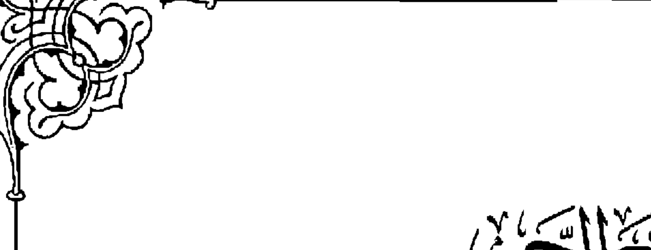
وقيل :المراد أو لم تأتهم آية هي من الآيات وأعظمها في باب الإعجاز ؟ يعني القرآن فإنه برهان لما في سائر الكتب المنزلة ، قالوا : وعاطفة على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل ألم تأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما في الصحف الأولى تقريراً لإتيانه وإيذاناً بأنه من الوضوح بحيث لا يأتي معه إنكار أصلاً .

قرىء أو لم يأتهم بالتحتية لأن معنى البينة البيان والبرهان .

﴿ ولو أنا أهلكناهم ﴾ مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها ﴿ بعذاب من قبله ﴾ أي من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أو من قبل إتيان البينة بنزول القرآن ﴿ لقالوا ﴾ يوم القيامة أي لكان لهم أن يحتجوا ويتعللوا بقولهم :

﴿ ربنا لولا ﴾ هلاّ ﴿ أرسلت إلينا رسولاً ﴾ في الدنيا ﴿ فنتبع آياتك ﴾ اللاتي يأتي بها الرسول ﴿ من قبل أن نذل ﴾ بالعذاب والهوان في الدنيا ﴿ ونخزى ﴾ بدخول النار ، وقرىء نُذَلّ وَنُخْزَى على البناء للمفعول وقد قطع الله معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم، ولهذا حكى الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾ .

﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ كلٌّ ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿ متربص ﴾ أي منتظر لما يؤول اليه الأمر ﴿ فتربصوا ﴾ أنتم ﴿ فستعلمون ﴾ عن قريب ﴿ من أصحاب الصراط السوي ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿ ومن اهتدى ﴾ من الضلالة ، ونزع عن الغواية ، أنحن أم أنتم ؟ قال النحاس والفراء : نذهب الى أن معنى مَنْ أصحاب الصراط السوي من لم يضل ، ومعنى : من اهتدى من ضل ثم اهتدى ، ومن في الموضعين استفهامية أو موصولة .



سورة الأنبياء

(مكية . قال القرطبي في قول الجميع ، وهي مائة وإحدى أو اثنتا عشرة آية)

وسميت بذلك لذكر قصص الأنبياء فيها وأخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال بنو اسرائيل والكهف ومريم والانبياء من العتاق الاول وهن من تلادي .

عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه الرجل فقال : اني استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وادياً ما في ديار العرب واد أفضل منه . وقد أردت أن أقطع اليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك . فقال عامر : لا حاجة لي في قطعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا يريد هذه السورة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ يقال قرُب الشيء واقترب ، قال الزجاج المعنى : اقترب لهم وقت حسابهم أي القيامة ، كما في قوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ وتقديم ﴿ للناس ﴾ على الحساب لإدخال الروعة ، ومعنى اقتراب الحساب دُنوّه منهم لأنه في كل ساعة أقرب اليهم من الساعة التي قبلها .

وقيل :لأن كل ما هو آت قريب وإنما البعيد ما انقرض ومضى ، وموت كل إنسان قيام ساعته ، والقيامة أيضاً قريبة بالإضافة الى ما مضى من الزمان فما بقي من الدنيا أقل مما مضى ، والمراد بالناس العموم ، وقيل المشركون مطلقاً ، وقيل: كفار مكة وعلى هذا الوجه قيل المراد بالحساب عذابهم يوم بدر .

﴿ وهم في غفلة ﴾ عن حسابهم وعما يفعل بهم في الدنيا ﴿ معرضون ﴾ عن الآخرة غير متأهبين لما يجب عليهم من الإيمان بالله والقيام بفرائضه والانزجار عن مناهيه ، أخرج النسائي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية « قال في الدنيا » وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أمر الدنيا » .

﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ تعليل لما قبله ومن لابتداء الغاية أو زائدة ، وقد استدل بوصف الذكر بكونه محدثاً على أن لفظ القرآن

محدث ، لأن الذكر هنا هوالقـرآن،وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف لأنه متجدد في النزول ، ولا خلاف في حدوثها فالمعنى محدث تنزيله وإنما النزاع في الكلام النفسي .

وهذه المسألة أعني قدم القرآن وحدوثه قد ابتلي بها كثير من أهل العلم والفضل في الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي ، وصارت فتنة عظيمة في ذلك الوقت وما بعده ؛ والقصة أشهر من أن تذكر ، ومن أحب الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الامام أحمد بن حنبل في كتاب النبلاء لمؤرخ الاسلام الذهبي .

ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الاجابة الى القول بخلق القرآن وحدوثه وحفظ الله بهم أمة نبيه صلى الله عليه وسلم عن الابتداع .

ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك الى الجزم بقدمه ، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث بل جاوزوا ذلك الى تكفير من قال لفظي بالقرآن مخلوق بل جاوزوا ذلك الى تكفيـر من وقف،وليتهم لم يجاوزوا حدّ الوقف وإرجاع العلم إلى علام الغيوب فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم الى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة شيء من الكلام ولا نقل عنهم كلمة في ذلك فكان الامتناع من الإجابة الى ما دعوا اليه والتمسك بأذيال الوقف وإرجاع علم ذلك الى عالمـه هو الطريقة المثلى وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله والأمر لله سبحانه .

وقيل معنى الآية أن الله يحدث الأمر بعد الأمر فينزل الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الأحكام وغيرها من الأمور والوقائع وهذا القول كالأول ؛ وقيل الذكر المحدث ما قاله رسول الله (ﷺ) وبينه سوى ما في القرآن والأول أولى .

﴿ إلا استمعوه ﴾ من النبي (ﷺ) أو غيره ممن يتلوه استثناء مفرغ

﴿ وهم يلعبون ﴾ جملة حالية أي لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون ، والمعنى يستهزئون به ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ حال أيضاً وهما حالان مترادفان أو متداخلان قاله الزمخشري والمعنى ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا في حال الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلب .

﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة إِثْرَ حكاية جناياتهم المعتادة ، والنجوى اسم من التناجي وهو لا يكون إلا سراً ، فمعناه المبالغة في الإخفاء بحيث لم يفهم أحد تناجيهم ومسارتهم تفصيلاً ولا إجمالاً وإنما قالوا ذلك سراً لأنهم كانوا في مبادي الشر والعناد وتمهيد مقدمات الكيد والفساد، وقد اختلف في محل الموصول على أقوال: قال أبو عبيدة : أسروا هنا من الأضداد أي بمعنى أخفوا كلامهم ؛ أو بمعنى أظهروه وأعلنوه .

﴿ هل هذا ﴾ بدل من النجوى مفسر لها أو مفعول لمضمر وهل بمعنى النفي أي قالوا ما هذا الرسول ﴿إلا بشر مثلكم ﴾ لا يتميز عنكم بشيء وما يأتي به سحر ﴿ أفتأتون السحر ﴾ أي اذا كان بشراً مثلكم ، وكان الذي جاء به سحراً فكيف تجيبونه اليه وتتبعونه .

﴿ وأنتم تبصرون ﴾ حال من فاعل تأتون مقرر للإنكار ومؤكد للاستبعاد وقالوا ما ذكر بناء على ما ثبت في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون الا ملكاً وأن كل ما يظهر على يد البشر يكون سحراً فأطلع الله سبحانه نبيه (ﷺ) على ما تناجوا به وأمره أن يجيب عليهم فقال :

﴿قال ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما يقال فيهما وفي مصاحف أهل الكوفة ﴿ قال ربي ﴾ أي قال محمد : ربي يعلم فهو عالم بما تناجيتم به قيل:الأولى أولى لأنهم أسروا هذا القول فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا ، قال النحاس : والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة آيتين .

﴿ وهو السميع ﴾ لكل ما يسمع ﴿ العليم ﴾ بكل معلوم فيدخل في ذلك ما أسروا دخولاً أولياً ﴿ بل ﴾ للانتقال من غرض الى غرض آخر في المواضع الثلاثة وهي : ﴿بل قالوا﴾ و﴿بل افتراه﴾و﴿بل هوشاعر﴾ ، كما ذكره ابن مالك في شرح كافيته ، من أنها لا تقع في القرآن إلا على هذا الوجه وسبقه إليه صاحب الوسيط ووافقه ابن الحاجب وهو الحق .

﴿ قالوا ﴾ الذي يأتي به من القرآن ﴿ أضغاث أحلام ﴾ أي أخلاط رآها في النوم . قاله الزجاج . وقال القتيبي : هي الرؤيا الكاذبة ، وقال اليزيدي : الأضغاث ما لم يكن له تأويل . قال قتادة : أي دقل الأحلام إنما هي رؤيا رآها ، يعني أباطيل وأهاويل رآها في النوم .

﴿ بل افتراه ﴾ حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم أضغاث أحلام ، أي بل قالوا افتراه واختلقه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل . ثم حكى عنهم أنهم أضربوا عن هذا وقالوا : ﴿ بل هو شاعر ﴾ وما أتى به من جنس الشعر ، أي كلام يخيل للسامع معاني لا حقيقة لها ويرغبه فيها ، هذا هو المراد بالشعر هنا ، وفي هذا الإضـراب منهم والتلون والتردد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة ما جاء به لا يدرون ما هو ولا يعرفون كنهه ، أو كانوا قد علموا أنه حق وأنه من عند الله ، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرموه بكل حجر ومدر ، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان .

ثم بعد هذا كله قالوا : ﴿ فليأتنا بآية ﴾ وهذا جواب شرط محذوف ، أي إن لم يكن كما قلنا بل كان رسولاً من عند الله فليأتنا بآية إتياناً كائناً ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ أي مثل ما أرسل موسى بالعصا وغيرها ، وصالح بالناقة ، وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت ، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفي ، ولو علم الله سبحانه أنهم يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحونه لأعطاهم ذلك كما قال ،﴿ولـوعلم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾. قال الزجاج : اقترحوا الآيات التي لا يقع معها إمهال فقال الله مجيباً لهم :

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

﴿ ما آمنت قبلهم ﴾ أي قبل مشركي مكة ﴿ من ﴾ أهل ﴿ قرية أهلكناها ﴾ أي أهلكنا أهلها بتكذيبهم، أو أهلكناها بإهلاك أهلها ، وفيه بيان أن سنة الله في الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه ، ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة ومن مزيدة للتوكيد ، والمعنى ما آمنت قرية من القرى التي أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء ؛ فكيف نعطيهم ما اقترحوا وهم أسوة من قبلهم .

﴿ أفهم يؤمنون ﴾ الهمزة للتقريع والتوبيخ ، والمعنى إن لم تؤمن أمة من الأمم الْمُهْلَكة عند إعطاء ما اقترحوا فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا قال قتادة : قال أهل مكة للنبي صلى الله عليه وسلم : إذا كان ما تقوله حقاً ويسرك أن نُؤمن فحوّل لنا الصفا ذهباً ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذي سألك قومك ولكنه إن كان ثُمَّ لم يؤمنوا لم يُنْظَروا ، وإن شئت استأنيت بقومك قال : « بل أَسْتَأْنِي بقومي » ، فأنزل الله ﴿ ما آمنت قبلهم ﴾ الآية .

ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ بقوله : ﴿ وما أرسلنا ﴾ أي لم نرسل ﴿ قبلك ﴾ الى الأمم السالفة «إلا رجالاً » من البشر مخصوصين من أفراد جنسك متأهلين للاصطفاء والإرسال، ولم نرسل اليهم ملائكة ، كما قال سبحانه : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ .

﴿ نوحي اليهم ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإرسال أو صفة ﴿ رجالاً ﴾ أي متصفين بصفة الإيحاء اليهم ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ؛ ثم أمرهم الله بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا فقال :

﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ هم أهل الكتابين اليهود والنصارى ﴿إن كنتم لا تعلمون ﴾ أن رسل الله من البشر فإنهم لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه وإن أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وتقدير الكلام إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أهل الذكر ، وتوجيه الخطاب الى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة التكبر ، وقد استدل بالآية على أن التقليد جائز وهو خطأ ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة ، لا عن الرأي البحت ، وليس التقليد الا قبول قول الغير دون حجته ، والمقلد اذا سأل أهل الذكر عن كتاب الله وسنة رسوله لم يكن مقلداً . قال الرازي ومن الناس من قال المراد بأهل الذكر اهل القرآن وهو بعيد لأنهم كانوا طاعنين في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وسلم . فأما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية في أن للعاميّ أن يرجع الى فتيا العلماء ، وفي أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لأن هذه الآية خطاب مشافهة وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين أ هـ .

وقد قدمنا في سورة النحل أن سياق هذه الآية الكريمة يفيد أن المراد بها السؤال الخاص ، وبه يظهر لك أن هذه الآية دليل الاتباع لا دليل التقليد فارجع اليه . وقد أوضح الشوكاني هذا في رسائل بسيطة ، منها (القول المفيد في حكم التقليد) ، (وأدب الطلب ومنتهى الأرب) وغيره في غيرها . ثم لما فرغ سبحانه عن الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر فقال :

﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ أي أن الرسل أسوة لسائر أفراد بني آدم في حكم الطبيعة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون ، والجسد جسم الإنسان والجنة والملائكة .

قال الزجاج : هو واحد ينبىء عن جماعة ، أي وما جعلناهم ذوي

أجساد غير طاعمين ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر في الدنيا ، وقد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون ، فأجاب الله عليهم بهذا .

﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي أوحينا إليهم ما أوحينا ، ثم أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم وإهلاك من كذبهم ، ولذا قال سبحانه : ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ من عبادنا المؤمنين الذين صدقوهم ، والمراد إنجاؤهم من العذاب وإهلاك من كفر بالعذاب الدنيوي .

﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أي المجاوزين للحد في الكفر والمعاصي وهم المشركون ﴿ ولقد أنزلنا إليكم ﴾ يا معشر قريش ﴿ كتاباً ﴾ عظيم الشأن نير البرهان ، يعني القرآن ﴿ فيه ذكركم ﴾ كلام مستأنف مسوق لتحقيق أحقية القرآن الذي ذكر في صدر السورة إعراضهم عما يأتيهم منه ، والمراد بالذكر هنا الشرف ، أي فيه شرفكم ، قاله ابن عباس ، كقوله : وانه لذكر لك ولقومك ، أي فيه ما يوجب الثناء عليكم لكونه بلسانكم نازلاً بين أظهركم على لسان رسول منكم ، واشتهاره سبب لاشتهاركم ، وجعل ذلك فيه مبالغة في سببيته له .

وقيل أي ذكر أمر دينكم وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب ، وقيل فيه حديثكم ، قاله مجاهد والحسن .

وقيل مكارم أخلاقكم وقيل صيتكم ، وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا ، فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد ، وقيل فيه موعظتكم ، قال ابو السعود : وهو الأنسب بسياق النظم الكريم ومساقه فإن قوله :

﴿ أفلا تعقلون ﴾ إنكار توبيخي فيه بعث لهم على التدبر في أمر الكتاب والتأمل فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة ، والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ، أي ألا تتفكرون فلا تعقلون ان الأمر كذلك ، أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما ذكر ؟ ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكذبة فقال :

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴾ ﴿ كم ﴾ هي الخبرية المفيدة للتكثير والقصم كسر الشيء ودقه ، يقال قصمت ظهر فلان إذا كسرته ، واقتصمتْ سنُّه إذا انكسرت ، والمعنى هنا الإهلاك والعذاب .

وأما الفصم بالفاء فهو الصدع في الشيء من غير بينونة ، أي وكم قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين ، أي كافرين بالله مكذبين بآياته ، والظلم في الأصل وضع الشيء في غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر في موضع الإيمان .

قال ابن عباس : بعث الله نبياً من حمير يقال له شعيب ، فوثب اليه عبد فضربه بعصا ، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شيء ، وفيهم أنزل الله : ﴿ وكم قصمنا ـ الى قوله ـ خامدين ﴾ .

وعن الكلبي في الآية قال : هي « حضور » بني أزد باليمن ، فيكون التكثير باعتبار أفراد تلك القرية .

﴿ وأنشأنا بعدها ﴾ أي أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاك أهلها ﴿ قوماً آخرين ﴾ ليسوا منهم ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أي أدركوا وشعروا ورأوا عذابنا

بحاسة البصر وقال الأخفش : خافوا وتوقعوا . والبأس العذاب الشديد .

﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ أي يسرعون هاربين ويهربون مسرعين من قريتهم لما رأوا مقدمة العذاب،أو من بأسنا لأنه في معنى النقمة والبأساء ، فأنث الضمير حملاً على المعنى ، ومن على الأول لابتداء الغاية وللتعليل على الثاني ، والركض الفرار والهرب والانهزام ، وأصله من ركض الرجل الدابة برجليه ، يقال رَكَضَ الْفَرَس إذا كَدَّه بساقيه ، ثم كثر حتى قيل : ركض الفرس إذا عَدَا ، ومنه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ والمعنى أنهم يهربون منها راكضين دوابهم ، فقيل لهم .

﴿ لا تركضوا ﴾ أي لا تهربوا ، قيل إن الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم وقيل: إن القائل لهم ذلك من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم ﴿ وارجعوا إلى ما أترفتم ﴾ يعني ما تنعمتم ﴿ فيه ﴾ من الدنيا ولين العيش ، يعني إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم وكفركم ، والمترف المنعم ، يقال أترف فلان أي وسع عليه في معاشه ، وقل فيه همه .

وقال سعيد بن جبير : ارجعوا إلى دوركم وأموالكم ﴿ ومساكنكم ﴾ التي تسكنونها وتفتخرون بها ﴿ لعلكم تسألون ﴾ أي تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات ، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم .

وقيل: المعنى لعلكم تسألون عما نزل بكم وجرى عليكم من العقوبة فتخبرون السائل عن علم ومشاهدة . وقيل: لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسئلون ذلك قبل نزول العذاب بكم ، أو تسئلون شيئاً من دنياكم على العادة فتعطون من شئتم وتمنعون من شئتم ، فإنكم أهل نعمة وثروة ؛ وهذا كله توبيخ وتهكم بهم وقيل غير ذلك .

قال المفسرون وأهل الأخبار : إن المراد بهذه الآية أهل حضور من اليمن وكان أهلها عرباً ، وكان الله سبحانه قد بعث اليهم نبياً اسمه شعيب بن مهدم . وقبره بجبل من جبال اليمن يقال له صنين ، وبينه وبين حضور نحو

بريد ، قالوا وليس هو شعيباً صاحب مدين (قلت) وآثار القبر بجبل صنين موجودة ، والعامة من اهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم ، فلما كذبوه وقتلوه اتبعهم بختنصر وأخذتهم السيوف ونادى مناد من جو السماء يا لثارات الأنبياء ، فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم .

و﴿قالوا﴾ لما قالت لهم الملائكة لا تركضوا ﴿ يا ويلنا ﴾ أي يا هلاكنا ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ لأنفسنا مستوجبين العذاب بما قدمنا ، فاعترفوا على أنفسهم بالظلم الموجب للعذاب وقالوا ذلك على سبيل الندامة ولم ينفعهم الندم .

﴿ فما زالت تلك ﴾ أي هذه الجملة والكلمة ﴿ دعواهم ﴾ هي قولهم يا ويلنا أي يدعون بها ويرددونها ﴿ حتى جعلناهم حصيداً ﴾ بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ، والحصيد هنا بمعنى المحصود .

ومعنى ﴿ خامدين ﴾ أنهم ميتون من خمدت النار وهمدت إذا طفئت ، فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات قد طفىء ، والخمود عبارة عن سكون لهبها مع بقاء الحر ، والهمود عبارة عن ذهابها بالكلية حتى تصير رماداً ، فالأحسن أن يكون المراد بالخمود هنا الهمود فإنه أبلغ معنى ، والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصاد والخمود ، كقولك جعلته حلواً حامضاً ؛ أي جعلته جامعاً للطعمين . قال مجاهد : بالسيف ضرب الملائكة وُجُوهَهم حتى رجعوا إلى مساكنهم .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال : حدثني رجل من الجزريين قال : كان باليمن قريتان يقال لإحداهما حضور وللأخرى قلابة ، فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا يغلقون أبوابهم فلما أترفوا بعث الله اليهم نبياً فدعاهم فقتلوه ، فألقى الله في قلب بختنصر أن يغزوهم ؛ فجهز لهم جيشاً فقاتلوهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين ؛ فجهز اليهم جيشاً آخر أكثف من الأول فهزموهم أيضاً ، فلما رأى بختنصر غزاهم هو بنفسه ، فقاتلهم حتى خرجوا منها يركضون ؛ فسمعوا منادياً يقول : لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيا

ومساكنكم ، فرجعوا فسمعوا صوت مناد يقول : يا لثارات النبي فقتلوا بالسيف ، فهي التي قال الله : ﴿ وكم قصمنا من قرية ـ الى قوله ـ خامدين ﴾ .

قلت : وقرى حضور معروفه الآن ، بينها وبين مدينة صنعاء نحو بريد في جهة الغرب منها .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ أي لم نخلقهما عبثاً ولا باطلاً بل للتنبيه على أن لهما خالقاً قادراً يجب امتثال أمره ، واللعب هو محط النفي وفيه إشارة إجمالية الى تكوين العالم ؛ والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها ، والمعنى ما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو ، وإنما سويناهما لفوائد منها التفكر في خلقهما وما فيهما من المنافع التي لا تعد ولا تحصى وليستدل بها على قدرة مدبرها ولنجازي المحسن والمسيء على ما تقتضيه حكمتنا ، واللعبُ فِعْلٌ يروقُ أَوّلُهُ وَلا ثَباتَ له.

ثم نزه ذاته عن سمات النقص فقال : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ اللهو ما يتلهى به ، تقول أهل نجد لهوت عنه ألهو لهياً ، والأصل لُهُوًى من باب قعد على فعول وأهل العالية لَهيت عنه أَلْهَى من باب تعب ومعناه السلوان والترك ، ولهوت به لهواً من باب قتل أولعت به وتلهيت به أيضاً ، قال الطرطوشي : وأصل اللهو ؛ الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة وألهاني الشيء بالألف شغلني .

قيل : اللهو هنا الزوجة والولد ، وقيل : الزوجة فقط ، وقيل : الولد فقط ، قال الجوهري : قد يكنى باللهو عن الجماع ومنه قول الشاعر :

وفيهن ملهى للصديق ومنظر

والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها ، وجواب لو قوله : ﴿ لاتخذناه من لدنا ﴾ أي من عندنا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم ويستثنى نقيض التالي

لينتج نقيض المقدم .

قال المفسرون : أي من الولدان أو الحور العين أو الملائكة، وفي هذا رد على من قال بإضافة الصاحبة والولد الى الله ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وقيل:أراد الرد على من قال . الأصنام أو الملائكة بنات الله ؛ وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصارى .

﴿ ان كنا فاعلين ﴾ قال الفراء والمبرد والزجاج : ويجوز أن تكون ﴿إن﴾ للنفي كما ذكره المفسرون أي ما فعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولداً ويجوز أن تكون للشرط أي إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا ، قال الفراء : وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية .

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ هذا إضراب عن اتخاذ اللهو أي دع ذلك الذي قالوا فإنه كذب وباطل بل شأننا أن نرمي بالحق على الباطل وبالإيمان على الكفر ، وقيل الحق قول لا إلّه إلا الله ، وانه لا ولد له ، والباطل قولهم : اتخذ الله ولداً .

﴿ فيدمغه ﴾ أي يقهره ويهلكه وأصل الدمغ شق الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامغة ، قال الزجاج : المعنى نذهبه ذهاب الصغار والإذلال؛ وذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب قيل: أراد بالحق الحجة وبالباطل الشبهة وقيل: الحق المواعظ والباطل المعاصي ، وقيل الباطل الشيطان ، وقيل بكذبهم ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته .

﴿ فإذا هو زاهق ﴾ أي زائل ذاهب ، وقيل هالك تالف ، والمعنى متقارب ﴿ وإذا ﴾ هي الفجائية ﴿ ولكم الويل ﴾ يا معشر الكفار ﴿ مما تصفون ﴾ أي لكم العذاب في الآخرة بسبب وصفكم لله بما لا يجوز عليه من الصاحبة والولد ، وقيل: الويل واد في جهنم ، وهو وعيد لقريش ؛ بأن لهم من العذاب مثل الذي لأولئك و ﴿ من ﴾ هي التعليلية وهذا وجه وجيه و ﴿ ما ﴾ مصدرية أو موصولة أو نكرة موصوفة .

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ عبيداً ومِلْكاً، وهو خالقهم ورازقهم ومالكُهم والمنعم عليهم بأصناف النعم ، فكيف يجوز أن يكون بعض مخلوقاته شريكاً له يُعْبَد كما يُعْبد، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿ ومن عنده ﴾ يعني الملائكة، وفيه رد على القائلين بأن الملائكة بنات الله ، وفي التعبير عنهم بكونهم عنده إثْرَ ما عبر عنهم بمن في السموات إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم وأنهم عنده بمنزلة المقربين عند الملوك :

قال أبو السعود : بطريق التمثيل وأقول أنا بل بطريق التحقيق كما هو ظاهر النظم القرآني ، ثم وصفهم بقوله : ﴿لا يستكبرون ﴾ أي لا يتعاظمون ولا يأنفون ﴿ عن عبادته ﴾ سبحانه والتذلل له .

﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي لا يعيون ولا يتعبون مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب يقال حسر البعير يحسر حسوراً أعيى وكَلَّ واستحسر ؛ وتحسر مثله وحسرته انا حسراً يتعدى ولا يتعدى ، قال أبو زيد : لا يَكِلُّون ، وقال ابن الأعرابي : لا يفشلون ، وقال ابن عباس : لا يرجعون ، قال الزجاج : معنى الآية أن هؤلاء الذين ذكرتم أنهم أولاد الله عباد الله لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها ، كقوله : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ وقيل: المعنى لا ينقطعون عن عبادته وهذه المعاني متقاربة .

﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ أي ينزهون الله سبحانه دائماً لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون ، وقيل يصلون الليل والنهار ، قال الزجاج : مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شيء فكذلك تسبيحهم دائم أي ضروري فيهم سجية وطبيعة ، وهذه الجملة إما مستأنفة وقعت جواباً عما نشأ مما قبله أو حالية .

﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض ﴾ قال المفضل مقصود هذا الاستفهام الجحد أي لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء والإيجاد من العدم ،وأم هي المنقطعة والهمزة لإنكار الوقوع .

قال المبرد : إن أم هنا بمعنى هل. أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى ؟ ولا يكون ﴿أم ﴾ هنا بمعنى بل لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن يقدر أم مع الاستفهام فتكون أم المنقطعة فيصح المعنى .

﴿ هم ينشرون ﴾ أي يبعثون الموتى ، والجملة مستأنفة أو صفة لآلهة وهذه الجملة هي التي يدور عليها الإنكار،والتجهيل لا نفس الاتخاذ فإنه واقع منهم لا محالة ، والمعنى بل اتخذوا آلهة من الأرض لهم خاصة مع حقارتهم وينشرون الموتى وليس الأمر كذلك فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك وقرىء ينشرون من أنشره أي أحياه ، وقرىء بفتح الياء أي يَحْيَوْن ولا يموتون ثم إن الله سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدد الآلهة فقال :

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله ﴾ أي لو كان في السموات والأرض آلهة معبودون غير الله ، والجمع ليس قيداً وإنما عبر به مشاكلة لقوله ﴿ أم اتخذوا آلهة ﴾ وكذلك قوله فيهما ليس قيداً وإنما عبر به لأن هذا دليل إقناعي بحسب ما يفهمه المخاطب وبحسب ما فرط منهم ، وهم إنما اتخذوا آلهة في الأرض والسماء لا فيها وراءهما كالملائكة الحافين من حول العرش ، قاله الحفناوي ، والصحيح : أن الآية حجة قطعية الدلالة والقول بأنها حجة إقناعية قول منكر بشع أي إنكار وإبشاع .

﴿ لفسدتا ﴾ أي لبطلتا يعني : السموات والأرض بما فيهما من المخلوقات ، وخرجتا عن نظامهما المشاهد وهلك من فيهما لوجود التمانع من الآلهة على العادة عند تعدد الحاكم من التمانع في الشيء وعدم الاتفاق عليه لأن كل أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام،ويدل العقل على ذلك ، وذلك أنا لو قدرنا إلهين لكان أحدهما إذا انفرد صح منه تحريك الجسم واذا انفرد الثاني صح منه تسكينه فإذا اجتمعا وجب أن يبقيا على ما كانا عليه حال الانفراد ، فعند الاجتماع يصح أن يحاول احدهما التحريك ، والآخر التسكين ، فإما أن يحصل المراد وهو محال وإما أن يمتنعا وهو أيضاً محال لأنه يكون كل واحد منهما عاجزاً فثبت أن القول بوجود إلهين يوجب الفساد فكان القول به باطلاً ، قاله الكرخي .

أقول الأدلة القرآنية والحجج الفرقانية الدالة على توحيد الله تعالى تغني عن البراهين الكلامية والمسائل العقلية الفلسفية في هذا المرام ، وليس وراء بيان الله بيان ودونه خرط القتاد .

قال الرازي : القول بوجود إلهين يفضي الى المحال ثم ذكر دلائل ذلك وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد،والفساد لازم على كل التقديرات التي قدروها،واذا وقفتَ على هذه عرفت أن جميع ما في العالم العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى .

وأما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة في القرآن وكل من طعن في دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد لو كان في السماء والأرض آلهة يقول بإلهيتها عبدة الأصنام لزم فساد العالم ، لأنها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فلزم إفساد العالم ، قالوا : وهذا أولى ؛ لأنه تعالى حكى عنهم في قوله : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به .

قال عليّ القاري: وأما قول التفتازاني : الآية حجة إقناعية فالمحققون

كالغزالي وابن الهمام ، ما قنعوا بالإقناعية بل جعلوها من الحقائق القطعية ، بل قيل يكفر قائلها . انتهى .

قال الكسائي وسيبويه والأخفش والزجاج وجمهور النحاة إن ﴿إلا﴾ هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة للآلهة ، ولذلك ارتفع الاسم الذي بعدها ، وظهر فيه إعراب غير التي جاءت الا بمعناها ، وقال الفراء : ان ﴿إلا﴾ هنا بمعنى سوى ، ووجه الفساد أن كون إلّه آخر مع الله يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف ؛ فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ، ويحدث بسببه الفساد .

﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان أي تنزه عز وجل عما لا يليق به من ثبوت الشريك له وفي إرشاد للعباد أن ينزهوا الرب سبحانه عما لا يليق به ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ مستأنفة مبينة أنه سبحانه لقوة سلطانه وعظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شيء من قضائه وقدره من إعزاز وإذلال وإسعاد وإشقاء لأنه الرب المالك للأعناق.

﴿ وهم ﴾ أي العباد ﴿ يسألون ﴾ عما يفعلون سؤال توبيخ وتقريع يقال لهم يوم القيامة لم فعلتم كذا وكذا ، لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم ، والله تعالى ليس فوقه أحد يقول له لشيء فعله لم فعلته ؟.

وقيل: إن المعنى أنه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون ، قيل والمراد بذلك أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح لأن يكون إلهاً، قال ابن عباس : ما في الأرض قوم أبغض إليّ من القدرية وما ذاك إلا أنهم لا يعلمون قدرة الله ، قال الله ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ .

﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾ أم بمعنى بل وفيه إضراب وانتقال من إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق الى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم

بطلب البرهان منهم ولهذا قال : ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على دعوى أنها آلهة أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله ولا سبيل لهم الى شيء من ذلك لا من عقل ولا نقل لأن دليل العقل قد مر بيانه ، وأما دليل النقل فقد أشار اليه بقوله : ﴿ هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾ أي هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ، ذكر أمتي وذكر الأمم السالفة وقد أقمته عليكم وأوضحته لكم ، فأقيموا أنتم برهانكم .

وقيل المعنى هذا القرآن وهذه الكتب التي أنزلت قبلي ، فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه ؟ .

قال الزجاج : قيل لهم هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلهاً غير الله ، فهل في ذكر من قبلي الا توحيد الله ، وفيه تبكيت لهم متضمن لإثبات نقيض مدعاهم .

وقيل معنى الكلام الوعيد والتهديد ؛ أي افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء . وقرىء ذكرٌ مِن مَعي بالتنوين وكسر الميم ، أي هذا ذكر مما أنزل إليّ ومما هو معي وذكرٌ مِنْ قبلي ، قاله الزجاج . وقيل ذكر كائن من قبلي ، أي جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلي .

ثم لما توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع الحق فقال : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق ﴾ وهذا إضراب من جهة الله سبحانه غير داخل في الكلام الملقن وانتقال من تبكيتهم بمطالبتهم بالبرهان الى بيان أنه لا تؤثر فيهم المحاجة وإقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه وبين الباطل ، وقرىء الحق بالرفع على معنى هذا الحق أو هو الحق .

﴿ فهم معرضون ﴾ تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون . أي فهم لأجل هذا الجهل المستولي على أكثرهم معرضون عن قبول الحق وعن النظر الموصل إليه، مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول ، فلا يتأملون حجة ولا يتدبرون في برهان ولا يتفكرون في دليل .

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه﴾ استئناف مقرر لما أجمل قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الآلهية وأجمعت عليه الرسل ، وقرىء نوحي بالنون وبالياء ﴿ أنه لا إلّه إلا أنا ﴾ وفي هذا تقرير لأمر التوحيد وتأكيد لما تقدم من قوله : هذا ذكر من معي .

وختم الآية بالأمر لعباده فقال : ﴿ فاعبدون ﴾ فقد اتضح لكم دليل العقل ودليل النقل ، وقامت عليكم حجة الله .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ هؤلاء القائلون هم خزاعة وجهينة وبنو سلمة وبنو مليح ، فإنهم قالوا الملائكة بنات الله ، وقيل: هم اليهود ، ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولداً . وقد قالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . وقالت طائفة من العرب: الملائكة بنات الله ، ثم نزه الله سبحانه عز وجل نفسه فقال :

﴿ سبحانه ﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك ، وهو يقول على ألسنة العباد ؛ ثم أضرب عن قولهم وأبطله فقال : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ قرىء من الإكرام والتكريم ؛ أي ليسوا كما قالوا ، بل عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم مقربون عنده ، والعبودية تنافي الولادة بحسب المعتاد الذي لا يتخلف عند

العرب من كون عبد الانسان لا يكون ولده ، أو بحسب قواعد الشرع من أن الانسان إذ ملك ولده عتق عليه ، والأول في تقرير المنافاة أظهر إذ الكلام مع جهال العرب وهم لا يعرفون قواعد الشرع .

قال قتادة : قالت اليهود إن الله صاهر الجن فكانت بينهم الملائكة ، فقال الله تكذيباً لهم : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ أي الملائكة أكرمهم بعبادته واصطفاهم ووصفهم بصفات سبعة ؛ الأولى هذه والأخيرة . ومن يقل منهم . فهذه الضمائر كلها للملائكة .

﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ وصفهم بصفة أخرى ، أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله أو يأمرهم به ، كذا قال ابن قتيبة وغيره ، وفي هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ أي هم القائمون بما يأمرهم الله به ، التابعون له المطيعون لربهم فلا يخالفونه قولاً ولا عملاً .

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي ما عملوا وما هم عاملون . وقيل ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم ، أو يعلم ما بين أيديهم . وهو الآخرة وما خلفهم ، وهو الدنيا ، والجملة تعليل لما قبلها ، ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدموا وأخروا لم يعملوا عملاً ولا يقولوا قولاً إلا بأمره .

﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ أن يشفع الشافعون له وهو ممن رضى عنه وقيل: هم أهل لا إله إلا الله ، وقد ثبت في الصحيح . أن الملائكة يشفعون في الدار الآخرة[1] ، قال قتادة : لأهل التوحيد ، وعن مجاهد نحوه ،

(١) وردت احاديث كثيرة فيها شفاعة الملائكة منها : البخاري كتاب التوحيد باب ٢٤ ـ الإمام احمد ٥/٤٣ .

وعن الحسن : لمن قال لا إلّه إلا الله ، وقال ابن عباس : الذين ارتضاهم بشهادة أن لا إلّه إلا الله .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن جابر أن رسول الله (ﷺ) تلا هذه الآية وقال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »[1] .

﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ أي من خشيتهم منه، والخشية الخوف مع التعظيم ولهذا خص به العلماء ؛ والإشفاق : الخوف مع التوقع والاعتناء والحذر فإن عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإن عدي بعلى فبالعكس أي لا يأمنون مكر الله ، بل هم خائفون وَجِلُون.

﴿ ومن يقل منهم ﴾ أي من الملائكة على سبيل الفرض، لتحقق عصمتهم ﴿إني الّه من دونه ﴾ قال المفسرون : عني بهذا إبليس لأنه لم يقل أحد من الملائكة إني إلّه إلا إبليس، وذلك على سبيل التسمح ، والتجوز اذ هو معترف بالعبودية وآيس من رحمة الله وكونه من الملائكة باعتبار أنه كان مغموراً فيهم وقيل الضمير للخلائق مطلقاً ، وقيل الإشارة إلى جميع الأنبياء .

﴿ فذلك ﴾ القائل على سبيل الفرض والتقدير ﴿ نجزيه جهنم ﴾ بسبب هذا القول الذي قاله ، كما نجزي غيره من المجرمين ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نجزي الظالمين ﴾ أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الإلّهية والعبادة في غير موضعها ، والمراد بالظالمين المشركون .

---

(١) المستدرك كتاب الإيمان ١/ ٦٩

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ أو لم ير الذين كفروا ﴾ الهمزة للإنكار بواو ، وتركها قراءتان سبعيتان والواو للعطف على مقدر، والرؤية هي القلبية أي ألم يتفكروا ولم يعلموا، وحاصل ما ذكر من هنا إلى يسبحون ستة أدلة على التوحيد ، وهذا تجهيل لهم بتقصيرهم في التدبر في الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالألوهية وكون جميع ما سواه مقهوراً تحت ملكوته .

﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقاً ﴾ قال الأخفش : انما قال كانتا دون كنّ لأنهما صنفان أي جماعتا السموات والأرض ، وبه قال الزمخشري .

وقال أبو البقاء : الضمير يعود على الجنسين ، وقال الحوفي : أراد الصنفين كما قال سبحانه ؛ ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ ، وقال الزجاج : إنما قال كانتا لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد لأنها كانت سماء واحدة وكذلك الأرضون. والرَّتْقُ السد ضد الفتق ، يقال رتقت الفتق أرتقُه فارتتق أي التأم ، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ، يعني أنهما كانا شيئاً واحداً ملتزقين ملتصقين .

وقال : رتقاً ولم يقل رتقين لأنه مصدر والتقدير كانتا ذواتي رتق ، وقيل مرتوقتين مسرودتين .

قال البيضاوي : والكفرة وان لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم به نظراً ،فإن الفتق عارض مفتقر إلى مؤثر واجب ابتداء أو بواسطة أو استفساراً من العلماء ومطالعة الكتب انتهى ، ومنعه الكازروني، وقال فيه نظر وتمكنهم هذا ممنوع ، ويجوز أن يكونا مخلوقين منفصلين ؛ بلا رتق وفتق ؛ فإن استدل عليهما بأن القرآن نص عليهما فنقول هذا كاف في إثباتهما ولا حاجة إلى الدليل العقلي المذكور .

﴿ ففتقناهما ﴾ أي ففصلناهما أي فصلنا بعضهما من بعض بالهواء فرفعنا السماء وأبقينا الأرض مكانها ، والفتق الفصل بين الشيئين وهو من أحسن البديع هنا حيث قابل الرتق بالفتق قيل كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها الله وجعلها سبع سموات،وكذلك الأرض كانت طبقة واحدة فجعلها سبع أرضين.وعن ابن عباس قال : فتقت السماء بالغيث وفتقت الأرض بالنبات .

وقد أطال الكلام القرطبي في ذلك ، ولقل عن كعب الأخبار وغيره أحوال خلق الأرض العليا والسفلى ؛ ولا يصار إليهما إلا أن يصح من ذلك شيء من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وجعلنا من الماء ﴾ أي خلقنا وأحيينا أو صيرنا بالماء الذي ننزله من السماء وينبع من الأرض .

﴿ كل شيء حي ﴾ فيشمل الحيوان والنبات ، والمعنى أن الماء سبب حياة كل شيء ، وقيل: المراد بالماء هنا نطفة الرجل وبه قال أبو العالية وأكثر المفسرين وخرج هذا اللفظ مخرج الأغلب والأكثر وهذا احتجاج على المشركين بقدرة الله سبحانه ، وبديع صنعه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية .

﴿أفلا يؤمنون ﴾ الهمزة للإنكار عليهم حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت جمع راسية من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ ،يقال جبال راسية وراسيات ورواس

﴿ أن تميد بهم ﴾ الميد : التحرك والدوران أي لئلا تتحرك وتدور بهم أو كراهة ذلك ، وقد تقدم تفسير ذلك في النحل مستوفى .

﴿ وجعلنا فيها ﴾ أي في الرواسي أو في الأرض وهو الظاهر ﴿ فجاجاً ﴾ طرقاً واسعة ، قال أبو عبيدة : هي المسالك ، وقال الزجاج : كل مخترق بين جبلين فهو فج و ﴿ سبلاً ﴾ تفسير للفجاج ، لأن الفج قد لا يكون طريقاً نافذاً مسلوكاً ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ الى مصالح معاشهم ومقاصدهم في الأسفار، وما تدعو اليه حاجاتهم ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ عن أن يقع ويسقط على الأرض ، كقوله : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ .

وقال الفراء : محفوظاً بالنجوم من الشيطان كقوله : ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ ، وقيل محفوظاً لا يحتاج إلى عماد ، وقيل المراد بالمحفوظ هنا المرفوع ، وقيل محفوظاً عن الشرك والمعاصي ، وقيل عن الهدم والنقض ، وقيل عن الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم .

﴿ وهم عن آياتها ﴾ أي الآيات الكائنة فيها الدالة على وجود الصانع ووحدته وتناهي قدرته وكمال حكمته وأضاف الآيات الى السماء لأنها مجعولة فيها وذلك كالشمس والقمر والنجوم ، وكيفية حركاتها في أفلاكها ومطالعها ومغاربها ﴿ معرضون ﴾ أي لا يعتبرون بها فيها ولا يتفكرون فيما توجبه من الايمان .

﴿ وهو الذي خلق ﴾ هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم الله به عليهم وذلك بأنه خلق لهم ﴿ الليل ﴾ ليسكنوا فيه ﴿ والنهار ﴾ ليتصرفوا فيه في معايشهم ﴿ و ﴾ جعل ﴿ الشمس ﴾ آية النهار ﴿ والقمر ﴾ آية الليل ليعلموا عدد الشهور والحساب كما تقدم بيانه في ﴿سبحان﴾ .

﴿ كل في فلك ﴾ أي مستدير كالطاحونة في السماء ﴿يسبحون﴾

في دوران أي يجرون قاله ابن عباس يعني كل واحد من الشمس والقمر والنجوم في وسط الفلك يسيرون بسرعة كالسابح في الماء.

قال ابن عباس : فلك كفلكة المغزل يدورون في أبواب السماء ، كما تدور الفلكة في المغزل ، وعنه قال : هو فلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب ، وكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه ، والجمع في الفعل باعتبار المطالع ، قال سيبويه : إنه لما أخبر عنهن بفعل من يعقل وجعلهن في الطاعة بمنزلة من يعقل ، جعل الضمير عنهن ضمير العقلاء ، ولم يقل يسبحن أو تسبح ، وكذا قال الفراء ، وقال الكسائي : إنما قال يسبحون لأنه رأس الآية والفلك واحد أفلاك النجوم وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فلك المغزل لاستدارتها، والفلك مدار النجوم الذي يضمها وهو في كلام العرب كل شيء مستدير ، وقيل الفلك استدارة السماء ، وقيل الفلك ماء أو موج مكفوف دون السماء تجري فيه الكواكب .

وقال أهل الهيئة : الأفلاك أجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول ، وفي الرازي : الفلك في كلام العرب كل شيء مستدير وجمعه أفلاك ، واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم : الفلك ليس بجسم ، وإنما هو استدارة هذه النجوم .

وقال الأكثرون : الأفلاك أجسام تدور النجوم عليها وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن، واختلف الناس في حركات الكواكب والوجوه الممكنة. فيها ثلاثة فإنه إما أن يكون الفلك ساكناً ، والكواكب تتحرك فيه ، كحركة السمك في الماء الراكد ، وإما أن يكون الفلك متحركاً والكواكب أيضاً إما مخالفة لجهة حركته أو موافقة لجهتها إما بحركة مساوية لحركة الفلك في السرعة والبطء أو مخالفة، وإما أن يكون الفلك متحركاً ، والكواكب ساكنة .

والذي يدل عليه لفظ القرآن القسم الأول وهو أن تكون الأفلاك ساكنة والكواكب جارية فيها ، كما تسبح السمكة في الماء الراكد انتهى ، والحق أنه لا

سبيل إلى معرفة صفة السموات ، والأفلاك وما فيها إلا بإخبار الصادق المصدوق .

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ أي دوام البقاء في الدنيا لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية والتشريعية ﴿ أفإن مت ﴾ بأجلك المحتوم ، وقرىء مت بكسر الميم وضمها وهما لغتان .

﴿ فهم الخالدون ﴾ قال الفراء : جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم إن محمداً سيموت قال : ويجوز حذف الفاء وإضمارها ، والمعنى ان مت فهم يموتون أيضاً فلا شماتة في الموت وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم ﴿أم يقولون: شاعر نتربص به ريب المنون﴾.

أخرج البيهقي وغيره عن عائشة قالت : دخل أبو بكر على النبي (ﷺ) وقد مات فقبله ، وقال وانبياه واخليلاه واصفياه ثم تلا وما جعلنا . الآية .

﴿ كل نفس ﴾ مخلوقة فلا يراد الباري تعالى : ﴿ذائقة الموت ﴾ أي ذائقة مرارة مفارقة جسدها فلا يبقى أحد من ذوات الأنفس المخلوقة كائناً ما كان وهذا دليل على ما أنكر من خلودهم ، قيل هذا العموم مخصوص بقوله تعالى : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ فإن الله حي لا يموت ولا يجوز عليه الموت، والذوق ههنا عبارة عن مقدمات الموت وآلامه العظيمة قبل حلوله .

﴿ ونبلوكم ﴾ أي نختبركم ﴿ بالشر ﴾ أي بالشدة ﴿ والخير ﴾ أي الرخاء ﴿ فتنة ﴾ مصدر لنبلوكم من غير لفظه لأن الابتلاء فتنة فكأنه قال : نفتنكم فتنة أو مفعول له أي لننظر كيف شكركم وصبركم ، والمراد أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم فالله لا يخفى عليه شيء .

﴿وإلينا ترجعون ﴾ لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً فنجازيكم بأعمالكم حسبما يظهر منكم إن خيراً فخير وان شراً فشر، وفيه إشارة الى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب .

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾

﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ يعني المستهزئين من المشركين ﴿ إن يتخذونك إلا هزواً ﴾ أي ما يتخذونك إلا مهزوءاً بك ، والهزء السخرية وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿إنا كفيناك المستهزئين ﴾ والمعنى ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزواً ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ؟ ﴾ أي يقولون أهذا الذي ؟ فعلى هذا يكون هو جواباً ويكون قوله : إن يتخذونك اعتراضاً بين الشرط والجزاء ، ومعنى يذكر يعيب ، قال الزجاج : يقال فلان يذكر الناس أي يغتابهم ويذكرهم بالعيوب وفلان يذكر الله يصفه بالتعظيم ويثني عليه ، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه ، وعلى ما قالوا لا يكون الذكر في كلام العرب العيب ، وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء ، وقيل يطلق على المدح والذم مع القرينة .

﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ أي بالقرآن ، أو هم بذكر الرحمن الذي خلقهم كافرون ؛ إذ قالوا ما نعرفه ، والمعنى أنهم يعيبون على النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء ، والحال أنهم بذكر الله سبحانه بما يليق به من التوحيد ، أو بالقرآن كافرون ، فهم أحق بالعيب لهم والإنكار عليهم .

﴿ خلق الانسان من عجل ﴾ أي جعل لفرط استعجاله في أحواله كأنه مخلوق من العجل ، وفيه استعارة بالكناية ، والعجل والعجلة ضد البطء ، وقد عَجِل من باب طَـرِب، والمعنى أن الانسان من حيث هو مطبوع على العجلة فيستعجل كثيراً من الأشياء وان كانت تضره ، وقال الفراء : كأنه يقول بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة .

وقال الزجاج . خوطبت العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذي يكثر منه الشيء خلقت منه ، كما تقول أنت من لعب وخلقت من لعب ، تريد المبالغة في وصفه بذلك ، ويدل على هذا المعنى قوله : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ والمراد بالإنسان الجنس ، وقيل آدم ، فإنه لما خلقه الله ونفخ فيه من الروح صار الروح في رأسه ، فذهب ينهض قبل أن يبلغ الروح الى رجليه فوقع ؛ فقيل : ﴿ خلق الانسان من عجل ﴾ كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والسدي والكلبي ومجاهد ، ولفظ عكرمة : لما نفخ في آدم الروح صار في رأسه فعطس ، فقال الحمد لله ، فقالت الملائكة يرحمك الله ؛ فذهب ينهض قبل أن تمور في رجليه فوقع ، فقال الله : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ وعن ابن جريج نحوه.

وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني : العجل الطين بلغة حمير ، وقيل إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحرث وهو القائل :﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ إلخ ، وقيل نزلت في قريش لأنهم استعجلوا العذاب ، وقال الأخفش : معناه أنه قيل له كن فكان ،وقيل: إن هذه الآية من المقلوب ، أي خلق العجل من الإنسان لشدة صدوره منه وملازمته له . وقد حكى هذا عن أبي عبيدة والنحاس وأبي عمرو ، والقول الأول أولى .

﴿سأوريكم آياتي ﴾ أي نقماتي منكم ومواعيدي في الآخرة بعذاب النار أو في الدنيا كوقعة بدر ﴿ فلا تستعجلون ﴾ بالإتيان فإنه نازل بكم لا محالة .

وقيل المراد بالآيات ما دل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم من المعجزات ، وما جعله الله له من العاقبة المحمودة ، والأول أولى ويدل عليه قوله :

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ أي متى حصول هذا الوعد الذي تعدنا به من العذاب، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء والسخرية ، وقيل المراد بالوعد هنا القيامة ﴿ إن كنتم ﴾ يا معشر المسلمين ﴿ صادقين ﴾ في وعدكم ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب .

﴿ لو يعلم الذين كفروا حين ﴾ أي لو عرفوا ذلك الوقت ؛ وقال أبو السعود : استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه لجهلهم بشأنه ، وإيثار صيغة المضارع في الشرط وإن كان المعنى على المضي لإفادة استمرار عدم العلم انتهى . وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف لأنه أبلغ من الوعيد ، فقدره الزمخشري لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم هو الذي هوّنه عندهم وقدره ابن عطية ، ولو علموا الوقت الذي ﴿ لا يكفون ﴾ يدفعون .

﴿ عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ لما استعجلوا الوعيد ، وقدره الحوفي لسارعوا ، وقال الزجاج : التقدير لعلموا صدق الوعد أي البعث . وقيل لو علموه ما أقاموا على الكفر . وقال الكسائي : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة أي لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية ، ويدل عليه قوله الآتي : ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب في استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم .

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا يمنعون منها في القيامة ولا ينصرهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم ﴿ بل ﴾ إضراب انتقالي من بيان السبب إلى بيان كيفية وقوع الموعود فقال : ﴿ تأتيهم ﴾ أي لا يُكْفَوْنَهَا بل تأتيهم العدة أو النار أو الساعة ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ فتبهتهم ﴾ قال الجوهري : بهته بهتاً أخذه بغتاً ، وقال الفراء : أي تحيرهم . وقيل تفجؤهم وقيل تدهشهم .

﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ أي صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، فالضمير راجع الى النار ، وقيل الى الوعد بتأويله بالعدة ، وقيل الى الحين بتأويله بالساعة ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار .

﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ﴾ مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزيته ، كأنه قال : إن استهزأ بك هؤلاء فقد فُعِلَ ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر شأنهم ﴿ فحاق ﴾ أي أحاط ودار بسبب ذلك ﴿ بالذين سخروا منهم ﴾ أي من أولئك الرسل وهزؤوا بهم ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ ما مصدرية أو موصولة ، أي فأحاط بهم استهزاؤهم ، أي جزاؤه على وضع السبب موضع المسبب أو نفس الاستهزاء إن أريد به العذاب الأخروي بناء على تجسم الأعمال أو الأمر الذي كانوا يستهزئون به .

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿ قل من يكلؤكم ﴾ أي يحرسكم ، قاله ابن عباس ، والمعنى يحفظكم ، والكلاءة الحراسة والحفظ ، يقال كلأه الله كِلأة بالكسر ، أي حفظه وحرسه ، وحكي يكلوْكم بفتح اللام وإسكان الواو ، أي قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتوبيخ من يحرسكم ويحفظكم ﴿ بالليل ﴾ أي فيه اذا نمتم ﴿ والنهار ﴾ اذا انصرفتم الى معايشكم ، وتقديم الليل لما أن الدواهي أكثر فيه وقوعاً وأشد وقعاً ﴿ من ﴾ بأس ﴿ الرحمن ﴾ وعذابه الذي تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم . قال الزجاج : معناه من يحفظكم من بأس الرحمن ؟ .

وقال الفراء : المعنى من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة . وفي التعرض لعنوان الرحمة إيذان بأن كالئهم ليس إلا رحمته العامة ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ فلا يذكرونه ولا يخطرونه ببالهم ولا يتفكرون فيه بل يعرضون عنه أو عن القرآن أو عن مواعظ الله أو عن معرفته .

﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ أم بمعنى بل والهمزة للإضراب عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم الى توبيخهم

وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه والدفع عنها ، والمعنى بل لهم آلهة تمنعهم مما يسوءهم من عذابنا ، وفيه تقدير وتأخير ، والتقدير أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم . ثم وصف آلهتهم هذه التي زعموا أنها تنصرهم بما يدل على الضعف والعجز فقال :

﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ أي هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ، فهو استئناف مقرر لما قبله من الإنكار وموضح لبطلان اعتقادهم ﴿ ولا هم ﴾ أي الكفار ﴿ منا يصحبون ﴾ أي يجارون من عذابنا قال ابن قتيبة : أي لا يجيرهم منا أحد لأن المجير صاحب الجار . والعرب تقول : صحبك الله أي حفظك وأجارك ، تقول العرب أنا لك جار، وصاحب من فلان أي مجير منه ، وهو اختيار الطبري .

قال المازني : هو من أصحبت الرجل إذا منعته . وقال مجاهد : يحفظون قال ابن عباس : أي لا ينصرون ولا يجارون ولا يمنعون . وقال قتادة : لا يصحبون من الله بخير ولا يجعل الله رحمته صاحباً لهم . ذكره القرطبي .

ولما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلاً إلى بيان أن ما هم فيه من الخير والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله لا من مانع يمنعهم من الهلاك ولا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع فقال :

﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم ﴾ يعني أهل مكة متعهم الله بما أنعم عليهم ﴿ حتى طال عليهم العمر ﴾ وامتد بهم الزمان ، فاغتروا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون كذلك ؛ فرد الله سبحانه عليهم قائلاً :

﴿ أفلا يرون ﴾ أي لا ينظرون فيرون ﴿أنّا نأتي الأرض ﴾ أي نقصد أرض الكفر ﴿ ننقصها ﴾ بالظهور عليها ﴿ من أطرافها ﴾ فنفتحها بلداً بلداً وأرضاً بعد أرض بتسليط المسلمين عليها ، وأسنده الى نفسه تعظيماً لهم . وفيه

تعظيم للجهاد والمجاهدين . وقيل نقصها بالقتل والسبي ، وهو تصوير لما يجريه الله على أيدي المسلمين . وقد مضى في الرعد الكلام على هذه مستوفى .

﴿ أفهم الغالبون ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، أي كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها ، وفي هذا إشارة الى أن الغالبين هم المسلمون أصحاب النبي .

﴿ قل إنما أنذركم ﴾ أي أخوفكم وأحذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿ بالوحي ﴾ من الله أي بالقرآن لا من قبل نفسي ، وذلك شأني وما أمرني الله به ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء ﴾ إما من تتمة الكلام الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم أو من جهة الله تعالى .

والمعنى أن من أصم الله سمعه وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء . وقرىء لا يُسْمَع بضم الياء وفتح الميم على ما لم يسم فاعله ، وقرىء بالفوقية وكسر الميم ، أي أنك يا محمد لا تُسْمِع هؤلاء و (ال) في الصم للجنس فيدخل المخاطبون فيه دخولاً أولياً أو للعهد .

﴿إذا ما ينذرون ﴾ أي يخوّفون لتركهم العمل بما سمعوه من الإنذار، والأصل ولا يسمعون إذا ما ينذرون ، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامِّهم وسدهم أسماعهم اذا ما أنذروا ، وللتسجيل عليهم .

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ﴾ المراد بالنفحة الدليل ، مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان ، وقال المبرد : النفحة الدفعة من الشيء التي دون معظمه ، يقال نفحه نفحة بالسيف اذا ضربه ضربة خفيفة .وقيل هي النصيب وقيل هي الطرف وقيل وقعة خفيفة والمعنى متقارب ، أي ولئن مسهم أقل شيء من العذاب ، وفيه مبالغات ثلاث ذكر المس وما في النفحة من معنى القلة ، فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء والبناء الدال على المرة .

﴿ ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ بالإشراك وتكذيب محمد ، أي ليدعون على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفون عليها بالظلم .

﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ العادلة ﴿ ليوم القيامة ﴾ أي لأهلها ، وقيل اللام بمعنى في ، أي في يوم القيامة ، والموازين جمع ميزان ، وهو يدل على ان هناك موازين ، ويمكن أن يراد ميزان عبر عنه بلفظ الجمع للتعظيم او باعتبار أجزائه فإن الصحيح أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال .

وقد ورد في السنة في صفة الميزان ما فيه كفاية ، وقد مضى في (الأعراف) ، وفي (الكهف) في هذا ما يغني عن الإعادة ، والقسط صفة للموازين وصف به مبالغة ، قال الزجاج : قسط مصدر يوصف به ، تقول : ميزان قسط ، وموازين قسط ؛ والمعنى ذوات قسط ، والقسط العدل وصف به

الموازين ، لأن الميزان قد يكون مستقيماً ، وقد يكون غير مستقيم ، فبين الله أن تلك الموازين تجري على حد العدل .

وقرىء القصط بالصاد والطاء ، وأما ماهية جرمه من أي الجوهر ، وأنه موجود الآن أو سيوجد فنمسك عن تعيينه ولا يكون الوزن في حق كل أحد ، لأن من لا حساب عليه لا يوزن له كالأنبياء والملائكة ، والوزن يكون للمكلفين من الجن والإنس، وقد يوزن العبد نفسه «كما ورد عن النبي (ﷺ) لَرِجْلُ عبد الله بن مسعود في الميزان أثقل من جبلِ أحد»[1] «ومن مات له ولد يجعل ذلك الولد في الميزان» [2] وكيفيته ثقلاً وخفة مثلها في الدنيا.

﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة مسيء ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل ﴾ أي إن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة ، كذا قال الزجاج .

وقال أبو علي الفارسي : وإن كان الظلامة مثقال حبة ، قال الواحدي : وهذا أحسن لتقدم قوله : فلا تظلم نفس شيئاً ، وقرىء برفع ﴿ مثقال ﴾ على أن كان تامة أي إن وقع أو إن وجد مثقال حبة ، ومثقال الشيء ميزانه أي وإن كان في غاية الخفة والقلة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثل في الصغر .

﴿ أتينا بها ﴾ أي أحضرناها وجئنا بها اي بموزونها للمجازاة عليها ، وقرىء آتينا بالمد على معنى جازينا بها يقال آتى يؤاتي مؤاتاة جازى ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ أي مُحْصِين في كل شيء ، والحسب في الأصل معناه : الْعَدّ، وقيل عالمين لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه ، وقيل مجازين على ما قدموه من خير وشر والغرض منه التحذير ، فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن

---

(١) الإمام أحمد ١/١١٤ ـ ١/٤٢١ ـ ٥/١٣١ .

(٢) البخاري كتاب الجنائز باب ٦ .

أن يشتبه عليه شيء ، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون على أشد الخوف منه .

وقد أخرج أحمد والترمذي وابن جرير في تهذيبه والبيهقي وغيرهم عن عائشة أن رجلاً قال : يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا عليك ولا لك ، وان كان عقابك أياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل » فجعل الرجل يبكي ويهتف ، فقال رسول الله (ﷺ) « أما تقرأ كتاب الله » ﴿ونضع الموازين القسط﴾ الى قوله ﴿ حاسبين ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ما أجد لي ولهم خيراً من مفارقتهم أشهدك أنهم أحرار .[1] وفي معناه أحاديث ، وروي عن الشبلي أنه رؤى في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال :

حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا
وكذا كل مالك بالمماليك يرفق

ثم شرع الله سبحانه في تفصيل ما أجمله سابقاً بقوله ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ وذكر عشر قصص ، الأولى . قصة موسى ، ثم إبراهيم ثم لوط ثم نوح ثم داود وسليمان ثم أيوب ثم إسماعيل وإدريس وذي الكفل ، ثم يونس ثم زكريا ثم مريم وابنها عيسى فقال :

﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين ﴾ المراد بالفرقان هنا التوراة قاله ابو صالح ، وعن قتادة مثله لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام والحق والباطل .

---

(١) الترمذي تفسير سورة ٢١/٢ ـ الإمام احمد ٦/٢٨٠ .

وقال ابن زيد الفرقان : الحق ، وقيل الفرقان هنا هو النصر على الأعداء كما في قوله : وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ؛ قال الثعلبي : وهذا القول اشبه بظاهر الآية ، ومعنى ضياء أنهم استضاؤوا بها في ظلمات الجهل والغواية ، ومعنى الذكر الموعظة اي أنهم يتعظون بما فيها .

وخص المتقين لأنهم ينتفعون بذلك ووصفهم بقوله ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ لأن هذه الخشية تلازم التقوى او يخشون عذابه وهو غائب عنهم أو هم غائبون عنه ، لأنهم في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ؛ وقيل يخافونه في الخلوات إذا غابوا عن أعين الناس .

﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ أي وهم من أهوال القيامة خائفون وَجِلُون،وهذا من ذكر الخاص بعد العام ، لكونها أعظم المخلوقات وللتنصيص على إنصافهم بضد ما أنصف به المستعجلون وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الاشفاق ودوامه .

﴿ وهذا ﴾ أي القرآن قاله قتادة ، والإشارة اليه بأداة القرب إيماء الى سهولة تناوله عليهم ﴿ ذكر مبارك ﴾ قال الزجاج : اي ذكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به والمبارك كثير البركة والخير ﴿أنزلناه﴾ صفة للذكر او خبر بعد خبر .

﴿ أفأنتم له منكرون ﴾؟ الاستفهام للإنكار لما وقع منهم من الإنكار أي كيف تنكرون كونه منزلاً من عند الله ؟ مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده ، أو أنكم من أهل اللسان تدركون مزايا الكلام ولطائفه ، وتفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيركم ؛ مع أن فيه شرفكم وَصِيَتكم. كما يشير اليه لفظ الذكر على ما سبق ، فلو أنكره غيركم لكان ينبغي لكم مناصبته، وتقديم الظرف على المتعلق دال على التخصيص اي أفأنتم للقرآن خاصة دون كتاب اليهود فإنهم كانوا يراجعون اليهود فيما عنّ لهم من المشكلات .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ اي الرشد اللائق به ، وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة الخالصة بالوحي ، والاقتدار على إصلاح الأمة باستعمال النواميس الإلٓهيـة ، وقال مجاهد : هديناه صغيراً .

﴿ من قبل ﴾ اي قبل إيتاء موسى وهارون التوراة ، أو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الفراء : اي أعطيناه هداه من قبل النبوة والبلوغ أي وفقناه للنظر والاستدلال لما جن عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم ، وعلى هذا أكثر المفسرين وبالأول قال اقلهم .

﴿ وكنا به عالمين ﴾ أي أنه موضع لايتاء الرشد وأنـه يصلح لذلـك ﴿ إذ ﴾ أي اذكر حين ﴿ قال لأبيه ﴾ آزر ﴿ وقومه ﴾ نمروذ ومن اتبعه ﴿ ما هذه التماثيل ﴾وهي الصور والأصنام ، قاله مجاهد ، وفيه تجاهل لهم ليحقر آلهتهم مع علمه بتعظيمهم لها .

وأصـل التمثـال : الشيء المصنـوع المشـابـه لشيء من مخلوقـات الله سبحانه ، يقال مَـثَّلْتُ الشيء بالشيء اذا جعلته مشابهاً له ، واسم ذلك الْمُمَثَّل تمثال ، وهو الصورة المصنوعة من رخام أو نحاس أو خشب شبيهة بخلق

الآدمي أو غيره من الحيوانات وأنكر عليهم عبادتها بقوله :

﴿ التي أنتم لها عاكفون ﴾ العكوف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الأغراض ، واللام في لها للاختصاص ، ولو كانت للتعدية لجيء بكلمة على أي ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها ؟وقيل: إن العكوف مضمن معنى العبادة وكانت تلك الأصنام اثنين وسبعين صنماً ، بعضها من ذهب وبعضها من فضة ، وبعضها من حديد ، وبعضها من رصاص ، وبعضها من نحاس وبعضها من حجر ، وبعضها من خشب ، وكان كبيرها من ذهب مكللاً بالجواهر في عينيه ياقوتتان متقدتان تضيآن في الليل .

﴿ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ فقلدناهم واقتدينا بهم أجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز والحبل الذي يتشبث به كل غريق ؛ وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء أي وجدنا آباءنا يعبدونها ، فعبدناها اقتداء بهم ومشياً على طريقتهم .

وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية فإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأي المدفوع بالدليل ، قالوا : هذا قد قال به إمامنا الذي وجدنا آباءنا له مقلدين وبرأيه آخذين ، قال الحفناوي : أي فلم يكن جوابهم إلا التقليد انتهى ، وجوابهم هو ما أجاب به الخليل ههنا .

﴿قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي في خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ، ولا يلتبس على ذي عقل ، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر ، وليس بعد هذا الضلال ضلال ، ولا يساوي هذا الخسران خسران ، قال النسفي : أراد أن المقلِّدين

والمُقَلَّدين منخرطون في سلك ضلال ظاهر وأكد بـ ﴿ أنتم ﴾ ليصح العطف لأن العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع . انتهى .

أقول : وهؤلاء المُقَلَّدة من أهل الاسلام استبدلوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كتباً قد دونت فيها اجتهادات عالم من علماء الإسلام زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها إما لقصور منه أو لتقصير في البحث فوجد ذلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار كأنه علم في رأسه نار ، وقال هذا كتاب الله أو هذه سنة رسوله وأنشدهم :

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمِنٌ في دينه كمُخَاطِرِ

فقالوا كما قال الأول :

وهل أنا إلا من غَزِيَّة إن غوت غَوِيت وإن ترشد غَزِيَّةُ أرشد

وقد أحسن من قال :

يأبي الفتى إلا اتباع الهوى ومنهجُ الحق له واضح

قال البيضاوي : والتقليد إن جاز فإنما يجوز لمن علم في الجملة أنه على الحق ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل .

﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ أي أجادّ أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح ؟ وليس المراد به حقيقة المجيء إذ لم يكن غائباً عنهم و﴿ أم ﴾ متصلة وإن كان بعدها جملة لأنها في حكم المفرد ، إذ التقدير اي

الأمرين واقع مجيئك بالحق ؟ أم لعبك ؟ وفي إيراد الشق الثاني بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم ثم ﴿ قال ﴾ مضرباً عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد .

﴿ بل ربكم رب السموات والأرض ﴾ وقيل هو إضراب عن كونه لاعباً ، بإقامة البرهان على ما ادعاه ، والأول أظهر ﴿ الذي فطرهن ﴾ أي خلقهن وأبدعهن والضمير للسموات أو للتماثيل وهو أدخل في تضليلهم وإقامة الحجة عليهم لأن فيه تصريحاً بأن معبوداتهم من جملة مخلوقاته .

﴿ وأنا على ذلكم ﴾ الذي ذكرته لكم من كون ربكم هو رب السموات والأرض فقط دون ما عداه كائناً ما كان ﴿ من الشاهدين ﴾ أي العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه ، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالماً به ، مبرهناً عليه مبيناً له .

﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ أخبرهم بأنه سينتقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه ، وهذه طريقة فعلية دالة على أنه على الحق ، بعد أن أتى بطريقة قولية ، فجمع بين القول والفعل ، والكيد المكر ، يقال كاده يكيده كيداً ومكيدة ، والمراد هنا الاجتهاد في كسر الأصنام . قيل :إنه عليه السلام قال ذلك سراً ، وقيل سمعه رجل منهم فأفشاه .

﴿ بعد أن تولوا مدبرين ﴾ أي بعد أن تراجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين . قال المفسرون . كان لهم عيد في كل سنة يجتمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فقال إبراهيم هذه المقالة .

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾

﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ أي تولوا فجعلهم جذاذاً ؛ أي حطاماً بفأس . قاله ابن عباس وعنه قال : فتاتاً . الجَذّ القطع والكسر ، يقال جذذت الشيء قطعته وكسرته ، الواحد جذاذة ، والجذاذ ما تكسر منه .

قال الجوهري . قال الكسائي ويقال لحجارة الذهب الجذاذ لأنها تكسر ، وقرىء جذاذاً بكسر الجيم ، أي كِسَراً وَقِطَعاً ،جمع جذيذ وهو الهشيم ، مثل خفيف وخفاف وظريف وظراف ، وقرىء بالضم كالحطام ، والرِّقاق فعال بمعنى مفعول وقرىء بفتحها . قال قطرب : هي في لغاتها كلها مصدر فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ، والقراءتان الأوليان سبعيتان ، وهذا هو الكيد الذي وعدهم به . ﴿إلا كبيراً لهم ﴾ أي عظيم آلهتهم . قاله ابن عباس ، يعني تركه ولم يكسره ، والضمير للآلهة أو عائد على عابديها ووضع الفأس في عنقه ثم خرج .

﴿ لعلهم إليه﴾ أي الى ابراهيم ﴿ يرجعون ﴾ فيحاجهم بما سيأتي فيحجهم . وقال الرازي : أما اذا قلنا إن الضمير راجع إلى الكبير ، فالمعنى لعلهم يرجعون اليه كما يرجع الى العالم في حل المشكلات فيقولون له ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحاً ؟ وما لهذا الفأس في عنقك؟ وقال ذلك بناء

على كثرة جهالاتهم واستهزاءبهم، وكان من عادتهم إذا رجعوا اليها سجدوا اليها ثم ذهبوا إلى منازلهم .

وقيل المعنى لعلهم الى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكاسر ، لأن من شأن المعبود أن يرجع اليه في المهمات ، فإذا رجعوا اليه لم يجدوا عنده خبراً ، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً ، ولا تعلم بخير ولا شر ، ولا تخبر عن الذي ينوبها من الأمر . وقيل لعلهم الى الله يرجعون ، وهو بعيد جداً ﴿ قالوا ﴾ في الكلام حذف ؛ والتقدير فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بآلهتهم من التكسير قالوا : ﴿ من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتشنيع والإنكار، وقيل ﴿ من ﴾ موصولة مبتدأ ، و﴿إنه لمن ﴾ الخ خبره ، أي فاعل هذا ظالم والأول أولى .

عن ابن مسعود قال : لما خرج قوم ابراهيم الى عيدهم مروا عليه فقالوا يا ابراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال إني سقيم ، وقد كان بالأمس قال : ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ الآية ، فسمعه ناس منهم فلما خرجوا انطلق الى أهله فأخذ طعاماً ، ثم انطلق الى آلهتهم فقربه اليهم فقال ألا تأكلون ؟ فكسرها الا كبيرهم ؛ ثم ربط في يده الذي كسر به آلهتهم ، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا ، فإذا هم بآلهتهم قد كسرت ، وإذا كبيرهم في يده الذي كسر به الأصنام ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا ؟ .

﴿ قالوا ﴾ أي قال الذين سمعوا إبراهيم يقول : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ مجيبين المستفهمين لهم ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ أي يعيبهم ويسبهم . وسمع هنا متعدية لاثنين لدخولها على ما لا يسمع ، فالأول فتى والثاني جملة يذكرهم بخلاف ما لو دخلت على ما يسمع ، كأن قلت سمعت كلام زيد فإنها تتعدى لواحد .

﴿ يقال له إبراهيم﴾ قال الزجاج : أي هو إبراهيم، فهو خبر مبتدأ

محذوف ، أو مبتدأ محذوف الخبر ؛ أي يقال له ابراهيم فاعل ذلك ، وقيل ارتفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ، أي يقال له هذا اللفظ ، ولهذا قال أبو البقاء : المراد الاسم لا المسمى . وقيل على النداء أي يا إبراهيم .

ومن غرائب التدقيقات النحوية وعجائب التوجيهات الإعرابية أن الأعلم الشنتمري الأشبيلي قال : انه مرتفع على الإهمال قال ابن عطية : ذهب إلى رفعه بغير شيء .

﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ القائلون هم السائلون ، أمروا بعضهم أن يأتي به ظاهراً بمرأى من الناس قيل إنه لما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فقالوا هذه المقالة ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به .

﴿ لعلهم يشهدون ﴾ أي يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به في مثل هذا . وقيل: لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر أصنامهم ، أو لعلهم يشهدون طعنه على أصنامهم .

﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ مستأنفة وفي الكلام حذف ، أي فجاء إبراهيم حين أتوا به ، فاستفهموه هل فعل ذلك لإقامة الحجة عليه في زعمهم ﴿ قال ﴾ ابراهيم مقيماً للحجة عليهم مبكتاً لهم ، وقال المحلي : قال ساكتاً عن فعله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ مشيراً الى الصنم الذي تركه ولم يكسره .

وقال الشهاب : هذا على طريقة الكناية الفرضية ، فهذا يستلزم نفي فعل الصنم الكبير للكسر وإثباته لنفسه ، وحاصله أنه إشارة لنفسه على الوجه الأبلغ مضمناً فيه الاستهزاء والتضليل . انتهى .

أخرج أبو داود والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم يكذب ابراهيم في شيء قط إلا في ثلاث كلهن في الله . قوله اني سقيمٌ ولم يكن سقيماً . وقوله لسارة أختي ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا »[1] وهذا الحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة بأطول من هذا ، وقد روي نحوه أبو يعلى من حديث أبي سعيد .

وقيل :أراد ابراهيم عليه السلام بنسبة الفعل الى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه ، إرشاداً لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تدفع ، لا تستحسن في العقل مع وجود خالقها وخالقهم والأول أولى ، وقرىء بل فَعَلَّه بتشديد اللام ، على معنى بل فَلَعَلَّ الفاعل كبيرهم .

﴿ فاسألوهم ﴾ عن فاعله ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ أي إن كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال له فيجيب عنه بما يطابقه ، وفيه تقديم جواب الشرط ، أراد عليه السلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله ، فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة ، لأنهم اذا قالوا إنهم لا ينطقون ، قال لهم فكيف تعبدون من يعجز عن النطق ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه ؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق ، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته . وإنما قال : ينطقون ولم يقل يسمعون أو يعقلون ، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ، لما أن نتيجة

---

(١) الترمذي تفسير ٣/٢١ - مسلم ٢٣٧١ - البخاري ١١١٣ .

السؤال الجواب ، وان عدم نطقهم أظهر في تبكيتهم .

﴿ فرجعوا الى أنفسهم ﴾ أي رجع بعضهم الى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله ، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقاولة بينهم وبين ابراهيم ، أن من لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به ما فعله ابراهيم بتلك الأصنام يستحيل أن يكون مستحقاً للعبادة ولهذا ﴿ فقالوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض .

﴿إنكم أنتم الظالمون ﴾ لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات ، وليس الظالم من نسبتم اليه الظلم بقولكم انه لمن الظالمين ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أي رجعوا الى جهلهم وعنادهم ، شبه سبحانه عودهم الى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه . وقيل المعنى أنه طأطأوا رؤوسهم خجلة من ابراهيم ، وهو ضعيف لأنه لم يقل نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف ؛ وإسناد الفعل اليهم حتى يصح هذا التفسير ، بل قال نكسوا على رؤوسهم ، وقرىء نُكِّسوا بالتشديد وأنه لغة من المخفف ، فليس التشديد لتعدية ولا تكثير .

ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ أي لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟ وما هذه حجازية أو تميمية .

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

﴿ قال ﴾ ابراهيم مبكتاً لهم ومزرياً عليهم ﴿ أفتعبدون من دون الله ﴾ أي بدله ﴿ ما لا ينفعكم شيئاً ﴾ من النفع إن عبدتموه ﴿ ولا يضركم ﴾ بنوع من أنواع الضرر إذا لم تعبدوه ، ثم تضجر عليه السلام منهم فقال :

﴿ أف ﴾ بكسر الفاء مع التنوين وتركه وفتحها بلا تنوين بمعنى مصدر ، فالقراآت ثلاث وكلها سبعية ، أي نتناً وقبحاً ﴿ لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ وفي هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم ، واللام في لكم لبيان المتأفف له ، أي لكم ولآلهتكم والتأفف صوت يدل على التضجر ﴿أفلا تعقلون ﴾ أي أليس لكم عقول تتفكرون بها فتعلمون هذا الصنع القبيح الذي صنعتموه ، أو أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة ولا تصلح لها وانما يستحقها الله تعالى .

﴿ قالوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة في دفع ابراهيم وعجزوا عن مجادلته وضاقت عليهم مسالك المناظرة .

﴿ حرّقوه ﴾ انصرافاً منهم الى طريق الظلم والغشم وميلاً منهم إلى إظهار الغلبة بأي وجه كان وعلى أي أمر اتفق ؛ وهكذا ديدن المبطل المحجوج إذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة ، وافتضح لا يبقى له مفزع إلا المناصبة .

والقائل هو النمروذ بن كنعان بن السحاريب بن نمروذ بن كوش بن حام ابن نوح . وقيل القائل رجل من أكراد فارس اسمه هينون ، خسف الله به الأرض ثم قالوا : ﴿ وانصروا آلهتكم ﴾ أي انصروها بالانتقام من هذا الذي فعل بها ما فعل وبتحريفه .

﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ للنصر ، فجمعوا له الحطب الكثير وأضرموا النار في جميعه وأوثقوا ابراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار . قاله المحلي ، وكانت مدة الجمع شهراً ومدة الإيقاد سبعة أيام ومدة مكث ابراهيم في النار سبعة أيام . وفي الرازي أربعين يوماً أو خمسين ، ومثله في أبي السعود ، وكان وقت إلقائه فيها ابن ست عشرة سنة . وقيل ست وعشرين قاله الماوردي .

﴿ قلنا ﴾ في الكلام حذف تقديره : فأضرموا النار وذهبوا بإبراهيم اليها فعند ذلك قلنا : ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً ﴾ أي ذات برد وسلام ؛ أي أبردي برداً غير ضار ، فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه للمبالغة .

قيل وانتصاب ﴿ سلاماً ﴾ على أنه مصدر أي وسلمنا سلاماً .

﴿ على إبراهيم﴾ ولو لم يقل ﴿ على إبراهيم﴾ لما أحرقت نار ولا اتقدت ، قاله أبو حيان في البحر ، عن ابن عباس قال : لما جمع لإبراهيم ما جمع ، وألقي في النار جعل خازن المطر يقول :متى أومر بالمطر؟ فأرسله فكان أمر الله أسرع ، قال الله : ﴿ كوني برداً وسلاماً ﴾ فلم تبق في الأرض نار الا طفئت .

وأخرج أحمد وابن ماجة وابن حبان وأبو يعلى وابن ابي حاتم والطبراني ، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن ابراهيم حين ألقي في النار لم تكن دابة الا تطفىء عنه النار غير الوزغ ، فإنه كان ينفخ على ابراهيم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله وهو سام أبرص»[1] ،

(١) الإمام احمد ٦/٢٨٠ ـ البخاري كتاب الأنبياء باب ٨ .

وذكر بعض الحكماء أن الوزغ لا يدخل بيتاً فيه زعفران وأنه يبيض قاله ابن لقيمة .

وعن ابن عمر قال : أول كلمة قالها ابراهيم حين ألقي في النار حسبنا الله ونعم الوكيل ، أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر ، وعن السدي قال : كان جبريل هو الذي ناداها أي النار ، وعن ابن عباس قال : لو لم يتبع بردها سلاماً ، لمات ابراهيم من بردها ، وعن عليّ نحوه .

وعن معتمر بن سليمان التيمي قال : جاء جبريل الى ابراهيم وهو يوثق ليلقى في النار ، فقال : يا ابراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما اليك فلا ، وعن كعب قال : ما أحرقت النار من ابراهيم إلا وثاقه وذهبت حرارتها وبقيت إضاءتها .

وعن المنهال بن عمرو قال : أخبرت أن ابراهيم ألقي في النار ، فكان فيها إما خمسين وإما أربعين ، فقال : ما كنت أياماً وليالي قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها .

﴿ وأرادوا به كيدا ﴾ أي مكراً وهو التحريق ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ اي أخسر من كل خاسر ورددنا مكرهم عليهم فجعلنا لهم عاقبة السوء كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير لأنهم خسروا السعي والنفقة ، فلم يحصل لهم مرادهم ، وصار سعيهم برهاناً على بطلانهم، أو الأخسرين بمعنى الهالكين بإرسال البعوض على نمروذ وقومه فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت في دماغه بعوضة فأهلكته .

﴿ ونجيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ قد تقدم أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم قاله ابن عباس أي هاران الأصغر ، وكان لهما أخ ثالث اسمه ناخور ، والثلاثة أولاد آزر ، وأما هاران الأكبر فكان عماً لإبراهيم وكانت

سارة بنت عم إبراهيم الذي هو هاران الأكبر وكانت آمنت بإبراهيم فحكى الله سبحانه ههنا أنه نجى إبراهيم ولوطاً عليهما السلام .

قال المفسرون . والأرض هي أرض الشام ؛ قاله أبيٌّ وكانا بالعراق وسماها سبحانه مباركة لكثرة خصبها وأشجارها وثمارها وأنهارها ولأنها معادن الأنبياء وأصل البركة ثبوت الخير ، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح وقيل: الأرض المباركة مكة ، وقيل: بيت المقدس لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء : وهي أيضاً كثيرة الخصب ، والأول أولى لأن إبراهيم خرج من كوثى من أرض العراق ؛ ومعه لوط ، وسارة،فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله ، ثم خرج من حران حتى قدم مصر ، ثم ورجع الى الشام ، فنزل السبع من أرض فلسطين وترك لوطاً بالمؤتفكة وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع ، فبعثه الله نبياً إلى أهلها وما قرب منها ، ذكره الخازن.

وقد تقدم تفسير للعالمين ثم قال سبحانه ممتناً على إبراهيم ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ وهي الزيادة من غير سؤال ، وكان ابراهيم قد سأل الله أن يهب له ولداً فوهب له إسحاق ، وجملة ما عاشه من السنين مائة وسبع وأربعون ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة .

وقيل المراد بالنافلة هنا العطية ، قاله الزجاج ومجاهد ، وقيل النافلة هنا ولد الولد لأنه زيادة على الولد ، وقال ابن عباس : نافلة ابن الابن ، وعن قتادة والحكم نحوه ، وقال الفراء : النافلة يعقوب خاصة لأنه ولد الولد .

﴿ وكُلًّا جعلنا صالحين ﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأربعة ابراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب لا بعضهم دون بعض جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله تاركاً لمعاصيه ، وقيل المراد بالصلاح هنا النبوة.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨)﴾

﴿وجعلناهم أئمة﴾ أي رؤساء يقتدى بهم في الخيرات والأعمال الصالحات.

﴿ يهدون ﴾ الناس ﴿ بأمرنا ﴾ أي بما أنزلنا عليهم من الوحي ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ أي أن يفعلوا الطاعة، وقيل شرائع النبوات ﴿ وإقام الصلاة ﴾ الأصل الإقامة الا أن المضاف إليه جعل بدلاً من الهاء، والمعنى المحافظة عليها.

﴿ وإيتاء الزكاة ﴾ الواجبة، وخصهما بالذكر لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية وشرعت لذكر الله، والزكاة أفضل العبادات المالية، ومجموعهما التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ﴿ وكانوا لنا ﴾ خاصة دون غيرنا من الأصنام قاله العمادي ﴿ عابدين ﴾ أي مطيعين فاعلين ما نأمرهم به تاركين، لما نهاهم عنه، وقيل موحدين.

﴿ ولوطاً آتيناه حكماً ﴾ أي نبوة ﴿ وعلماً ﴾ أي معرفة بأمر الدين أو فقهاً لائقاً به فيكون من عطف السبب على المسبب وقيل الحكم هو فصل

الخصومات بالحق ، وقيل هو الفهم ﴿ ونجيناه من القرية ﴾ هي سدوم كما تقدم ﴿ التي كانت تعمل ﴾ أي يعمل أهلها ، ففيه مجاز عقلي ﴿ الخبائث ﴾ هي اللواطة والضراط ، وحذف الحصى والرمي بالبندق واللعب بالطيور وغير ذلك كما سيأتي .

ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله ﴿وأدخلناه ﴾ بإنجائنا له من القوم المذكورين ﴿ في ﴾ أهل ﴿ رحمتنا ﴾ وقيل في النبوة ، وقيل في الإسلام ، وقيل في الثواب ، وقيل في الجنة ﴿إنه من الصالحين ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى .

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ نوحاً إذ نادى ﴾ ربه ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين وبعث وهو ابن أربعين سنة ، ومكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة . فتكون مدة عمره ألفاً وخمسين سنة كذا في التحبير ، وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمراً وأشدهم بلاء .

والمعنى دعا على قومه بقوله رب : لا تذر إلخ ، دعاء تفصيلياً ودعا دعاء آخر إجمالياً، بقوله : إني مغلوب فانتصر ، وإما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فدعا لقومه بالهداية بقوله : رب اهد قومي فإنهم لا يفهمون كما فهمنا ولذلك ورد أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلثا أهل الجنة ولهم ثلاثة أرباع الجنة ، بل تسعة أعشارها وبقية الأمم لهم العشر ، ذكره السنوسي في شرح الصغرى .

﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه ﴿فنجيناه وأهله ﴾ أي المؤمنين منهم ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أي من الغرق بالطوفان وتكذيب قومه له ، والكرب الغم الشديد ﴿ ونصرناه ﴾ نصراً مستتبعاً للانتقام ، وقيل منعناه ﴿ من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على رسالته أي من أن يصلوا اليه بسوء ؛ وقيل من بمعنى على .

ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ أي لم نترك منهم أحداً ، بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم بسبب إصرارهم على الذنب ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ داود وسليمان ﴾ أي قصتهما ﴿ إذ يحكمان ﴾ أي وقت حكمهما ، والمراد من ذكرهما ذكر خبرهما ﴿في ﴾ شأن ﴿ الحرث ﴾ قيل كان زرعاً وهو أشبه بالعرف ، وقيل كرماً وعليه أكثر المفسرين ، وبه قال ابن عباس واسم الحرث يطلق عليهما ، قال مرة : كان الحرث تبناً .

﴿ إذ نفشت ﴾ قال ابن السكيت : النَّفَش بالتحريك أن تنشر الغنم بالليل من غير راع أي تفرقت وانتشرت ، ورعت بأن انفلتت ﴿ فيه غنم القوم ﴾ أي غنم بعض القوم من أمة داوود ﴿وكنا لحكمهم ﴾ أي لحكم الحاكمين ، وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين ، وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشري والرضي وتقدمهما الى القول به الفراء ، وانما وقع الجمع موقع التثنية مجازاً أو لأن التثنية جمع وأقل الجمع اثنان وتدل عليه قراءة لحكمهما .

وقيل المراد الحاكمان والمحكوم عليه فهؤلاء جماعة وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فإن الحقيقة إضافة المصدر لفاعله ، والمجاز إضافته لمفعوله ، ومعنى ﴿ شاهدين ﴾ حاضرين ، والجملة اعتراضية .

وقد روى البيهقي في سننه عن ابن مسعود ، ولفظه قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ؛ فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : يدفع الكرم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم الى صاحب الكرم فيصيب منها حتى اذا عاد الكرم كما كان ، دفعت الكرم الى صاحبه والغنم الى صاحبها فذلك قوله .

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وعن مسروق نحوه ، وكذا عن ابن عباس لكنه لم يذكر الكرم ، وعنه بأطول منه ، والضمير المنصوب يعود الى القضية المفهومة من الكلام أو الى الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينما امرأتان معهما ابنان جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينهما فقالت الصغرى : رحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى »[1] وهذا الحديث وان لم يكن داخلاً فيما حكته الآية لكنه من جملة ما وقع لهما .

قال المفسرون : دخل رجلان على داود وعنده ابنه سليمان ، أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : ان هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في حرثي ، فلم تبق منه شيئاً، فقال : لك رقاب الغنم فقال سليمان : أو غير ذلك ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبوا من ألبانها ومنافعها ، ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى اذا كان كليلة نفشت

---

(١) مسلم ١٧٢٠ ـ البخاري ١٦١١ .

فيه دفع هؤلاء الى هؤلاء غنمهم ، ودفع هؤلاء الى هؤلاء كَرْمهم، فقال داود : القضاء ما قضيت وحكم بذلك .

قال النحاس : انما قضي داود بالغنم لصاحب الحرث ، لأن ثمنها كان قريباً منه ، وأما في حكم سليمان فقد قيل كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء ، قال جماعة من العلماء : ان داود حكم بوحي ، وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود ، فيكون التفهيم على هـذا بطريق الوحي ، وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد وكلام أهل العلم في حكم اجتهاد الأنبياء معروف وهكذا ما ذكروه في اختلاف المجتهدين ، وهل كل مجتهد مصيب ؟ أو الحق مع واحد ؟ .

وقد استدل المستدلون بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب ولا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطىء ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين وغيرهما « أن الحاكم اذا اجتهد فأصاب فله أجران وان اجتهد فأخطأ فله أجر »[1] فسماه النبي صلى الله عليه وسلم فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين ، والا لزم توقف حكمه عز وجل على اجتهادات المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله .

وأيضاً يستلزم أن تكون العين التي اختلف فيها اجتهاد المجتهدين بالحل والحرمة حلالاً وحراماً في حكم الله سبحانه ، وهذا اللازم باطل بالإجماع فالملزوم مثله ؛ وأيضاً يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد ، له اجتهاده في تلك الحادثة ، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين ، واللازم باطل فالملزوم مثله .

---

(١) مسلم ١٧١٦ ـ البخاري ٢٥٩٣ .

والحاصل أن المجتهدين لا يقدرون على إصابة الحق في كل حادثة ، لكن لا يصرون على الخطأ كما رجع داود هنا الى حكم سليمان لما ظهر له أنه الصواب . وقد أوضح الشوكاني هذه المسألة بما لا مزيد عليه في القول المفيد وأدب الطلب ، فمن أحب الوقوف على تحقيق الحق فليرجع اليهما والى المؤلف الذي سميناه حصول المأمول من علم الأصول ، والى كتابنا الجنة في الأسوة الحسن بالسنة ، ففيهما ما يغني عن غيرهما .

قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ، ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده . وقال مجاهد : كان هذا صلحاً وما فعله داود كان حكماً والصلح خير، فإن قلت فما حكم هذه الحادثة التي حكم فيها داوود وسليمان في هذه الشريعة المحمدية والملة الاسلامية ؟ .

قلت قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل ، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل مضمون على أهلها[1] ، وهذا الضمان هو مقدار الذاهب عنها أو قيمته وقد ذهب جمهور العلماء الى العمل بما تضمنه هذا الحديث . وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين الى أن هذا الحكم منسوخ وأن البهائم اذا أفسدت زرعاً في ليل أو نهار لا يلزم صاحبها شيء ، وأدخلوا فسادها في عموم قول النبي : « جرح العجماء جبار »[2] ؛ قياساً لجميع أفعالها على جرحها .

ويجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار لأنه في مقابلة النص . ومن أهل العلم من ذهب الى أنه يضمن رب الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل والنهار ويجاب عنه بحديث البراء ، وقد بسط الشوكاني رحمه الله الكلام

(١) الموطأ كتاب الأقضية ٣٦ ـ الإمام أحمد ٥/٤٣٦ .
(٢) مسلم ١٧١٠ ـ البخاري ٨٠٢ بلفظ : « العجماء وجرحها جبار » .

عليه في شرحه للمنتقى ، ومما يدل على أن هذين الحكمين من داوود وسليمان كانا بوحي من الله سبحانه لا باجتهاد ، قوله : ففهمناها سليمان .

﴿ وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾ فإن الله سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين وهما إن كانا خاصين فصدقهما على هذه القضية التي حكاها الله سبحانه عنهما مقدم على صدقهما على غيرهما ، وإن كانا عامين فهذا الفرد من الحكم والعلم ، وهو ما وقع من كل واحد منهما في هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه .

ومما يستفاد من ذلك دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم من عدم كون حكم داوود حكماً شرعياً ، أي وكل واحد منهما أعطيناه حكماً وعلماً كثيراً ، لا سليمان وحده، ولما مدح داوود وسليمان على سبيل الاشتراك ذكر ما يختص بكل واحد منهما فبدأ بداود فقال :

﴿ وسخرنا ﴾ التسخير التكليف للعمل بلا أجرة ، وسخره تسخيراً كلفه عملاً بلا أجرة ، والمراد هنا التذليل أي ذللنا ﴿ مع داود الجبال يسبحن ﴾ التسبيح إما حقيقة أو مجاز ، وقد قال بالأول جماعة وهو الظاهر ، وذلك أن داوودكان إذا سبح سبحت الجبال معه .

وقيل إنها كانت تصلي معه إذا صلى . قاله قتادة ، وهو معنى التسبيح . وقال بالمجاز جماعة آخرون ، وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجباً من عظيم خلقها وقدرة خالقها .

وقيل كانت الجبال تسير مع داوود حيث سار ، وكان من رآها سائرة معه سبح ، والظاهر وقوع التسبيح منها بالنطق ، خلق الله فيها الكلام كما سبح الحصى في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع الناس ذلك ، وكان داوود هو الذي يسمع وحده . قاله أبو حيان .

﴿ و ﴾ كذا سخرنا ﴿ الطير ﴾ للتسبيح معه ﴿ وكنا فاعلين ﴾ ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير ، وقدم الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز لأنها جماد والطير حيوان ناطق وهو جمع طائر ، وجمع الطير طيور وأطيار ، ويقع الطير على الواحد والجمع .

وقال ابن الأنباري : الطير جماعة وتأنيثها أكثر من التذكير ، ولا يقال للواحد طير بل طائر ، وقلما يقال للأنثى طائرة .

﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ اللبوس عند العرب السلاح كله ، درعاً كان أو جوشنا أو سيفاً أو رمحاً ، والمراد في الآية الدروع خاصة ، وهو بمعنى الملبوس كالركوب والحلوب ، قيل أول من صنع الدروع وسردها واتخذها حلقاً داوود عليه السلام ، وكانت من قبل صفائح ؛ قالوا إن الله ألان الحديد لداود عليه السلام بأن يعمل منه بغير نار كأنه طين ، والدرع يجمع بين الخفة والحصانة ، وهو قوله ﴿ لتحصنكم ﴾ بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الصنعة أو الى اللبوس بتأويل الدرع أي لتمنعكم ، وقرىء بالنون بإرجاع الضمير اليه سبحانه ؛ وقرىء بالياء بإرجاع الضمير الى اللبوس أو الى داوود أو الى الله سبحانه ﴿ من بأسكم ﴾ أي من حربكم مع أعدائكم ، أو من وقع السلاح فيكم .

﴿ فهل أنتم ﴾ يا أهل مكة ﴿ شاكرون ﴾ لهذه النعمة التي أنعمنا بها عليكم ، والاستفهام في معنى الأمر ، ثم ذكر سبحانه ما خص به سليمان فقال :

﴿ و ﴾ سخرنا ﴿ لسليمان الريح ﴾ عبر هنا باللام الدالة على التمليك ، وفي داوود بـ ﴿ مع ﴾ وذلك أن الجبال والطير لما اشتركا معه في التسبيح ناسب فيه ذكر ﴿ مع ﴾ الدالة على الاصطحاب ، ولما كانت الريح مستخدمة لسليمان

أتى بلام الملك لأنها في طاعته وتحت أمره ، والريح هو جسم متحرك لطيف ممتنع بلطفه من القبض عليه يظهر للحس بحركته ويخفي عن البصر بلطفه .

﴿ عاصفة ﴾ أي شديدة الهبوب وخفيفته ، يقال عصفت الريح أي اشتدت فهي ريح عاصف وعصوف ﴿ تجري بأمره ﴾ أي إن أراد أن تشتد اشتدت ، وإن أراد أن تلين لانت ، فهي جامعة للوصفين في وقت واحد ، وهذه آية أخرى غير التسخير .

﴿إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ أي تجري منتهية اليها في رواحه من سفره ، أي رجوعه منه وهي أرض الشام . عن ابن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسي ، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه ، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي أشراف الإنس، ثم يدعو الطير فتظلهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم تسير مسيرة شهر في الغداة الواحدة .

﴿ وكنا بكل شيء ﴾ وتدبيره ﴿ عالمين و ﴾ سخرنا له ﴿ من الشياطين ﴾ أي الكافرين من الجن دون المؤمنين ﴿ من يغوصون له ﴾ في البحار ويستخرجون منها ما يطلبه منهم ، والغوص النزول تحت الماء ، يقال غاص في الماء ، والغوّاص الذي يغوص في البحر على اللؤلؤ .

﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ قال الفراء : أي سوى ذلك، ودون بمعنى غير وسوى لا بمعنى أقل وأدون ، أي سوى الغوص كالبناء والنورة والطاحون والقوارير والصابون ، لأن ذلك من استخراجهم ، وقيل يراد بذلك المحاريب والتماثيل ، وغير ذلك مما يسخرهم فيه .

﴿ وكنا لهم ﴾ أي لأعمالهم ﴿ حافظين ﴾ وقال الفراء أي من أن يهربوا ويمتنعوا أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره قال الزجاج : كان يحفظهم من أن يفسدون ما عملوا ، وإن دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار .

۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ أيوبَ إذ نادى ربه ﴾ لما ابتلي بفقد ماله وولده وتمزيق جسده وهجر جميع الناس له الا زوجته ، وضيق عيشه ﴿أني﴾ أي بأني ﴿ مسني الضر ﴾ اختلف في الضر الذي كان نزل به ماذا هو ، فقيل إنه قام ليصلي فلم يقدر على النهوض . وقيل إنه أقر بالعجز فلا يكون ذلك منافياً للصبر . وقيل انقطع الوحي عنه أربعين يوماً .

وقيل :ان دودة سقطت من لحمه فأخذها وردها في موضعها فأكلت منه فصاح مسني الضر . وقيل:كانت الدود تناول بدنه فيصبر حتى تناولت دودة قلبه . وقيل:إنه ضره قول إبليس لزوجته اسجدي لي ، فخاف ذهاب ايمانها ، وقيل :إنها تقذره قومه ؛ وقيل : أراد بالضر الشماتة ، وقيل غير ذلك .

وأخرج ابن عساكر والديلمي وابن النجار عن عقبة بن عامر قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله لأيوب : « تدري ما جرمك عليّ حتى ابتليتك ؟ قال لا يا رب ، قال لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده في كلمتين » . وعن ابن عباس قال : إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه ولم يأمر بالمعروف ولم ينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله ، وفي إسناده جُوَيبر، ولما نادى ربه متضرعاً إليه وصفه بغاية الرحمة فقال :

﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ وألطف في السؤال ولم يصرح بالمطلوب فكأنه

قال أنت أهل أن ترحم وأيوب أهل أن يرحم فارحمه واكشف عنه الضر . قيل وإنما شكا إليه تلذذاً بالنجوى منه لا تضرراً بالشكوى ، والشكاية إليه غاية القرب ، كما أن الشكاية منه غاية البعد ، فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه فقال : ﴿ فاستجبنا له ﴾ نداءه الذي في ضمنه الدعاء ﴿ فكشفنا ما به من ضر ﴾ أي شفاه الله مما كان به وأعاده بما ذهب عليه . وقال له اركض برجلك فركض فنبعت عين ماء ، فأمره أن يغتسل منها ، ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ، ثم مشى أربعين خطوة ، فأمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد ، فأمره أن يشرب منها ، فشرب فذهب كل داء كان بباطنه ، فصار كأصح ما كان .

عن عبدالله بن عبد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان جاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقام من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان علم الله من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط مثله ، فقال : اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعاناً وأنا أعلم مكان جائع فصدقني ، فصدق من السماء وهما يسمعان .

ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أني لم ألبس قميصاً قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ، ثم خر ساجداً وقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسي حتى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه ، وقد رواه ابن أبي حاتم مرفوعاً بنحو هذا .

﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قيل تركهم الله عز وجل وأعطاه مثلهم في الدنيا . قال النحاس : والإسناد بذلك صحيح ، وقد كان مات أهله جميعاً إلا امرأته فأحياهم الله في أقل من طرف البصر وآتاه مثلهم معهم ، وهو ظاهر القرآن ، وبه قال أكثر المفسرين ، وكان له سبعة بنين وسبع بنات . وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله ؛ فيكون معنى الآية على هذا آتيناه مثل أهله ومثلهم معهم . وعن مجاهد قال : قيل له يا أيوب إن

أهلك لك في الجنة فإن شئت أتيناك بهم وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم ، قال له بل اتركهم لي في الجنة ، قال فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا ، وقال ابن مسعود : أوتي أهله بأعيانهم ومثلهم معهم .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن ابي حاتم والروياني وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه ، كانا من أخص إخوانه ، كانا يغدوان اليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد ، قال وما ذاك ؟ قال منذ ثماني عشرة سنة ولم يرحمه الله فيكشف عنه ما به .

فلما راحا الى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك ، فقال أيوب لا أدري ما نقول غير أن الله يعلم أني أمر بالرجلين يتنازعان يذكر ان الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهة أن يذكر الله إلا في حق »[1] وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيديه حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله الى أيوب في مكانه أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، فاستبطأته فتلقته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ، رأيت نبي الله المبتلى ؟ والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً ، قال فإني أنا هو .

قال وكان له اندران ، أندر للقمح واندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح افرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض .

---

(١) المستدرك كتاب التاريخ ٢/٥٨١ .

وأندر هو البيدر بلغة أهل الشام والجمع الأنادر ؛ والبيدر موضع يداس فيه الطعام ، وأندر اسم جنس فيكون مصروفاً ﴿ رحمة من عندنا ﴾ أي آتيناه ذلك لرحمتنا له ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أي وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كثوابه ، واختلف في مدة إقامته على البلاء ، فقيل سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال ؛ وقيل ثلاثين سنة ، وقيل ثماني عشرة سنة .

قال الكرخي : وهذا القول هو الصحيح ، وعاش أيوب ثلاثاً وستين سنة وكان أيوب رجلاً من الروم ، ينتسب للعيص بن إسحاق ، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران .

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إسماعيل ﴾ الصابر على الانقياد للذبح وعاش مائة وثلاثين سنة ﴿ وإدريس ﴾ هو أخنوخ جد نوح ولد في حياة آدم قبل موته بمائة سنة ، وبعث بعد موته بمائتي سنة ، وعاش بعد نبوته مائة وخمسين سنة ، فتكون جملة عمره أربعمائة وخمسين سنة ، وكان بينه وبين نوح ألف سنة .

﴿ وذا الكفل ﴾ هو إلياس، وقيل يوشع بن نون ، وقيل زكريا ، والصحيح أنه رجل من بني إسرائيل كان لا يتورع عن شيء من المعاصي فتاب فغفر الله له وقيل إن اليسع لما كبر قال : من يتكفل لي بكذا وكذا من خصال الخير حتى استخلفه فقال رجل : أنا فاستخلفه ، وسمي ذا الكفل ، وقيل كان رجلاً يتكفل بشأن كل إنسان إذا وقع في شيء من المهمات .

وقيل هو ولد أيوب واسمه بشر بعثه الله بعد أبيه ، وسماه ذا الكفل وأمره بالتوحيد ، وكان مقيماً بالشام حتى مات وعمره خمس وسبعون سنة ، وعن مجاهد قال : رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ففعل ذلك فسمي ذا الكفل .

وعن ابن عباس قال : كان في بني إسرائيل قاض فحضره الموت ، فقال : من يقوم مقامي على أن لا يغضب ، فقال رجل أنا ، فسمي ذا الكفل ، فكان ليله جميعاً يصلي ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس وذكر قصة .

وعن أبي موسى الأشعري قال : ما كان ذو الكفل نبياً ولكن كان في بني إسرائيل رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتوفي فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة ، فسمي ذا الكفل .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن حبان والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان ذو الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت فقال ما يبكيك أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط ، وما حملني عليه إلا الحاجة فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته اذهبي فهي لك ، وقال والله لا أعصي الله بعدها أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوب على بابه « ان الله قد غفر لذي الكفل »[1] .

وقد ذهب الجمهور الى أنه ليس بنبي ، وبه قال أبو موسى الأشعري ومجاهد وغيرهما ، وقال جماعة : هو نبي ولعله هو الصحيح ، وبه قال الحسن لأن الله قرن ذكره بإسماعيل وإدريس ؛ ولأن السورة ملقبة بسورة الأنبياء ؛ ثم وصف الله سبحانه هؤلاء بالصبر فقال :

﴿ كل من الصابرين ﴾ على القيام بما كلفهم الله به ﴿ وأدخلناهم في رحمتنا ﴾ أي في الجنة أو في النبوة أو في الخير على عمومه ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿إنهم من الصالحين ﴾ أي الكاملين في الصلاح .

---

(١) الترمذي، كتاب القيامة باب ٤٨ ـ الإمام أحمد ٢ /٢٣ .

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾

﴿و﴾ اذكر ﴿ذا النون﴾ هو يونس بن متى على وزن شتى اسم لوالده على ما ذكره صاحب القاموس ، أو اسم لأمه على ما قاله ابن الأثير وغيره .

وقال الشهاب : ومتى اسم أبيه على الصحيح ، وسمي ذا النون لابتلاع الحوت له ، فإن النون اسم للحوت وجمعه أنوان ونينان ، والحوت السمكة ، وجمعه حيتان ، وقيل سمي به لأنه رأى صبياً مليحاً ، فقال : دسموا نونته لئلا تصيبه العين وعن ابن الأعرابي أن نونة الصبي هي الثقبة التي تكون في ذقن الصبي الصغير ومعنى دسموا سودوا .

﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ أي اذكره وقت ذهابه مغاضباً أي مراغماً لقومه لا لربه ، وقال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير : مغاضباً لربه ، واختاره ابن جرير والقتيبي ، وحكى عن ابن مسعود ، قال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة ، وهو قول صحيح ، والمعنى مغاضباً لأجل ربه ، كما تقول : غضبت لك أي من أجلك ، وقال الضحاك ، مغاضباً لقومه ، وحكى عن ابن عباس .

وقالت فرقة منهم الأخفش إنما خرج مغاضباً للملك الذي كان في وقته واسمه حزقيا ، وقيل لم يغاضب ربه ولا قومه ولا الملك ، ولكنه مأخوذ من

غضب إذا أنف ، وذلك أنه لما وعد قومه بالعذاب وكانوا يسكنون فلسطين وخرج عنهم ، تابوا وكشف الله عنهم العذاب ، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك وخرج عنهم .

﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ بفتح النون وكسر الدال ؛ واختلف في معنى الآية على هذه القراءة ، فقيل : معناها أنه وقع في ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته ، وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير ، وهو قول مردود ؛ فإن هذا الظن بالله كفر ؛ ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم السلام .

وذهب جمهور العلماء إلى أن معناها فظن أن لن نضيق عليه كقوله : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يضيق ، ومنه قوله : ﴿ومن قدر عليه رزقه ﴾ ، يقال يقدر وقدر وقتر وقتر أي ضيق ، وقيل هو من القدر الذي هو القضاء والحكم دون القدرة والاستطاعة أي فظن أن لن نقضي عليه العقوبة ، قاله قتادة ومجاهد ، واختاره الفراء والزجاج .

قال ثعلب : هو من القدير ليس من القدرة يقال منه قدر الله لك الخير يقدره قدراً ؛ ويؤيده قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري ، نُقَدِّر بضم النون وتشديد الدال من التقدير ، وحكى هذا عن ابن عباس ، ويؤيده قراءة قتادة والأعرج يُقَدّرَ مبنياً للمفعول من التقدير ، وقرىء يُقَدّرَ مخففاً مبنياً للمفعول .

وقد اختلف العلماء في تأويل الحديث الصحيح في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قط لأهله أن يحرقوه إذا مات ؛ ثم قال فوالله لئن قدر الله عليّ ، الحديث[1] كما اختلفوا في تأويل هذه الآية والكلام في هذا يطول ، وقد ذكرنا ههنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره .

---

(١) مسلم ٢٧٥٦ ـ البخاري ١٦٣٥ .

﴿ فنادى في الظلمات ﴾ الفاء فصيحة أي كان ما كان من التقام الحوت له فنادى ، والمراد بالظلمات ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ، قاله ابن مسعود .

وكان نداؤه هو قوله : ﴿ أن ﴾ أي بأن ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك ﴾ يعني تنزيهاً من أن يعجزك شيء ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ الذين يظلمون أنفسهم ، وأول هذا الدعاء تهليل وأوسطه تسبيح وآخره إقرار بالذنب .

وقال الحسن وقتادة : هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته قال ذلك وهو في بطن الحوت ، قيل مكث فيه أربعين يوماً وليلة ، وقيل سبعة وقيل ثلاثة كما في الخازن ، وفي البيضاوي أربع ساعات .

ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له فقال : ﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه الذي دعانا به في ضمن اعترافه بالذنب على ألطف وجه ﴿ ونجيناه من الغم ﴾ أي غم الذلة والوحشة والوحدة بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أي نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم ، وما أعددناه لهم من الرحمة إذا دعونا واستغاثوا بنا وهذا هو معنى الآية الأخرى وهي قوله : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ قرىء نجي بنونين وبواحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الفعل الماضي ، وإضمار المصدر أي وكذلك نجى النجاة المؤمنين ؛ كما تقول ضرب زيداً ، أي ضرب الضرب زيداً ، قاله الفراء وأبو عبيد وثعلب .

وخطأها أبو حاتم والزجاج ، وقالا : هي لحن لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله ، وانما يقال نجى المؤمنون ، وقيل أدغم النون في الجيم وبه قال القتبي وأبو عبيدة واعترضه النحاس ، فقال : هذا لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج المدغم والمدغم فيه .

قيل كانت هذه الواقعة قبل الرسالة وصححه الخازن ويدل له قوله تعالى بعد ذكر خروجه من بطن الحوت ، في سورة الصافات ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي ، عن سعد ابن أبي وقاص قال : سمعت رسول الله (ﷺ) قال : « دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت لا إله إلا أنت الخ لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له »[1] .

وأخرج ابن جرير عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطي دعوة يونس بن متى ، قلت : يا رسول الله هل ليونس خاصة ؟ أم لجماعة المسلمين قال : هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا به ، ألم تسمع قول الله ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه » .

وأخرج الحاكم من حديثه أيضاً نحوه ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى »[1] وروي أيضاً في الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود ، وروي أيضاً في الصحيحين من حديث أبي هريرة .

﴿ و ﴾ اذكر خبر ﴿ زكريا إذ نادى ربه ﴾ أي وقت ندائه لربه قال : ﴿ رب لا تذرني فرداً ﴾ أي منفرداً وحيداً لا ولد لي يرثني ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ أي خير من يبقى بعد

---

(١) المستدرك كتاب الدعاء ١/٥٠٥ .

(١) مسلم ٢٣٧٦ ـ البخاري ١٦٠٨ .

كل من يموت فأنت حسبي إن لم ترزقني ولداً فـإني أعلم أنك لا تضيع دينك وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ .

﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه ﴿ ووهبنا له يحيى ﴾ ولداً ، وقد تقدم تفسيره مستوفى في سورة مريم ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال أكثر المفسرين : إنها كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً ، فهذا هو المراد بإصلاح زوجه ، وقيل كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق ، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعاً ، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها فتكون ولوداً بعد أن كانت عاقراً ، ويصلح أخلاقها فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية .

قال ابن عباس : كان في لسان امرأة زكريا طول فأصلحه الله ، وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين ، وقال ايضاً : وهبنا له ولدها ، وعن قتادة قال : كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً ووهب له منها يحيى .

﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم السلام ، والمعنى يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير وهو السر في إيثار كلمة في على كلمة الى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجيهن اليها كما في قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وقيل الضمير راجع الى زكريا وامرأته ويحيى ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ أي يتضرعون إلينا في حال الرخاء وحال الشدة . وقيل الرغبة رفع بطون الأكف إلى السماء والرهبة رفع ظهورها ، والتقدير يرغبون رغباً ويرهبون رهباً ، أو للرغب والـرهب ، أو راغبين وراهبين ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ أي متواضعين متضرعين . قال قتادة : أذلاء، وقال ابن جريج : رغباً في رحمة الله ورهباً من عذاب الله .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله رغباً ورهباً ، فقال : رغباً هكذا ورهباً هكذا ، وبسط كفيه يعني جعل ظهرهما للأرض في الرغبة وعكسه في الرهبة » .

وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾

﴿ و ﴾ اذكر خبر ﴿ التي أحصنت فرجها ﴾ وهي مريم فإنها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسسها بشر ؛ وإنما ذكرها مع الأنبياء وإن لم تكن منهم لأجل ذكر عيسى ، وما في ذكر قصتها من الآية الباهرة ، ومعنى أحصنت عفت فامتنعت من الفاحشة وغيرها .

وقيل المراد بالفرج جيب القميص ، أي أنها طاهرة الأثواب ، وقد مضى بيان مثل هذا في سورة النساء ومريم .

﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ أضاف سبحانه الروح إليه وهو للملك تشريفاً وتعظيماً ، وهو يريد روح عيسى . وقيل المراد بالروح جبريل ؛ أي أمرناه فنفخ في جيب درعها فحملت بعيسى .

﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ قال الزجاج : الآية فيهما واحدة لأنها ولدته من غير فحل . وقيل إن التقدير على مذهب سيبويه وجعلناها آية وجعلنا ابنها آية ، كقوله تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ والمعنى أن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما، وقيل أراد

بالآية الجنس الشامل لكل واحد منها من الآيات . ثم لما ذكر سبحانه الأنبياء بين أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد فقال :

﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ الأمة الملة وهي الدين كما قال ابن قتيبة ، ومنه ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ أي على دين وملة ؛ كأنه قال إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة في التوحيد ، ولا يخرج عن ذلك الا الكفرة المشركون بالله . وقيل المعنى إن هذه الشريعة التي بينتها لكم في كتابكم شريعة واحدة ، وقيل المعنى إن هذه ملتكم ملة واحدة وهي ملة الإسلام. والنصب على الحال ، أي أمة متفقة غير مختلفة قال ابن عباس أي أن هذا دينكم ديناً واحداً ، وعن مجاهد مثله وعن قتادة نحوه .

﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ خاصة لا تعبدوا غيري كائناً ما كان .

﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أي تفرقوا فرقاً في الدين حتى صاروا كالقطع المتفرقة . وقال الأخفش : اختلفوا فيه ، وهو القول الأول . قال الأزهري : أي تفرقوا في أمرهم ، فنصب أمرهم بحذف في والمقصود بالآية المشركون ، ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله . وقيل المراد جميع الخلق وأنهم جعلوا أمرهم في أديانهم قطعاً وقسموه بينهم ، فهذا موحد وهذا يهودي ، وهذا نصراني وهذا مجوسي وهذا عابد وثن ، ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع اليه فقال :

﴿ كل إلينا راجعون ﴾ أي كل واحد من هذه الفرق الثابت على دينه الحق ، والزائغ عنه الى غيره راجع الينا بالبعث لا إلى غيرنا ﴿ فمن يعمل من الصالحات ﴾ أي بعض الأعمال الصالحة كالفرائض والنوافل لا كلها ، إذ لا يطيق ذلك أحد وقيل ﴿ من ﴾ زائدة ﴿ وهو مؤمن ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ أي لا جحود لعمله ولا بطلان لثوابه ولا تضييع لجزائه ؛ بل يشكرويثاب عليه .

والمراد نفي الجنس للمبالغة لأن نفي الماهية يستلزم نفي جميع أفرادها ،

والكفر ضد الإيمان، والكفر أيضاً جحود النعمة وهو ضد الشكر ، يقال كفر كفوراً ، وكفراناً . وفي قراءة ابن مسعود فلا كفر لسعيه ﴿وإنا له﴾ أي لسعيه ﴿ كاتبون ﴾ أي حافظون ، بأن نأمر الحفظة بكتبه فنجازيه عليه ، ومثله قوله سبحانه ﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ .

﴿ وحرام ﴾ هكذا قرأ أهل المدينة ، وقرأ أهل الكوفة وحِرْم ، وبها قرأ عليّ وابن مسعود وابن عباس وهما لغتان مثل حل وحلال ، وقرىء وحرم ﴿ على قرية أهلكناها﴾ أي قدرنا إهلاكها ﴿أنهم لا يرجعون ﴾ اي ممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء . وقيل ﴿ لا ﴾ زائدة ، أي أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا ، واختاره ابو عبيدة . وقيل إن لفظ حرام هنا بمعنى الواجب ؛ أي واجب على قرية . وقيل حرام أي ممتنع رجوعهم إلى التوبة ، على أن ﴿ لا ﴾ زائدة .

قال النحاس : والآية مشكلة . ومن أحسن ما قيل فيها وأجله ما روي عن ابن عباس في معنى الآية قال : واجب أنهم لا يتوبون . قال الزجاج وأبو علي الفارسي : إن في الكلام إضماراً، أي وحرام على قرية حكمنا باستئصالها أو بالختم على قلوب أهلها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون .

﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ حتى هذه هي التي يحكى بعدها الكلام وقيل حتى للغاية ، والمعنى أن هؤلاء المذكورين سابقاً مستمرون على ما هم عليه الى يوم القيامة ، وهي فتح سد يأجوج ومأجوج ، وأطال سليمان الجمل في بيان ﴿ حتى ﴾ هذه وذكر لها وجوهاً ، ويأجوج ومأجوج بالهمز وتركه اسمان أعجميان وهما قبيلتان من الإنس، يقال إنهما تسعة أعشار بني آدم ، والمراد بالفتح فتح السد الذي عليهم على حذف المضاف .

﴿ وهم ﴾ أي يأجوج ومأجوج أو العالم بأسره والأول أظهر ﴿ من كل حدب ﴾ أي نشز ، وهو كل أكمة وكدية من الأرض مرتفعة ، والجمع أحداب

مأخوذ من حدبة الأرض ، ومعنى ﴿ ينسلون ﴾ يسرعون وقيل يخرجون . قال الزجاج : النسلان مشية الذئب اذا أسرع ، يقال نسل فلان في العَدْوِ ينسِلُ بالكسر والضم نسلاً ونسولاً ونسلاناً ، والنسلان مقارنة الخطأ مع الإسراع. وقال ابن عباس : ينسلون يقبلون ، وقد ورد في صفة يأجوج ومأجوج وفي وقت خروجهم وبيان حالهم ومآلهم أحاديث وآثار كثيرة لا يتعلق بذكرها هنا كثير فائدة ، وكتابنا حجج الكرامة قد اشتمل عليها اشتمالاً تاماً فليرجع اليه .

﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ المراد به ما بعد الفتح من الحساب ، وقال الفراء والكسائي وغيرهما : المراد بالوعد الحق القيامة ، والواو زائدة ، والمعنى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق وهو القيامة ، فاقترب جواب اذا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه ﴾ . وأجاز الفراء أن يكون جوابه فإذا هي شاخصة ، وقال البصريون : الجواب محذوف والتقدير قالوا يا ويلنا وبه قال الزجاج ، وقيل غير ذلك .

﴿ فإذا هي ﴾ يعني القيامة ، بارزة واقعة كأنها آية حاضرة ﴿ شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ يعني أن القيامة اذا قامت شخصت أبصار الكفار من شدة الأهوال ولا تكاد تطرف من هول ذلك اليوم وهول ما هم فيه . ومعنى شاخصة مرتفة الأجفان ، وانما هو في القيامة بعد النفخة الثانية ، فالتعقيب عرفي أريد به المبالغة هنا .

﴿ يا ويلنا ﴾ على تقدير القول ﴿ قد كنا في غفلة ﴾ في الدنيا ﴿ من هذا ﴾ أي من هذا الذي دهمنا من البعث والحساب ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة ، أي لم نكن غافلين ، بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الانقياد للرسل ، ثم بين سبحانه حال معبوديهم يوم القيامة فقال :

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

﴿إنكم﴾ يا أهل مكة ﴿وما تعبدون من دون الله﴾ من الأصنام والشمس والقمر وإبليس وأعوانه ﴿حصب﴾ أي وقود ﴿جهنم﴾ وحطبها ، فكل ما أوقدت به النار أو هيجتها به فهو حصب ، كذا قال الجوهري ، وقال أبو عبيدة ؛ كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾ وقرىء حطب جهنم بالطاء وقرىء حضب بالمعجمة . قال الفراء : ذكر لنا أن الحضب في لغة أهل اليمن الحطب ، ووجه إلقاء الأصنام في النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحس به التبكيت لمن عبدها وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم، وقيل إنها تحمى فتلصق بهم زيادة في تعذيبهم ، وكذلك الشمس والقمر يكونان ثورين عقيرين في النار أيضاً ، كما صح بذلك خبر أبي هريرة ، أخرجه البيهقي وأصله في البخاري .

﴿أنتم لها واردون﴾ الخطاب لهم ولما يعبدون تغليباً ، واللام في لها للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل . وقيل هي بمعنى على ، والمراد بالورود هنا الدخول . قال كثير من أهل العلم : ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة ؛ لأن ﴿ما﴾ لما لا يعقل ، ولو أراد العموم لقال ومن تعبدون .

قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم . قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : « فالملائكة وعيسى وعزير

يُعبدون من دون الله » فنزلت ﴿ إن الذين سبقت ﴾ الآية . وفي الباب روايات ﴿ لو كان هؤلاء ﴾ أي هذه الأصنام ﴿ آلهة ﴾ كما تزعمون ﴿ ما وردوها ﴾ أي ما ورد العابدون والمعبودون في النار ، وقيل العابدون فقط ، لكنهم وردوها فلم يكونوا آلهة ، وفي هذا تبكيت لعباد الأصنام وتوبيخ شديد ﴿ وكلٌّ فيها ﴾ أي كل العابدين والمعبودين في النار ﴿ خالدين ﴾ لا يخرجون منها .

﴿ لهم ﴾ أي لهؤلاء الذين وردوا النار ﴿ فيها زفير ﴾ وهو صوت نفس المغموم ، والمراد هنا الأنين والبكاء والتنفس الشديد والعويل . وقد تقدم بيان هذا في هود ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ أي لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول . وقال ابن مسعود في الآية : إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار ، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أُخر، ثم تلك التوابيت في توابيت أُخر عليها مسامير من نار ، فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذب غيره .

وقيل لا يسمعون شيئاً لأنهم يحشرون صماً ، كما قال سبحانه : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾ وإنما سلبوا السماع لأن فيه بعض تروّح وتأنس . وقيل لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون ما يسوءهم ، ثم لما بين سبحانه حال هؤلاء الأشقياء شرع في بيان حال السعداء فقال :

﴿ إن ﴾ هي بمعنى إلا ، أي إلا ﴿ الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ أي العدة الجميلة والخصلة الحسنى التي هي أحسن الخصال وهي السعادة . وقيل التوفيق أو التبشير بالجنة أو نفس الجنة ﴿ أولئك ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفة ﴿ عنها ﴾ عن جهنم ﴿ مبعدون ﴾ لأنهم قد صاروا في الجنة . وقال الجنيد : المعنى سبقت منا العناية في البداية فظهرت لهم الولاية في النهاية .

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ الحس والحسيس الصوت تسمعه من شيء يمر قريباً منك . والمعنى لا يسمعون حركة النار وصوتها وحركة تلهبها .

أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حيات على الصراط تقول حس حس » .

وعن ابن عثمان النهدي قال : حيات على الصراط تلسعهم فإذا لسعتهم قالوا : حس حس ، وقال ابن عباس : لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة .

﴿ وهم فيما اشتهت أنفسهم ﴾ من النعيم والكرامة ﴿ خالدون ﴾ أي دائمون مقيمون، والشهوة طلب النفس اللذة ، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين كما قال تعالى :﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون﴾﴿ لا يحزنهم ﴾ بفتح الياء وضم الزاي ، وقرىء بضم الياء وكسر الزاي .

قال اليزيدي : حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم ، بيان لنجاتهم من الفزع بالكلية إثر بيان نجاتهم من النار لأنهم إذا لم يحزنهم ﴿ الفزع الأكبر ﴾ وهو أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب ، والأمر بالعبد الى النار ، لا يحزنهم ما عداه بالضرورة .

وقال ابن عباس : هو النفخة الآخرة ، وقيل هو حين يذبح الموت وينادي يا أهل النار خلود ولا موت ، وقيل هو حين يطبق على جهنم ، وذلك بعد أن يخرج الله منها من يريد أن يخرجه ، ثم تغلق النار على أهلها .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنة عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة على كثبان المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة ؛ رجل أمَّ قوماً وهم له راضون ، ورجل كان يؤذن في كل يوم وليلة وعبد أدى حق الله وحق مواليه »[1] .

﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ أي تستقبلهم على أبواب الجنة يهنونهم ، وقال المحلي : عند خروجهم من القبور ، ولا مانع أنها تستقبلهم في الحالين ، ويقولون لهم ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ به في الدنيا وتبشرون بما فيه ، هكذا قال جماعة من المفسرين : أن المراد بقوله : ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ الى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح لا المسيح وعزير والملائكة ، لأن علياً قرأ هذه الآية ، ثم قال : أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف .

وقال أكثر المفسرين : إنه لما نزل ﴿إنكم وما تعبدون﴾ الآية أتى ابن الزبعري[2] الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ألست تزعم أن عزيراً رجل صالح وأن عيسى رجل صالح ، وأن مريم امرأة صالحة ؟ قال : بلى ، قال : فإن الملائكة وعيسى وعزيرا ومريم يعبدون من دون الله ، فهؤلاء في النار ، فأنزل الله هذه الآية الى آخرها أخرجه ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس وأخرجه أبو داود والطبراني من وجه آخر بأطول منه .

---

(١) الترمذي كتاب البر باب ٥٤ ـ كتاب الجنة باب ٢٥ ـ الإمام أحمد ٢/٢٦ .

(٢) الزبعرى معناه السيء الخلق الغليظ وهو لقب والد عبد الله القرشي ولقد أسلم بعد هذه القصة إ هـ منه .

﴿ يوم نطوي ﴾ بنون العظمة اي اذكر يوم نطوي ﴿ السماء كطي السجل للكتب ﴾ وقرىء تطوى بالفوقية ورفع السماء ، وبالتحتية على معنى يطوي الله السماء ، والأولى أظهر وأوضح والطي في هذه الآية يحتمل معنيين :

أحدهما الذي هو ضد النشر ، ومنه قوله : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ .

والثاني الإخفاء والتعمية والمحو ، لأن الله سبحانه يمحو ويطمس رسومها ، ويكدر نجومها ، والمراد بالسماء الجنس والسجل الصحيفة أي طياً كطي الطومار للكتابة ، وقيل السجل الصك وهو مشتق من المساجلة وهي المكاتبة وأصلها من السجل وهو الدلو ، يقال ساجلت الرجل ، اذا نزعت دلواً ونزع هو دلواً ؛ ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام ، وقرىء السُّجُلّ بضم السين والجيم وتشديد اللام ، وقرىء السَّجْل بفتح السين واسكان الجيم ، وقيل السجل اسم ملك في السماء الثالثة ، وهو الذي يطوي كتب بني آدم .

وقيل هو اسم كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس أخرجه أبو داود والنسائي ، وعن ابن عمر مثله ، قال ابن كثير : هذا منكر جداً ، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ، وان كان في سنن أبي داود منهم الحافظ المزي وقد أفرد الشوكاني لهذا الحديث جزءاً على حدة ، وقد تصدى الإمام ابن جرير للإنكار على هذا الحديث ورده أتم رد ، وقال : ولا نعرف في الصحابة أحداً اسمه سجل ، وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا معروفين ، وليس فيهم أحد اسمه السجل انتهى ، وصدق رحمه الله في ذلك ، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث ، وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم ، قال : والصحيح عن ابن عباس أن السجل هو الصحيفة ، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير

واحد ، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة ، قلت فالأولى التعويل على المعنى اللغوي ؛ والمصير اليه .

وأخرج النسائي عن ابن عباس قال : السجل هو الرجل أي بلغة الحبشة ، والأول أولى ، وقرىء للكتب جمعاً ؛ وللكتاب وهو متعلق بمحذوف حال من السجل أي كطي السجل كائناً للكتب فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض أجزائها وبه يتعلق الطي حقيقة .

وأما على الثانية فالكتاب مصدر ، واللام للتعليل ، أي كما يطوى الطومار للكتابة أي ليكتب فيه أو لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة والأعمال المنتشرة وهذا على أن معنى الطي ضد النشر .

وعن علي قال : كطي السجل ملك ، وعن عطية وأبي جعفر مثله ، قال ابن عمر : السجل ملك ، فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبوها نوراً .

﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ بعد إعدامه تشبيهاً للإعادة بالابتداء في تناول القدرة لهما على السواء أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم ، وأخرجناهم الى الأرض حفاة عراة غرلاً ، كذلك نعيدهم يوم القيامة ، وإنما خص أول الخلق بالذكر تصويراً للايجاد عن العدم ، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ لشمول الإمكان الذاتي لهما ، وقيل معنى الآية نهلك كل نفس كما كان أول مرة ، قاله ابن عباس ، وقيل المعنى نغير السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها ، والأول أولى ؛ وهو مثل قوله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ ثم قال سبحانه .

﴿ وعداً علينا ﴾ أي وعدنا وعداً علينا إنجازه والوفاء به وهو البعث والإعادة ثم أكد سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ أي محققين هذا الوعد فاستعدوا له وقدموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال ، قال الزجاج : معناه إنا كنا قادرين على ما نشاءه ، وقيل فاعلين ما وعدناكم ، ومثله قوله : ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ .

﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾ هو في الأصل الكتاب ، يقال زبرت أي كتبت وعلى هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة والإنجيل ، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور ، والمراد جنس الكتب المنزلة ، قاله الزجاج .

وقيل المراد به هنا كتاب داود خاصة ﴿ من بعد الذكر ﴾ أي اللوح المحفوظ كما في البيضاوي والخازن وأبي السعود وأبي حيان .

وقيل هو القرآن قاله ابن عباس ، وعنه قال : والذكر الأصل الذي نسخت منه هذه الكتب الذي في السماء أي والله لقد كتبنا في كتاب داوود من بعد كتبنا في كتاب داوود من بعد كتبنا في التوراة أو من بعد كتبنا في اللوح المحفوظ .

﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ قد اختلف في معنى هذه الآية فقيل المراد أرض الجنة ، قاله ابن عباس ، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه : ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ﴾ ، وقيل هي الأرض المقدسة ، وقيل هي أرض الأمم الكثيرة الكافرة ، يرثها نبينا صلى الله عليه وسلم وأمته بفتحها ، وقيل المراد بذلك بنو إسرائيل بدليل قوله سبحانه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ .

والظاهر أن هذا تبشير لأمته صلى الله عليه وسلم بوراثة أرض الكافرين ، وعليه أكثر المفسرين .

قال ابن عباس : أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون ، وقيل عام في كل صالح فيتناول أمة محمد صلى الله عليه وسلم وغيرها من الأمم .

إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

﴿ إن في هذا لبلاغاً ﴾ أي فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبيه لكفاية ووصول الى البغية ، قاله الرازي ، يقال : في هذا الشيء بلاغ ، وبلغة وتبلغ أي كفاية ، وقيل الإشارة بهذا إلى القرآن ، والقرآن زاد الجنة ، كبلاغ المسافر .

﴿ لقوم عابدين ﴾ أي مشغولين بعبادة الله مهتمين بها ، والعبادة هي الخضوع والتذلل ، وهم أمة محمد (ﷺ) ورأس العبادة الصلاة قال أبو هريرة : الصلوات الخمس ، وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والديلمي ، عن أنس قال : قال رسول الله (ﷺ) في الآية قال : «ان في الصلوات الخمس شغلاً للعبادة » .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : « هي الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة » ، وقيل هم العالمون العاملون الموحدون ، وقال الرازي : والأولى أنهم الجامعون بين الأمرين ، لأن العلم كالشجرة ، والعمل كالثمرة ، والشجر بدون الثمر غير مفيد ، والثمر بدون الشجر غير كائن .

﴿ وما أرسلناك ﴾ يا محمد بالشرائع والأحكام ﴿ إلا رحمة للعالمين ﴾ أي

الإنس والجن ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ؛ والعلل أي : ما أرسلناك لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ، وقيل معنى كونه رحمة للكفار أنهم آمنوا به من الخسف والمسخ والاستئصال ، وقيل المراد بالعالمين المؤمنون خاصة ، والأول أولى ، بدليل قوله سبحانه : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم .

وعن ابن عباس في الآية قال : من آمن تمت به الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من المسخ ، والخسف والقذف .

وأخرج مسلم عن ابي هريرة قال : قيل يا رسول الله ادع الله على المشركين ، قال : « اني لم ابعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة »[1] واخرج أحمد والطيالسي والطبراني وأبو نعيم ، عن أبي امامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين »[2] .

وأخرج أحمد والطبراني عن سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أيما رجل من أمتي سببته سبة في غضبي أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من بني آدم أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثني رحمة للعالمين ، فأجعلها عليه صلاة يوم القيامة »[3] .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا رحمة مهداة »[4] وقد روي معنى هذا من طرق ، ثم بين سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال :

﴿ قل إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد ﴾ إن كانت ﴿ ما ﴾ موصولة

---

(١) مسلم ٢٥٩٩ .
(٢) الإمام احمد ٥/٢٦٥ .
(٣) الإمام احمد ٥/٢٩٤ .
(٤) طبقات ابن سعد ١/١٩٢ ـ الطبراني المعجم الكبير ١/٧٦/٢ .

فالمعنى أن الذي يوحى إليّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادها وإن كانت ما كافة فالمعنى أن الوحي اليّ مقصور على استئثار الله بالوحدة ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ منقادون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه ، والمراد بهذا الاستفهام الأمر ، أي أسلموا .

﴿ فإن تولوا ﴾ أي أعرضوا عن الإسلام ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ آذنتكم ﴾ أي أعلمتكم أنَّا وإياكم حرب لا صلح بيننا كائنين ﴿ على سواء ﴾ في الإعلام لم أخص به بعضكم دون بعض ، كقوله سبحانه : ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ﴾ أي أعلمهم أنك نقضت العهد نقضاً سويت بينهم فيه.

وقال الزجاج : المعنى أعلمتكم بما يوحى إليّ على استواء في العلم به ، ولا أظهر لأحد شيئاً كتمته على غيره .

﴿وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ أي ما أدري أقريب حصوله أم بعيد وهو غلبة الإسلام وأهله على الكفر وأهله ، وقيل المراد العذاب أو القيامة المشتملة عليه ولا يعلمها الا الله تعالى ، وقيل آذنتكم بالحرب ولكن لا أدري ما يؤذن لي في محاربتكم .

﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ أي يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما تكتمونه من ذلك وتخفونه لا تخفى عليه منه خافية ﴿ وان أدري لعله ﴾ أي ما أدري لعل الإمهال ﴿ فتنة لكم ﴾ واختبار ليرى كيف صنعكم .

عن الربيع بن أنس قال : « لما أُسري بالنبي صلى الله عليه وسلم رأى فلاناً ، وهو بعض بني أمية على المنبر يخطب الناس ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه الآية يقول هذا الملك . وقال : ابن عباس ، يقول ما أخبركم به من العذاب والساعة لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم .

﴿ ومتاع الى حين ﴾ أي وتمتع الى وقت مقدر تقتضيه حكمته ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ بيني وبين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك ففوض الأمر اليه سبحانه .

وقال ابن عباس : لا يحكم الله إلا بالحق ، وإنما يستعجل بذلك في الدنيا يسأل ربه ، وقرىء رب بضم الباء قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين .

وقرىء أَحْكَمُ بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم ، أي قال محمد : ربي أحكم بالحق من كل حاكم ، وقرىء أَحْكَمَ بصيغة الماضي ، أي أحكم الأمور بالحق ، وقرىء قُلْ بصيغة الأمر ، أي قل يا محمد .

قال أبو عبيدة : الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف ، والتقدير رب احكم بحكمك الحق . وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم فعذبهم ببدر ، ثم جعل العاقبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين .

ثم قال سبحانه متمماً لتلك الحكاية ﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ من الكفر والتكذيب ، أي هو كثير الرحمة لعباده ، والمستعان به في الأمور التي من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم . ومن قولكم : ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم؟﴾ وقولكم : ﴿ اتخذ الرحمن ولداً ﴾، وكثيراً ما يستعمل الوصف في كتاب الله بمعنى الكذب ، كقوله : ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ وقوله : ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ ، وقرىء بالتحتية وبالفوقية على الخطاب .





خاتمة الجزء الثامن

تم بعون الله الجزء الثامن من كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء التاسع وأوله :

تفسير سورة الحج



فهرس الجزء الثامن